موسوعة

المجتمعات الدينية في الشرق الأوسط

طوني سفرج

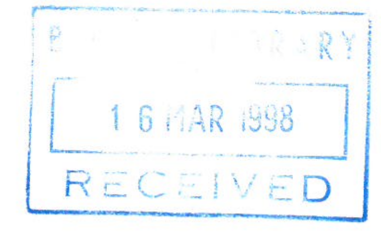
نوبليس

طوني مفرج

مَوسُوعَة
المجتمعات الدينية في الشرق الاوسط

المجلد الثالث

المسيحيون (٢)



دار نوبيليس

نوبيليس
الأشرفيّة – بيروت – لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٥

محتوى المجلد الثالث

المجلد الثالث: المسيحيّون - ٢ -.

الفصل العاشر

مفترق الألف الثاني

- على أنقاض الخلافة العبّاسيّة
- الأحوال المسيحية في نهاية الألف الأول
- المسيحيّون والخلافة الفاطميّة
- الكنيسة الإنطاكية بداية الألف الثاني
- الكنيسة كنيستان

شكليّاً، يمتدّ تاريخ الخلافة العبّاسيّة حتى العام ١٢٥٨، نهاية آخر خلفائها: المستعصم، وهو الخليفة السابع والثلاثون. أمّا عمليّاً فقد بقيت سلطة الدّولة العبّاسيّة متينة حتّى نهاية عهد هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) إذ بدأت تظهر التناقضات في الدولة ممّا أدّى الى تفكّكها. وفي عهد المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢) بات زعماء حرس الخلافة، وهم من الأتراك، أسياداً للدّولة. وراحت سلطة الخليفة العبّاسيّ بعد المعتصم، تأخذ في الانحدار لتتلاشى كلّيّاً أمام سلطة رئيس الحرس التركيّ الذي أصبح بالفعل رئيس الدّولة. ولقد منح الخليفة العبّاسيّ الواثق (٨٤٢ ـ ٨٤٧) ابن المعتصم وخليفته، رئيس حرسه التركيّ لقب سلطان. وعند وفاة الواثق أعلن الحرس خليفة بعده جعفر المتوكّل (٨٤٧ ـ ٨٦١) الذي حاول أن يفرض إرادته على الحرس ويسيطر عليهم، فعادت نيران الثورات لتتأجّج في وجه الحكم العسكريّ. وانتهى المتوكّل إلى القتل على أيدي حرّاسه بإيعاز من ابنه وخلفه المستنصر (٨٦١) الذي حاول هو الآخر ان يحرز بعض الاستقلال في الحكم فكان مصيره مثل مصير أبيه بعد خمسة أشهر من إعتلائه العرش. كذلك كان نصيب ثلاثة خلفاء عبّاسيّين حاولوا أن يتحرّروا من وصاية الحرّاس الأتراك بين سنة ٨٦٢ وسنة ٨٧٠، وهكذا تمكّن الحرس التركيّ من فرض سيطرته على الخليفة الذي كان عليه الرضوخ أم الموت.

في ظلّ هذا الواقع كان الخلفاء يؤجّرون ولايات الدولة وأقاليمها إلى حكّام المقاطعات الذين كانوا يدفعون مبلغاً من المال الى الحكومة المركزيّة ويؤمّنون معاشات الجنود والموظّفين المحلّيّين، فأصبح بعض السلالات الإقليميّة أو حكّام المقاطعات يقتطعون لأنفسهم مناطق نفوذ من ممتلكات الخلافة في المناطق والأقاليم الغربيّة والشرقيّة، وكان أكثر هؤلاء الحكّام الجدد من الترك أو الفرس.

فبعد إن كانت إسبانية قد أفلتت من السيطرة العبّاسيّة منذ سنة ٧٥٦، والمغرب منذ سنة ٧٨٨، وتونس منذ سنة ٨٠٠، وخراسان منذ سنة ٨٢٢،

وإيران الشرقيّة منذ سنة ٨٧٠، إستقلّت مصر عن تلك الخلافة على يد حاكمها التركيّ أحمد بن طولون (٨٧٢ ـ ٨٨٤) مؤسّس الدولة الطولونيّة الذي سلخ فلسطين أيضاً عن بغداد العبّاسيّة وضمّ إلى حكمه لبنان وسورية. وإذا كانت بغداد قد تمكّنت من استرجاع سيادتها على مصر سنة ٩٠٥، فإنّ هذه السيادة لم تَدُم سوى ثلاثين سنة انتهت على يد حاكم مصر التركيّ محمد بن طغج الملقّب بالأخشيد. ثمّ في ٩٦٩ حل محلّ الأتراك الأخشيديّين في مصر الفاطميّون مؤسّسو الخلافة الفاطميّة الشيعيّة الذين ضمّوا إلى دولتهم فلسطين ولبنان وسورية.

إضافة الى الطولونيّين، والأخشيديّين ودولتيهم، حكم الحمدانيّون شماليّ سورية بعد الأخشيديّين إثر كثير من المنازعات والمهادنات مع الخلفاء. وتمكّنوا من بسط سلطانهم على الموصل وجانب كبير من العراق وشماليّ سورية، وقد عاشت الدّولة الحمدانيّة، بين مدّ وجزر، مئة سنة كاملة تبدأ مع بداية سنة ٨٩٢ وتنتهي بنهاية سنة ٩٩١. إلاّ أنّ الدولتين الأبرز اللّتين قامتا على أشلاء الخلافة العبّاسيّة فكانتا: خلافة الفاطميّين، ودولة السلاجقة، اللّتين اقتسمتا البلاد السوريّة فيما بينهما، فاستولى السلاجقة على شماليها، وسيطر الفاطميّون على جنوبيها ،وكان السلاجقة من الترك، وانتسب الفاطميّون إلى العرب.

كان من السلاجقة، أو السلجوقيّين،عدّة فروع أهمّها:

السلاجقة الكبار: ١٠٣٧ ـ ١١٧٥

سلاجقة كرمان: ١٠٤١ ـ ١١٨١

سلاجقة سورية: ١٠٩٤ ـ ١١١٧

سلاجقة العراق وكردستان: ١١٧٧ ـ ١١٩٤

سلاجقة الروم في آسية الصغرى: ١١٧٧-١٣٠٠

ومن هذه الفروع برزت عدّة سلالات صغيرة أسّسها الأتابكة. أمّا

الفاطميّون فقد أسّسوا خلافة شيعيّة كانت قاعدتها مصر وامتدّت سيطرتها إلى سورية ولبنان بين مدّ وجزر بين سنة ٩٠٩ وسنة ١١٧١

وسط هذه المنازعات المتعدّدة الأطراف عاش الشرق، الذي نحن بصدد بحث تاريخ مجتمعاته، عصوراً مظلمة أكثر من أيّة عصور سابقة.

الأحوال المسيحية في نهاية الألف الأول

عانى المسيحيّون بخلال ذلك الوضع القلق الناشىء عن الصراعات السلطويّة كثيراً. وكانوا في كثير من الأحيان موضوع مزايدة في الاضطهاد والاستعباد بين تلك الدويلات الإسلاميّة المتصارعة فيما بينها على السلطة، كما كانوا عرضة للهجومات من قبل كلّ ثائر إسلامي بوجه أيّ من السلطات وسط ذلك الزمن المضطرب. ومّما حفظته المدوّنات في هذا المجال ما من شأنه أن يدلّ على صعوبة العيش التي عانى منها المسيحيّون في القرن الأخير من الألف الأوّل، والأمثلة على ذلك كثيرة .

سنة ٩٢٣ وسط ثورة فريق من المسلمين في بلدة الرملة[١] ضد العامل العباسيّ اقدم الثّوار على هدم كنيستين: كنيسة مار قزما وكنيسة ماركورقس. كما هدموا كنيسة عسقلان[٢] وكنيسة قيصرية[٣].

---

١ ـ بلدة في فلسطين شمال شرقي القدس. نشبت بينها وبين بيت جبرين المجاورة معركة اجنادين، عند الزحف العربي سنة ٦٣٤، التي انتصرت فيها الجيوش العربية على البيزنطيين.

٢ ـ عسقلان: اشقلون قديماً. مدينة قديمة على ساحل فلسطين الجنوبي، تحتلّ موقعاً استراتيجياً سوف يلعب دوراً مهمّاً في الحروب الصليبية.

٣ ـ قيصرية: هي قيصرية فلسطين (وهي غير قيصرية تركية الآسيوية وغير قيصرية فيليبوس المعروفة ببانياس) ويقال لها تحريفاً: قيساريّة. مدينة قديمة بين حيفا ويافا. بناها هيرودوس بين ٤٠ و ٤ ق.م. كانت مركز إقامة الحكّام الرومان. ثم اضحت كرسيّاً اسقفياً كانت له الرئاسة في فلسطين قبل ان يحتلّها العرب سنة ٦٣٣ ولم يبقَ منها اليوم إلاّ انقاض.

وفي مصر ثار المسلمون في الوقت نفسه وهدموا كنيسة تنيس[1]. وإذ حاول المسيحيّون اعادة بناء الكنيسة وقد «قرب تمامها ثار المسلمون ثانية فهدموا ما بنوه وأحرقوه بالنار[2]»، وفي السنة التالية (٩٢٤) ثار المسلمون بدمشق فهدموا الكاتدرائية الجامعة التي كانت تُعرف بكنيسة مرتميم وكانت «كنيسة عظيمة كبيرة حسنة، أُنفق فيها مئتا ألف دينار، ونهبوا ما كان فيها من آنية وحليّ وستور. ونُهبت ديارات (أديار) وخاصّة دير النساء الذي كان جانب الكنيسة. وشعّثوا كنائس كثيرة للملكيّة. وهدموا كنيسة النسطوريّة[3]». وفي السّنة نفسها «أخذ الوالي الرهبان والأساقفة وطلب منهم الجزية ومن جميع الضعفاء والمساكين والديارات التي بأسفل أرض الصعيد ومن الأساقفة والرهبان الذين في دير مينا[4]». وفي العام ٩٣٧ ثار المسلمون بالقدس وأحرقوا كنيسة القيامة ونهبوها وخرّبوا منها ما قدروا عليه[5]». كان ذلك في عهد خلافة الراضي بالله العبّاسيّ (٩٣٤ - ٩٤٠) يوم كان الأخشيديّون مسيطرين على مصر، وقد بعث الأمير الأخشيديّ أحد قوّاده سنة ٩٣٩ إلى مدينة تنيس المصريّة إثر موت بطريرك الإسكندريّة على الملكيّة سعيد بن بطريق، على رأس طائفة من الجند «فختم على كنائس الملكيّة وأحضر آلاتها إلى الفسطاط وكانت كثيرة جداً[6]».

وفي حوالى الوقت نفسه ثار المسلمون أيضاً بمدينة عسقلان مرّة ثانية «وهدموا كنيسة مريم العذراء ونهبوا ما فيها وأعانهم اليهود حتّى أحرقوها، ففر أسقف عسقلان إلى الرملة وأقام بها حتّى مات[7]».

---

١ - تنيس: بلدة في مصر السفلى.

٢ - سعيد بن بطريق، نظم الجوهر، طبعة بيروت، ج ٢، ص ٨٢

٣ - المرجع السابق ص ٨٣؛ حبيب الزيّات، الروم الملكيون في الاسلام المطبعة البولسية (حريصا - لبنان ١٩٥٣) ج ١، ص ٣٣.

٤ - سعيد بن بطريق، نظم الجوهر، ج ٢، ص ٨٣

٥ - المقريزي، الخطط، طبعة بولاق، ج ٢، ص ٤٩٥

٦ - المرجع السابق

٧ - المرجع السابق

قبل نهاية الألف الأوّل بقليل بدأت مصر زمن تحوّل مهمّ في تاريخها، إذ أضحت قاعدة الخلافة الفاطميّة الفتيّة منذ سنة ٩٧٣ يوم انتقل إليها من المهديّة، عاصمة تلك الخلافة حتّى ذلك التاريخ، الخليفة الفاطميّ الثالث المعزّ لدين الله (٩٥٢-٩٧٥) حيث كان قائده المظفّر، جوهر، قد أسّس عاصمة جديدة للحكم الفاطميّ هي مدينة القاهرة، ومن القاهرة سوف تتّسع سلطة الفاطميّين الشيعة بعد وقت قصير إلى أوسع مداها، لتشمل المنطقة الممتدّة من المحيط الأطلسيّ إلى البحر الأحمر، إضافة إلى الحجاز واليمن وسورية حتّى الموصل[1].

في بداية عهد الفاطميّين بمصر تعرّض المسيحيّون للعنف والإرهاب والاضطهاد. ومن المدوّنات أنّه على أثر تمكّن القائد البيزنطيّ الدومستيقوس (لاون بن برداس الفوقاس) من أسر محمّد بن ناصر الدّولة في نواحي الشام سنة ٩٦٠، كانت ردّة الفعل عند المسلمين في مصر على ذلك عنيفة ضدّ المسيحيّين، «فشغب عوامّ مصر شغباً عظيماً وأغلق النصارى الكنائس في ذلك اليوم (وكان يوم أحد) وأصبح الرعاع يوم الإثنين غدوة، وقصدوا كنيسة ميخائيل الملاك التي للملكيّة في قصر الشمع، وكسروا أبوابها وهتكوا الكنيسة ونهبوا ما ظفروا به منها. ورجعوا إلى كنيسة أبي قير، التي لليعقوبيّة بقصر الشمع، ففعلوا بها مثل ذلك... وكذلك أيضاً كنيسة كانت لليعقوبيّة برأس الخليج على اسم السيّدة[2]».

وعندما غزا النقفور الدومستيقوس المغرب سنة ٩٦١ وفتحها وخرّب ما فيها من المساجد، كانت ردّة فعل مسلمي مصر هذه المرّة أيضاً عنفاً ضدّ المسيحيّين، وقد وردهم الخبر ليلة سبت أليعازر، «فتجمّع في الحال خلق من رعاع أهلها وقصدوا أيضاً كنيسة ميخائيل بقصر الشمع فشعّثوها وأخربوها خراباً عظيماً، ونهبوا كنيستي النسطوريّة، وكنيسة مار تادرس للملكيّة، وكنيسة السيّدة المعروفة بكنيسة البطريرك، وشعّثوها أيضاً، وكانت يومئذ في يد اليعقوبيّة... وقد

---

١ - ابن تغري بردي، ج ٢، قسم ٢، ص ١٠؛ ابن خلّكان، ج ٣، ص ٥٤.

٢ - يحيى بن سعيد الانطاكي، كتاب الذيل، (طبعة بيروت) ص ١١٦

بقيت كنيسة ميخائيل مغلقة خراباً مدّة طويلة وأبوابها مطمورة بالتراب لأنّ المسلمين منعوا فتحها وقلع الردم عنها[1] ».

حاول الخليفة الفاطميّ الخامس العزيز بالله (٩٧٥-٩٩٦) ان يستوعب النصارى من خلال تولية بعضهم، فولّى عيسى بن نسطوريوس النصرانيّ الوزارة، وجعل أبا الفتح منصور النصرانيّ طبيبه وأنزله منزلة سامية في الدولة[2]، وكثر عدد الذمّيّين من النصارى واليهود في الدواوين ومناصب الحكم، واستأثروا بشيء كثير من السلطة والنفوذ، وكانت زوجة العزيز وأم ست الملك جارية روميّة أورثوذكسيّة، وكان لست الملك خالان رفعهما العزيز بتدخلّه في شؤون الكنيسة إلى أعلى المناصب الإكليريكيّة، فجعل أحدهما: أورسطيوس بطريركاً على أورشليم سنة ٩٨٤، والآخر: أرسانيوس متروبوليتا على القاهرة ثمّ بطريركاً على الإسكندريّة[3]. إلاّ أنّ هذه السياسة لم تمنع من استمرار ما كان حاصلاً على أيدي الرعاع من ردّات فعل ضدّ المسيحيّين. فعندما شبّت النار في الأسطول الفاطميّ سنة ٩٩٦ وأتت على معظمه، وهو راس على شواطىء مصر« حمل البحريّون السلاح واتّهموا الروم والنصارى وكانوا مُقيمين بدار مانك بجوار الصناعة التي بالمقس، وحملوا على الروم هم وجماعة من العامّة معهم فنهبوا أمتعتهم وقتلوا منهم مئة رجل وسبعة رجال، وطرحوا جثثهم في الطرقات وأُخذ من بقي فحبس بصناعة المقس[4] »، ونُهبت كنيسة ميخائيل التي للملكيّة بقصر الشمع، وأُخذ منها رحل وآنية ذهب وفضّة ما يساوي جملة كثيرة، وشعّثت الكنيسة، ونهبت كنيسة النسطوريّة وجرح أسقف بها لهم جراحات مات منها[5] ».

يتّضح من تلك الممارسات أنّ السياسة التي حاول الخليفة الفاطميّ الخامس

---

١ ـ المرجع السابق ص ١١٧ ـ ١١٨
٢ ـ ابن العبري، مُختصر الدول، ص ٣١٦
٣ ـ يحيى بن سعيد الانطاكي، ص ١٦٤، ١٦٥، ١٨٥، ٢٩٨؛ المقريزي، الخطط، ج ٤، ص ٣٩٨.
٤ ـ المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.
٥ ـ يحيى بن سعيد الانطاكي، كتاب الذيل، ص ١٧٨ ـ ١٧٩

إتّباعها بهدف استيعاب النصارى لم ترق للشعب المسلم، وممّا يعزّز هذا الاستنتاج أنّه بينما كان الخليفة يوماً يجري على بغل سريع، ألقت امرأة مسلمة في طريقه لوحة كُتب عليها: « بالّذي أعزّ اليهود بمنشا[1]، والنصارى بابن نسطور[2]، وأذلّ المسلمين بك. ألا نظرت في أمري؟[3] ».

وينتهي الألف الأوّل في عهد الخليفة الفاطميّ السادس: الحاكم بأمر الله، أو الحاكم بأمره (٩٩٦-١٠٢١) الذي أنهى الألف الأوّل بشيء من مسالمة المسيحيّين، إلاّ أنّه بدأ الألف الثاني بإذلالهم بشكل لم يسبق له مثيل.

يمكن وصف نهاية الألف الأوّل في هذه المنطقة من العالم بأنّها كانت « حافلة بفوضى سياسيّة، وتفسّخ اجتماعيّ، وتشاؤم فكريّ. وتشكّك دينيّ[4] ». وهذا ما جعل أبا العلاء المعرّيّ: الشاعر الفيلسوف الضرير (٩٧٣ ـ ١٠٥٧) ينشد متحسّراً:

« هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت
ويهود حارت والمجوس مضلّلة
إثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا
دين، وآخر ديّن لا عقل له[5] ».

المسيحيّون والخلافة الفاطميّة

كان المسيحيّون واليهود، بشكل عامّ، على خير حال في ظلّ الخلافة الفاطميّة، باستثناء عهد الحاكم بأمره الذي عاد فأجرى عليهم التدابير المذلّة التي

---

١ ـ منشا (منسه) ابن ابراهيم، هو رجل يهودي أنابه الخليفة عنه في سورية
٢ ـ ابن نسطور، هو الوزير النصراني عيسى بن نسطور الذي سبق الكلام عنه
٣ ـ ابن تغري بردي، ج ٢، ق ٢، ص ٤؛ ابو الفداء، ج ٢، ص ١٣٨؛ السيوطي، ج ٢، ص ١٤
٤ ـ حتّي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢١٤ ـ ٢١٥
٥ ـ عزيز زند، لزوم ما لا يلزم أو اللزوميات (القاهرة، ١٨٩١ ـ ٩٥) ج ٢، ص ١٩١

كان عمر بن عبد العزيز (٧١٧-٧٢٠) والمتوكل (٨٤٧-٨٦١) قد فرضاها عليهم، ثمّ أضاف إليها فنوناً أخرى من الإذلال، مع أنّ والدته ووزيره كانا مسيحيّين. فقد زاد سنة ١٠٠٩ على القيود السابقة المتعلّقة بالملابس تمييزاً للذمّيّ من المسلم، فأوجب على النصارى ، متى دخلوا الحمّامات العامّة، أن يجعلوا في أعناقهم صلباناً، زنة الواحد منها نحو كيلوغرامين، على أن يرسلوها متدلّية على صدورهم. وكان على اليهود، في مثل هذا الحال، أن يجعلوا في أعناقهم إطاراً من خشب بالوزن نفسه شُدَّت إليه الأجراس المجلجلة[1]. وفي عهده جرى هدم كنائس كثيرة إن بأمره أو على أيدي الرعاع.

كان اليعاقبة، في عهد الحاكم بأمره قد شرعوا في تجديد كنيسة قديمة في مصر، وتحديداً في راشدة، وبينما كان المؤمنون يجهدون في البناء هاجمهم جمهور من المسلمين وهدموا كلّ ما بُني. وقد سارع الحاكم إلى بناء مسجد على أنقاض الكنيسة. في الوقت نفسه استأنف العوام مهمّاتهم، برضى الحاكم طبعاً، فأقدموا على هدم كنيستين قريبتين من المكان نفسه، إحداهما لليعاقبة، والثانية للنساطرة، وبُني، مكانهما أيضاً مسجدان. وكان للملكيّين حارة بالقاهرة يسكنونها، فأمرت السلطات بإخراجهم منها، وهُدم ما كان لهم فيها من المنازل إضافة الى كنيستين، وحُوّلت الحارة بأجمعها إلى مسجد كبير هو: المسجد الأزهر، وهجر المسيحيّون إلى المكان المعروف بالحمراء[2].

من أهمّ الكنائس التي هُدمت بأمر الحاكم كنيستا السيّدة في دمشق والقيامة في القدس. ففي سنة ١٠٠٨ أصدر الى دمشق أوامره القاضية بهدم كنيسة السيّدة، وهي للملكيّين، وقد كانت كبرى كنائسهم، فهُدمت. كما كتب الى عامله

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٢١، مستنداً الى: ابن خلّكان، ج ٣، ص ٥؛ سعيد بن البطريق، ص ١٩٥؛ المقريزي، ج٢، ص ٢٨٨؛ ابن حماد، اخبار ملوك بني عبيد، نشر فندرهيدن، (الجزائر ١٩٢٧) ص ٥٤

٢ ـ يحيى بن سعيد الانطاكي، كتاب الذيل، ص ١٨٦

في الرملة بفلسطين أمراً بهدم كنيسة القيامة ومحو آثارها، وقد تمّ الهدم دون التمكّن من إزالة الآثار نظراً لاستحالة التنفيذ بسبب ضخامة البناء. كما هدموا في الوقت نفسه كنيسة القدّيس قسطنطين وسائر ما حوته حدودها من بناء، واجتهدوا في إزالة الآثار المقدّسة، وحاولوا تحطيم القبر المقدّس، فنقروا الصخر وفتّتوا جزءاً كبيراً منه. وكان في الجوار دير للراهبات يعرف بدير السرب لم يسلم هو الآخر من الهدم. وقد صادر الهدّامون كلّ ما كان في تلك الأماكن المقدّسة من ثروات.

في الوقت نفسه كانت الأيادي تعمل بأمر من الحاكم في هدم كنيسة القنطرة بمصر، وهي الأخرى للملكيّين، وبعد أن نهبت تلك الأيادي كلّ ما كان فيها من كنوز ومقدّسات، انتقلت لتعبث في المقابر المحيطة، مدافن النصارى، ففتحتها، ونبشت رفات الموتى، وطرحت عظامهم في الخلاء لتأكل الكلاب لحم من دفن قبل وقت قصير. وكان بجوار هذه الكنيسة بيعة لليعاقبة على إسم القدّيس قوزما فامتدّت إليها تلك الأيادي ونقضتها[1].

بلغت أصوليّة الحاكم حدّاً لم تبلغه مع أحد سواه، فقد عمد تطبيقاً للنصوص القرآنيّة التي حرّمت الخمرة، إلى الأمر باقتلاع الكروم، وقد كانت في مصر من مزروعات المسيحيّين، وقد خُيّر من أبى من أهل الذمّة الرضوخ لهذا التدبير بين اعتناق الإسلام والرحيل إلى بلاد الروم[2].

يُقدّر دارسو الحالة الاجتماعيّة في هذه الحقبة أنّ عدد النصارى في مصر وسورية ولبنان وفلسطين، في عهد الحاكم، أي بعد محمّد بنحو أربعمئة سنة، كان مساويا لعدد المواطنين من المسلمين إن لم يفقه[3]. وإذ لم يرَ الحاكم من قبل

١ ـ المرجع السابق، ص ١٩٤ ـ ١٩٦

٢ ـ راجع: يحيى بن سعيد الانطاكي، ص ٢١٨ ـ ٢١٩

٣ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٢٢

النصارى رغبة في اتّباع المذهب الإسلاميّ الذي أسّسه ودعا إليه، شجّعهم على النزوح إلى حيث كان البيزنطيّون لا يزالون مسيطرين: إلى إنطاكية وشماليّ سورية ولبنان، وقد جاء هدم الكنائس وتشديد التدابير المذلّة للمسيحيّين، على ما يبدو، ضمن تلك السياسة[1]. إلا أنّ قسماً كبيراً من هؤلاء قد أصرّ على الصمود في دياره ممّا جعل الحاكم يصعّد في تلك التدابير، فأمر بمعاقبة كلّ من يصنع أيّ مقدار من النبيذ في محاولة لمنع ممارسة سرّ الأفخارستيّة. فداهم الجنود بيوت النصارى وحطّموا ما كان عندهم من خوابٍ وكؤوس، وحذّروا النصارى من تقديم النبيذ في قرابينهم، فراح هؤلاء يقرّبون، عوضاً عن النبيذ، ماء نُقع فيه عود الكرمة أو الزبيب[2].

في هذه الأثناء انقطعت الصلات بين كنيسة مصر وكنائس الشرق والغرب، إلاّ أنّ اليونانيّة بقيت تحتلّ مرتبة مرموقة في الكنيسة القبطيّة في مصر، رغم أنّ اللّغة القبطيّة كانت قد بدأت تحلّ محلّ اليونانيّة فيها، منذ القرن الخامس، والعربيّة منذ عهد حديث[3]، ولكن لن يمضي وقت طويل حتّى لا يعود من قبط مصر من يعرف القبطيّة أو الروميّة، ولتحلّ العربيّة مكانهما في كلّ مجال.

رغم تلك الظروف الصعبة وجد المسيحيّون في مصر وقتاً ومناسبة للاختلاف فيما بينهم، وكان موضوع الخلاف سنة ١٠٠٤حساب عيد الفصح، فجعله البعض في يوم فصح اليهود يوم السبت في الخامس من نيسان (إبريل)، وقال آخرون أنّه يوافق يوم الأحد في السادس من الشهر نفسه[4]، فكتب ارسانيوس بطريرك الإسكندريّة الى أهل أورشليم بما صحّ عنده جاعلاً فصح النصارى يوم الأحد في السادس من نيسان (إبريل) فكتب أهل الشام إلى مصر يتعارفون منهم ما اتّفقوا

١ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٢، ص ٢٠٨
٢ - يحيى بن سعيد الانطاكي، ص ١٩٢ - ١٩٣
٣ - سير البطاركة، مخطوط باريس رقم ٢٠٠ - ٢٠١ ص ٣٠٢
٤ - الإنجيل المقدس، مخطوط اوكسفورد هانت، ١١٨

عليه، فلمّا وصلت كتب أرسانيوس عيّد جميع النصارى في يوم الأحد في السادس من نيسان باستثناء قوم من اليعاقبة المصريّين، من أهل الصعيد، فإنّهم اصرّوا على أن يفصحوا يوم الأحد الذي يليه[1].

قبل أن يموت الحاكم بأربع سنوات ظهر في القاهرة في الثلاثين من أيّار سنة ١٠١٧ حمزة بن عليّ بن أحمد الزوزنّي، وكان فارسيّاً ابصر النور في زوزن ثمّ هاجر إلى مصر والتحق بخدمة الحاكم وراح يدعو إلى التوحيد. جاءت دعوة حمزة مختلفة عن دعوة الحاكم بأنّها لم تكن تكليفاً بل كانت تخييراً[2].

تمكّن حمزة بما كان له من تأثير وسلطة على الحاكم من إبطال التدابير التي كان هذا الأخير قد أصدرها ضدّ المسيحيّين واليهود، فرُفعت القيود التي فُرضت عليهم، وأُطلقت لهم الحرّيّة في إعادة بناء الكنائس وعودة من أسلم منهم إكراهاً إلى المسيحيّة، حتى إنّ الحاكم قد أصدر المناشير بهذا الخصوص الى البطاركة[3]. وسوف يتعزّز وضع المسيحيّة، بعض الشيء، بعد انتقال الخلافة الفاطميّة إلى الظاهر بن الحاكم (١٠٢١ - ١٠٣٦) الذي عادت معه سلطة السيّدة ستّ الملك إلى سابق عزّها.

ما أنّ تسنّم الظاهر كرسيّ الخلافة بعد موت أبيه حتّى سارعت ستّ الملك إلى إيفاد نيقوفورس بطريرك أورشليم الى القسطنطينيّة ليبلغ الأمبراطور باسيليوس الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥) «بعودة الكنائس وتجديد كنيسة القيامة المقدّسة وسائر البَيع في جميع بلاد مصر والشام، ورجوع أوقافها إليها. واستقامت أمور النصارى[4]».

إلاّ أنّ موت الحاكم لم ينه الممارسات تماماً ضدّ المسيحيّين. ففي عهد خليفته

١ - يحيى بن سعيد الانطاكي، ص ١٩٢ - ١٩٣
٢ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٢، ص ٢٠٨، بالاستناد الى: عمدة العارفين ص ٤٤ - ٤٧
٣ - للاطّلاع على نصوص تلك المناشير: تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي، ص ٢٣٠ - ٢٣١
٤ - يحيى بن سعيد الانطاكي، ص ٢٤٣ - ٢٤٤

الأوّل: الظاهر (١٠٢١ ـ ١٠٣٦) وهو الخليفة الفاطميّ السابع، تقرّر بناء سور لمدينة القدس «فخرّب المتولّون لعمله كنائس كثيرة في ظاهر المدينة، وأُخذت حجارتها، وعوّلوا على نقض كنيسة صهيون وكنائس غيرها ليحملوا حجارتها إلى السور[1]». ولم يتمّ إعادة بناء كنيسة القيامة إلاّ في عهد الخليفة الثامن: المستنصر بالله (١٠٣٦-١٠٩٤) الذي «هادن ملك الروم فاشترط عليه، هذا الأخير، أن يعمّر بيعة القيامة مقابل إخلاء الروم خمسة آلاف أسير، وقد أرسل ملك الروم من عمرّها وصرف عليها مالاً جزيلاً[2]».

في هذه الأثناء كان أتباع حمزه بن عليّ يحاولون نشر تعاليم ملّتهم الجديدة. وقد كتب أحد هولاء: بهاء الدين المقتني (المتوفيّ بعد سنة ١٠٤٢) رسائل لبثّ دعوته بلغت حتّى الهند والقسطنطينيّة قبل القرار بإقفال باب الدعوة. وقد جمع بهاء الدين في رسائله إلى المسيحيّين بين شخصيتَي حمزه والمسيح، «وخاطب المسيحيّين في رسائل أخرى وجّهها إليهم بالقدّيسين، وبمجامع القدّيسين، راجياً أن يحملهم بذلك على اعتناق تعليمه. وكان يضرب من الأمثال ما هو من قبيل الوارد في العهد الجديد من الكتاب المقدّس. وفي ذلك ما قد يشير إلى سابق صلة له بالتعليم المسيحيّ[3]».

عجز، في هذا الوقت،خلفاء الحاكم بأمره عن فرض الاستقرار والأمن في مصر، وعن المحافظة على السيادة الفاطميّة في المناطق التي امتدّ اليها حكم الخلافة الشيعيّة، فخسروا حلب بعد موت الحاكم بسنتين عندما انتزعها منهم المرداسيّون، وهم الآخرون من الشيعة. وقد أسّسوا دولة عربيّة شيعية بين ١٠٢٣ و ١٠٧٩ على أنقاض الدولة الحمدانيّة، انطلقت من وادي الفرات وشملت حلب ومنبج وبالس

١ ـ يحيى بن سعيد الانطاكي، ص ٢٧٢
٢ ـ ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ١٥٩
٣ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢١٧ ـ ٢١٨ بالاستناد الى: Sylvestre de Sacy, Exposé de la religion des druzes (Paris, 1838) vol. I, P. 83, N. 1

والرقّة والرحبة ثمّ حمص وصيدا وبعلبك وطرابلس، وامتدّت إلى عانه، وملكت جميع وادي الفرات الشاميّ. وفي سنة ١٠٧١ سقطت مدينة القدس، وهي كبرى مدن سورية الجنوبيّة التي كان قد بسط الفاطميّون سلطتهم عليها، سقطت في أيدي السلاجقة. وتبعتها سنة ١٠٧٦ مدينة دمشق. وما أن تمكّن الفاطميّون من استرجاع القدس، سنة ١٠٩٨ (أو سنة ١٠٩٦[1]) حتّى عادوا فخسروها بعد سنة لتقع هذه المرّة في أيد لم يحسب لها من قبل حساب: أيدي الصليبيّين.

بنهاية العهد الفاطميّ الذي ترافق مع نهاية القرن الأوّل من الألف الثاني، بدت المسيحيّة في الشرق وكأنّها على مشارف المجهول. إلاّ أنّه على ما في المجهول من توتّر، فإنّه يبقى في مثل هذا الحال واعداً بتغيّرات لا يمكن إلاّ ان يكون المسيحيّون، الذين عانوا طوال ما يقارب الخمسة قرون التقهقر والذلّ والانكسار، قد أملوا فيها وعداً، وإن حالماً، باستعادة سيادتهم على الشرق.

غير أنّ مفترق القرن الأوّل من الألف الثاني كان حاشداً بالأحداث، وقد رافق ما أخذ يظهر من تحوّلات في مسار الأحداث، على صعيد المجابهة بين المسيحيّة والإسلام، حدثٌ قد يكون موازياً في سلبيّته لأيّ إيجابيّة بالنسبة الى مسيحيّين يمكن أن تنشأ عن أيّ حدث آخر ألا وهو: الانشقاق العظيم في الكنيسة.

الكنيسة الانطاكية بداية الألف الثاني

عانت الكنيسة الإنطاكيّة بخلال الحكم الفاطميّ، نتائج الضربات المؤلمة للأبرشيّات الإنطاكيّة الجنوبيّة، كما عانت، في الوقت نفسه من تدخّل بعض الأباطرة في شؤونها، كما حصل مع البطريرك الإنطاكي يوحنّا الخامس (٩٩٣-١٠٢٢) على يد الأمبراطور باسيليوس الثاني الذي حاول فرض «إصلاح

١ ـ راجع: W.D. Stevenson, the Crusaders in the East. (Cambridge, 1905), P. 20.

كنيسة إنطاكية على طراز كنيسة الحكمة الإلهية في القسطنطينيّة، ممّا اضطر البطريرك الى التنحّي عن الكرسيّ لبعض الوقت، وبالتالي خلفه نيقولاوس الثالث (١٠٢٥-١٠٣١) إلى التنازل عن بعض الامتيازات التي تمتّعت بها كنيسة إنطاكية مقابل بقائه على السدّة البطريركيّة[١] ».

لقد كانت إنطاكية في هذه الحقبة حجراً بين الشاقوف الإسلاميّ من جهة، والشاقوف القسطنطينيّ من جهة ثانية. فلقد كانت القسطنطينيّة هي المسيطرة على تلك الكنيسة التي تعتبر المرجع لكنائس سورية ولبنان، باستثناء الكنيسة المارونيّة التي كانت قد أضحت علاقتها مباشرة برومة، والكنائس غير الخلقيدونيّة التي كانت قد استقلّت بذاتها، كالكنيسة النسطوريّة والكنيسة اليعقوبيّة. وهكذا فعندما مات البطريرك يوحنّا الخامس سنة ١٠٢٢ بقي الكرسيّ الإنطاكيّ خالياً مدّة ثلاث سنوات ونصف. ثمّ تمّ انتخاب خلف له: نيقولاوس الثالث سنة ١٠٢٥ بطريركاً على إنطاكية وصلّي عليه في القسطنطينيّة. ويُلاحظ أنّ جميع البطاركة الذين تسلّموا كرسي إنطاكية في هذه الحقبة من التاريخ كانوا يُعيّنون من القسطنطينيّة، أو أنّ الصلاة عليهم كانت تحصل هناك، مثلما حصل في الصلاة على « الياس الراهب النيقوميذيّ بطريركاً على إنطاكية (١٠٣٢ ـ ١٠٣٣[٢]). وبطرس الثالث الذي كان يعمل في البلاط الملكيّ القسطنطينيّ أمين سرّ لدى الأمبراطور رومانوس الثالث (١٠٢٨ ـ ١٠٣٤) قبل أن يقدّم النذر ويلتحق بكنيسة الحكمة الإلهيّة، ليرقى فيما بعد إلى رتبة البطريركيّة على إنطاكية (١٠٥٢ ـ ١٠٥٦). إلاّ أنّ بطرس الثالث هذا حاول أن يعيد لإنطاكية استقلاليّتها، أو بالأحرى حاول أن يحرّرها من الوصاية البيزنطيّة، ومن المدوّنات في هذا المجال أنّه « احتجّ بشدّة على

١ - راجع: يحيى ابن سعيد الانطاكي، ص ١٧٧؛ قابل Vailhé A., Echos d'orient, 1933, 283; Grumel, V., Patriarches grecs d'Antioche du Nom de Jean, Echos d'orient, 1933, 283, 284.

٢ - يحيى ابن سعيد الانطاكي، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤

ترقية شمّاس إنطاكيّ في القسطنطينيّة بدون موافقة رئيسه الإنطاكيّ[١] ». كما احتجّ على توسيع النفوذ القسطنطينيّ في الولايات الأرمنيّة التي كانت تخضع لسلطة إنطاكية الروحيّة منذ القدم، وعارض إلحاح البطريرك القسطنطينيّ ميخائيل على محاولة إحلال الطقس البيزنطيّ واللغة اليونانيّة محلّ اللغة السريانيّة واللغة العربيّة في بعض الأبرشيّات الإنطاكيّة[٢]. وفي هذا الاعتراض دليل واضح على الحالة الشاذّة التي كانت تعاني منها إنطاكية بسبب الهيمنة، أو محاولة الهيمنة عليها من قبل القسطنطينيّة، إمبراطورياً وكنسيّاً.

لقد كان بطرس الثالث بطريركاً فذّاً حاول جاهداً إعادة إنطاكية إلى سابق أهمّيّتها وإلى دورها الأصيل في العلاقة الرائدة بين الكنائس. فما أن تسنّم الكرسي الإنطاكيّ حتّى سارع إلى تعزيز علاقته بكنائس رومة والإسكندريّة وأورشليم. وكانت العلاقة منقطعة تماماً منذ أمد طويل بين رومة وإنطاكية، فراسل لاون التاسع (١٠٤٩ ـ ١٠٥٤) « متلهّفاً على هذا الانقطاع، متسائلاً عن سبب ابتعاد خليفة بطرس العظيم عن جسم الكنائس، وانقطاع صوته عن مجامعها، وامتناعه عن المساهمة في حلّ مشاكلها الإكليريكيّة، مبيّناً الفائدة التي تنجم عن مثل هذا التعاون من حيث التوجيه الأخويّ الرسوليّ[٣] ». وقد أدّت هذه الجهود إلى تقارب مهمّ بين رومة وإنطاكية، فأصبح ذكر البابا الرومانيّ يرد في رتبة القدّاس الإنطاكيّة، وكذلك في أورشليم والإسكندريّة، علماً بأنّ لاون التاسع كان قد أجاب على رسالة بطرس برسالة سلام تضمّنت تأكيد البابا بوضوح على « تقدّم رومة وعصمة السدّة البطرسيّة، وعلى أنّ كنيسة رومة هي أمّ الكنائس، ومحكمتها أعلى المحاكم، منبّهاً على تلبّد غيوم الهمّ والشقاق في الشرق، مشدّداً على وجوب الدفاع عن حقوق الكرسي الإنطاكيّ[٤] ».

١ - Grumel V., Echos d'orient 1934, 140 - 141

٢ - Runciman S., Estern Schism, 64 - 65

٣ - Michel A., Humbert und Keroullarios, II, PP. 437 - 452

٤ - Michel, A., Op. cit., PP. 458 - 475

لقد كان هذا البطريرك الإنطاكيّ العظيم يجهد لتوحيد الكنيسة، وكأنّه كان مُدركاً للخطر الذي سوف يُحدث ذلك الشرخ الرهيب في المسيحيّة. ففي إحدى رسائله الى دومينكوس، رئيس أساقفة إكويلية (البندقيّة) ما من شأنه أن ينمّ عن تلك الرغبة العميقة في توحيد الكنيسة، وذلك من خلال إشارته إلى رسالة الجلوس التي وجّهها إلى البابا الرومانيّ... حتى إذا رضي البابا بفحواها «اتّحد الجميع بنفس واحدة ليقدّموا لله جميعاً ضحيّة واحدة[1] ».

إلاّ أنّ رغبة ذلك الرائد المسيحيّ الكبير كانت، على عمقها وصدقها وحرارتها، بعيدة المنال. فالقدر كان أقوى ، وكان لا بدّ من انتصار الأقدار.

في هذه الأثناء كان الأمبراطور البيزنطيّ رومانوس الثالث يعمل بجهد على إخضاع كنائس الشرق لسلطته. حتى إنّه استدعى بطريرك اليعاقبة يوحنّا الذي كان يقيم في مرعش، ليشخَص إليه مع مطارنته وأساقفته، وعندما حضر هؤلاء الى القسطنطنيّة حاول الأمبراطور، عبر بطريرك عاصمته، أن يفرض على البطريرك اليعقوبيّ نقض معتقده والالتحاق بالكنيسة الأرثوذكسيّة، وعندما بقي اليعقوبيّ مصرّاً مع ثلاثة من أساقفته على المونوفيزيّة، أمر الأمبراطور بنفي البطريرك إلى المغرب ، وبسجن الأساقفة الثلاثة، وقد مات الأوّل بعد ثلاث سنوات من نفيه، فأقام اليعاقبة لهم بطريركاً جديداً ما لبث أن التجأ الى ديار بكر من بلاد الإسلام، هارباً من طلب الأمبراطور له، ولم يُعرف مصير الأساقفة المسجونين[2] .

هذه الأحداث المشرقيّة تبقى غير ذات بال نسبة إلى ما سوف يجلبه انشقاق الكنيسة إلى كنيستين: غربيّة وشرقيّة، بدءاً من منتصف القرن الحادي عشر، ذلك الانشقاق الذي كان مقدّمة لقرنين ونيف من صراع على أرض الشرق بين الغرب المسيحيّ والشرق المسلم. وهكذا فقد حبل القرن الأوّل من الألف الثاني بما سيضع

١ - راجع: P.G., Vol. 120, Col. 757, Jugie, M., Chisme bizantin, PP. 221 - 223, N.I.

٢ - يحيى ابن سعيد الإنطاكي، ص ٢٥٢

الشرق لأمد طويل وسط بركان قلّما همد قبل أن تتقرّر عودة الشرق، إلى الشرق وعودة الغربيّين إلى الغرب، وقبل أن تتحجّم المسيحيّة إلى ما أضحت عليه بعد انكفاء طفرة الكبد اللاتينيّة التي بدأت رسالة دينية وانتهت صراعاً مادّياً دنيوياً، دفع مسيحيّو الشرق ثمنه قهراً وذلاً وصراعاً من أجل البقاء.

الكنيسة كنيستان

بقيت العلاقات بين القسطنطينيّة، عاصمة بيزنطية، وبين رومة، عرضة للمدّ والجزر طوال قرون من الزمن، وكانت في كلّ أزمة تعبر وفي الأذهان أنّها لن تؤدّي الى الانشقاق النهائيّ أو إلى الانفصال التامّ. وهكذا كان الانطباع في منتصف القرن الحادي عشر، عندما رشق الكاردينال همبرتو في رومة في ١٦ تموز (يوليو) ١٠٥٤ البطريرك القسطنطينيّ ميخائيل الأوّل (١٠٤٣ - ١٠٥٨) بالحرم، فانفصلت الكنيسة البيزنطية عن الكنيسة اللاتينيّة. إلاّ أنّ التطور الذي سوف يحدث في الكنيسة الغربيّة، وغزو الإفرنج في ما عرف بالحروب الصليبيّة، سيثبت هذا الانفصال[1] .

قصّة هذا الحرم أنّه في منتصف القرن الحادي عشر كانت لا تزال إيطالية الجنوبيّة تحت حكم الدولة البيزنطيّة. وإذ كانت جيوش النورماند تهاجم إيطالية، تحالف البابا لاون التاسع (١٠٤٩ - ١٠٥٤) مع ملك القسطنطينيّة قسطنطين التاسع مونوماكس (١٠٤٢ - ١٠٥٥)، وكان على سدّة البطريركيّة في القسطنطينيّة آنذاك ميخائيل كيرولاريوس (١٠٤٣ - ١٠٥٩) الذي رأى في هذا التحالف السياسي بين الملك والبابا إمكانيّة اتّفاق دينيّ من شأنه أن يحطّ من أهمّيّة بطريرك القسطنطينيّة، وكان هذا البطريرك متحدّرا من أسرة شريفة تمثّلت مراراً في مجلس الشيوخ القسطنطينيّ، والتحق بسلك الإدارة المدنيّة، وقام بنشاطات

١ - ميشال يتيم، تاريخ الكنيسة الشرقية، طبعة ثالثة (جونية ١٩٩١)، ص ٢٠٣ - ٢٠٥

سياسيّة، وينسب إليه أنّه تزعّم حركة إنقلابيّة سنة ١٠٤٠ استهدفت الأمبراطور ميخائيل الرابع، طامحاً بالعرش[1]، ذلك قبل أن يقدّم النذر ويلبس الإسكيم[2]. وقد وصل إلى السدّة البطريركيّة عن طريق تقرّبه من قسطنطين التاسع، فأضحى البطريرك المنتظر، نظراً لما كان للأمبراطور من تأثير في وصول الأساقفة إلى السدّة البطريركيّة في القسطنطينيّة، وهذا ما حصل فعلاً عندما توفّي البطريرك ألكسيوس في ٢٠ شباط (فبراير) ١٠٤٣، إذ سعى هذا البطريرك الطّموح إلى تقديم نفسه على بطاركة الشرق وإلى تزعّم الكنيسة الشرقيّة، فأوجب توحيد الطقوس والقوانين، وتدخّل في شؤون الكنائس الشرقيّة غير الأورثوذكسيّة أيضاً محاولاً استيعابها، ثمّ مدّ طموحه نحو الكنائس اللاتينيّة الموجودة في القسطنطينيّة، فأوجب عليها ممارسة الطقوس بموجب التقليد البيزنطيّ (اليونانيّ)، ولما تمّ الاتفاق بين ملك القسطنطينيّة وبابا رومة، وإذ كانت الكنائس اللاتينيّة قد امتنعت عن تنفيذ ما حاول هذا البطريرك فرضه عليها، أمر بإغلاقها[3].

لم يكتف بطريرك القسطنطينيّة ميخائيل بهذا التدبير، كردّة فعل على ذلك التحالف، بل راح يُهاجم الكنيسة اللاتينيّة وينتقد بعض عاداتها وتقاليدها السائدة، من مثل استعمال الفطير، وصوم السبت، وأكل الدم والمخنوق وغير ذلك، وأوعز إلى لاون، متروبوليت أخريده ورئيس أساقفة البلغار، أن يبعث برسالة إلى أحد الأساقفة اللاتين في إيطالية الجنوبيّة، وهو يوحنّا أسقف تراني، ينتقد فيها الطقوس والعادات اللاتينيّة ويأمر بالكفّ عنها. وكانت لهجة تلك الرسالة عنيفة جداً، من مثل قوله: «من يصوم السبت ويقدّس على الفطير ليس يهوديّاً ولا وثنيّاً ولا مسيحيّاً وإنّما هوشبيه بجلد النمر المرقّط[4]».

١ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٢، ص ٢٣٢ استناداً الى: Skylitzes (Cedrenus), P. 106

٢ - المرجع السابق استناداً الى: Amann E., Rome et Constantinople, P. 138

٣ - Amann E., Op. Cit., VII, 140; Humbert, Brevis et succincta, P.L., Vol. 163, Col. 1002

٤ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٢، ص ٢٣٤

إطّلع الحاكم البيزنطيّ لجنوب إيطالية على مضمون الرسالة، فكتب إلى قسطنطين يرجوه أن يمنع الخصومات الدينيّة في تلك الأوقات الحرجة، فالنورمانديّون كانوا قد أسروا البابا ووضعوه في إقامة جبريّة، وقد وصلت الرسالة المذكورة إلى أسقف مدينة تراني الذي أطلع سكرتير البابا هومبرتو مورموتير[1] عليها، وقد كان هذا الأخير في طريقه إلى تفقّد البابا في اقامته الجبريّة آنذاك، بعد حصوله على الإذن له بذلك من النورماند، فحمل الرسالة معه، فكانت ردّة فعل البابا المعتقل على تلك الرسالة، في ذلك الظرف العصيب، عنيفة جدّاً، فاستشاط غيظاً وأمر بالردّ عليها عبر رسالتين تُوجّه إحداهما إلى الأسقفين: ميخائيل القسطنطينيّة ولاون إخريده، وتحفظ الثانية بلا عنوان كوثيقة تحمل ردّ التهم الموجّهة إلى الكنيسة اللاتينيّة[2].

جاءت رسالة رومة موازية في العنف للرّسالة التي كان الردّ عليها، فاعتبرت الأسقفين ميخائيل ولاون أحمقين، لأنهما تجاسرا فحكما على السدّة الرسوليّة التي لا يستطيع أحد من المئتين أن يحاكمها.

في هذه الأثناء تجاوب الملك قسطنطين مع الحاكم البيزنطيّ لجنوب ايطالية، فأرسل إلى البابا كتاباً ضمّنه الولاء، وأجبر البطريرك ميخائيل على إرسال كتاب آخر من قبله، فكان هذا الكتاب «رقيقاً أوضح فيه البطريرك هذه المرة عن رغبته في الوئام والاتّفاق، راجياً فيه البابا أن يذكر اسمه في ذبتيخة رومة، مقابل ذكر البابا في ذبتيخة القسطنطينيّة، ولكنّه حيّا الحبر الاعظم على انه أخ لا أب، ووقّع بصفته بطريركاً مسكونيّاً لا بصفته بطريرك القسطنطينيّة فقط».

ردّ البابا لاون التاسع على الرسالتين برسالتين بعث بهما مع ثلاثة نوّاب

١ - Humbert de mourmotiers cardinal de sylva candida

٢ - Léon IX, épistola ad michaelim constantinopolitanum, P. L., Vol. 143, Col. 744 - 769; adversus graecorum calumnias, P. L. Vol. 143, Col. 931 - 974.

يرئسهم الكاردينال هومبرتو، وقد هال البابا أن يقدم بطريرك القسطنطينيّة على مناداته كأخ، وعلى تلقيب نفسه بالبطريرك المسكونيّ، وهكذا فعندما وصل الوفد الرومانيّ إلى القسطنطينيّة أواخر سنة ١٠٥٤، قصد الملك أوّلاً ثمّ عرّج على البطريركيّة، حيث عامل البطريرك معاملة فوقيّة، دافعاً له رسالة البابا دفعاً، فاعتبر البطريرك هذا العمل مُهيناً[١]، وامتنع عن الاعتراف بصلاحيّة الوفد المفاوض، وأبى أن يشترك مع أعضائه. فاستخلص الكاردينال هومبرتو أنّ البطريرك ميخائيل غير مستعدّ للاتفاق مع رومة. وهكذا تفاعل الموضوع حتّى جاء يوم السبت الواقع فيه ١٦ تموز ١٠٥٤، وكان البابا لاون قد توفّي قبل ثلاثة أشهر، فدخل هومبرتو كنيسة آجيا صوفيّة، ووضع صكّ حرم ميخائيل على المذبح الأوسط أمام الإكليروس والشعب، وجمع بطريرك القسطنطينيّة بدوره أعضاء «المجمع الدائم» يوم الأحد المصادف ٢٤ تموز(يوليو) ١٠٥٤ ورشق الصكّ بالحرم، وبتراشق الحرمين انفصلت الكنيسة البيزنطيّة عن الكنيسة اللاتينيّة[٢].

في هذه الأثناء كان بطريركاً على إنطاكية: بطرس الثالث، الذي سبقت الإشارة إلى مدى سعيه لتوحيد الكنيسة، وقد حاول ميخائيل كيرولاريوس استمالة بطريرك إنطاكية إلى جانبه، فأرسل اليه كتاباً ينتقد فيه العادات اللاتينيّة، «تألّم بطرس لهذه التصرّفات العنيفة، وكتب إلى البطريرك القسطنطينيّ رسالة تميّزت بسموّ العاطفة المسيحيّة والمحبّة الأخويّة، مبيّناً له أنّ هذه العادات إنّما أمور ثانويّة، وأنّ بعضها موجود عند الروم أنفسهم، فهي لا تدعو إلى الانفصال، وأنّ الكنيسة اللاتينيّة لا تزال في طور البربريّة، فالمحبّة الاخويّة تأمر الروم بأن يعطفوا على إخوانهم اللاتين، ويسامحوا جهلهم وخشونتهم، ويرجوه في النهاية أن يعود إلى الوئام والاتّحاد. إلاّ أنّ جهود هذا البطريرك قد ذهبت سدى. فوقع المحظور

١ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج٢، ص ٢٣٧، استناداً الى: Epist. Cérularié ad. pé-trum antiochenum, P.G., Vol. 120, Col. 785 - 788

٢ - يتيم، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥

بانفصال الكنيسة البيزنطيّة عن الكنيسة اللاتينيّة. أمّا الكنائس الملكيّة فلم تشترك رأساً في الخلاف، وظلّت العلاقات قائمة بينها وبين رومة على قدر ما كانت تسمح به الظروف آنذاك. وما تأصّل الانفصال في البطريركيّات الملكيّة إلاّ بعدما تسلّم زمام إدارتها الروحيّة الإكليروس القسطنطينيّ[١].

لم يسر خلفاء بطريرك إنطاكية بطرس الثالث على خطاه في محاولاته التوحيديّة، بل إنّ خلفه ثيودوسيوس انضمّ الى حاشية البطريرك القسطنطينيّ الثائر ضدّ البابا، ممّا ألزم إنطاكية بالانفصال، وجرّ معه رؤساء الأساقفة والأساقفة الذين كانوا خاضعين لسلطته[٢] وقد نتج من خضوع بطاركة إنطاكية لسلطات بيزنطية الدينيّة والسياسيّة امتداد الانفصال إلى الروم الإنطاكيين كافّة، وبقي الموارنة وحدهم في تلك الحقبة على ارتباط برومة.

لقد كان من الراجح ألاّ يتّخذ هذا الانشقاق، الذي نتج أصلاً من خصام شبه شخصيّ، الحجم الكبير الذي اتّخذه، والمسار الطويل الذي ثبت عليه، لو لم تتفجّر نهاية القرن الأوّل من الألف الثاني في الشرق، بركاناً لم يكن في الحسبان، سوف يطبع أحداث أرض منشأ الديانات الإبراهيميّة الغنيّة بالأحداث بعنوان: الحقبة الصليبيّة.

١ - يتيم، ص ٢٠٥

٢ - Dictionnaire de théologie catholique, IA, 1409

الفصل الحادي عشر

الحقبة الصليبيّة

- خلفيات الغزو الصليبي
- بداية الحروب الصليبية
- تأثير الحروب الصليبية في مسيحيّي الشرق
- عودة الشرق إلى الشرق
- انعكاسات الحروب الصليبية على المسيحية المشرقية

خلفيات الغزو الصليبي

المؤرخون الكلاسيكيون يبدأون تأريخ الحقبة الصليبية، أو الحروب الصليبية، أو الغزو الصليبي للشرق، أو تلاقي الشرق والغرب، بخطبة نارية وجّهها البابا اوربانوس الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩) في السادس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ «في مدينة مارمونت في جنوبي فرنسا حثّ فيها المؤمنين على سلوك الطريق إلى كنيسة القيامة لانتزاعها من أيدي الغاصبين، والاحتفاظ بها لأنفسهم». ويعتبرون أن هذه الخطبة «باعتبار النتائج التي تخلفت عنها، لعلّها أشد الخطب في التاريخ وقعاً وأبعدها أثراً» إذ تنادى الناس على الأثر بصيحة هي: ـ هكذا يريد الله ـ غدت بمثابة نفير تردّد صداه في أوروبة من أدناها إلى أقصاها. وسرى في الناس على اختلاف طبقاتهم كأنما بعدوى نفسانية عجيبة[1]».

إنّ من يتوسع في دراسة تاريخ الأرض التي كانت مسرحاً للحروبَ الصليبية، لا بدّ له من أن يضع في الحسبان العديد من الخلفيات التي اشتركت في ايجاد المناخ المناسب لغزو الافرنج هذه البلاد. وفي علمَيْ التاريخ والسياسة، كما في عدد كثير من العلوم، لا يصحّ حصر الأسباب المؤدّية إلى الغزو الصليبي في موقف البابا اوربانوس، أو دعوة هذا البابا أو خطبته، على أنّ ذلك كان السبب الأوحد، أو المحرّض اليتيم الذي جعل الغرب اللاتيني المسيحي يهبّ لاجتياح الشرق العربي المسلم. بل ان المحرضات والأسباب لهذا التحوّل التاريخي البالغ الأهمية كانت ذات جذور عميقة في التاريخ، إضافة إلى أنها كانت، على تعددها، كثيرة التتابع والترابط. حتى ان تلك الأسباب والدوافع، إذا لم نقل المحرضات، لم تكن بمجملها دينية: مسيحية اسلامية، وحسب، بل كانت في جزء، أو في بعض كثير منها، بعيدة كل البعد عن الدين، وعن القدس، وعن كنيسة القيامة، وعن كل ما هو لاحق لمجيء المسيح.

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٣٢٣

منذ الحرب التي نشبت بين طروادة: المدينة الشرقية في آسية الصغرى، والاغريق: اليونان الغربيين، كان الشرق، كما كان الغرب أحياناً، مسرحاً لحروب بين هذين المقلبين من الأرض، ففي القرن الخامس قبل الميلاد بدأت تلك السلسلة من المنازعات عندما هاجم داريوس الأول ملك الفرس (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق.م) موطن الاغريق على الأرض الأوروبية، وكذلك فعل ابنه احشورش Xerxés ملك (٤٨٦ ـ ٤٦٥ ق.م) الذي دمّر أثينا. وقد «أعاد لهما الزيارة الاسكندر المقدوني ذو القرنين (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق.م). ومن بعد خلفائه، جاء الرومان... ثم بدأت السلسلة الثانية من المنازعات بين الشرق والغرب بظهور الاسلام، وشعاره: نشر الدين الجديد... وقد قضى على السيطرة الغربيّة التي دامت ألف سنة (٣٣٠ ق.م. ـ ٦٤٠ م.) في هذه المنطقة، وراح يهدّد أوروبة في مؤخرتها: من الأندلس العربيّة، وفي أواسطها: من صقلّية، وفي مقدّمتها: على أيدي السلاجقة (الأتراك) الذين كانوا يطمعون بالاستيلاء على القسطنطينية. فكانت ردّة الفعل حروباً قام بها أُناس من أوروبة يحملون صلباناً خيطت على ملابسهم[١] » ولذلك عُرفوا بالصليبيين.

تلك الصراعات، بين الشرق والغرب، بديهيّ ألاّ تكون في أي من فصولها، وليدة الصدفة. بل كان لكل فصل ظروفه المؤاتية. أمّا الظروف التي آتت فصل الاجتياح الغربي للشرق، فعديدة.

لا شك في أنّ الواجهة المباشرة للحروب الصليبية، كانت ردّة فعل في العالم المسيحي ضد الاسلام، تُرجمت بقيام أوروبة المسيحية على آسية الاسلامية، التي كانت قد اتّخذت خطة الهجوم منذ الفتح الاسلامي الذي بدأ سنة ٦٣٢، وراح يتقدم حتى تخطّى الشرق إلى اسبانية وصقلية الغربيتين.

١ ـ بولس، التحولاّت، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥؛ فيليب حتّي، صانعو التاريخ العربي، ترجمة أنيس فريّحة، دار الثقافة (بيروت ١٩٦٩) ص ١٦١ ـ ١٦٢

في هذا الاطار، يندرج أيضاً جملة من البواعث المحرّضة لانبعاث النزعة الدينية في حالة ثأرية عند مسيحيي الغرب، منها إقدام الخليفة الفاطمي: الحاكم بأمره، على هدم كنيسة القيامة في القدس سنة ١٠٠٩، وهي المحج المقدّس الذي كان الغربيون المتدينون قد اعتادوا على تكبّد عناء الحج اليه تبرّكاً. وقد زاد في هذا المحرّض البالغ الأهمية، إقدام السلاجقة المسلمين على وضع الصعوبات في طريق الحجّاج بخلال مرورهم في آسية الصغرى وهم في طريقهم إلى القدس. كل هذه العوامل، كانت مثيرة للعاطفة الدينية، التي تأجّجت في قلوب أصحابها، عندما تكرّر طلب النجدة من الغرب من قبل مسيحيي الشرق، بشخص الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنينوس، الذي أرسل إلى البابا أوربانوس الثاني مُستنجداً سنة ١٠٩٥، إثر اكتساح السلاجقة المسلمين مناطق البيزنطيين الآسيوية وصولاً حتى بحر مرمرة، وأضحت جيوشهم تهدّد القسطنطينية نفسها.

في هذه الأثناء، كان التفكك ضارباً في الوحدة الاسلامية، فقد كان السلاجقة الأتراك والتركمان، من أهل السنّة، يسيطرون تماماً على آسية الصغرى وسورية الشمالية، بينما كانت مصر وفلسطين وسورية الجنوبية خاضعة لسيطرة الفاطميين الشيعة. وتحت هذين الحكمين، وعلى هوامشهما، كانت تقوم إمارات ودويلات متعددة الانتماءات المذهبية الاسلامية، وكانت غالباً في حالة تصارع، جرّاء العداء والتنافس على السلطة، والتنابذ بسبب «مشاكل التعاقب على الحكم بين هؤلاء الحكّام والأمراء المنشقين، مما أدى إلى فوضى سياسية وإلى حالة من الاضطراب الدائم[١]».

في الوقت نفسه، كانت المنطقة الجبلية ملجأً لمختلف الفرق الاسلامية المنشقّة، إضافة إلى الطوائف المسيحية المختلفة. فكان من تلك الفرق: النصيرية بالقرب من اللاذقية، والحشّاشون من الاسماعيلية بالقرب منهم إلى الشرق،

١ ـ بولس، التحولات، ص ٢٤٧

والدروز في جنوب الجبل اللبناني، والشيعة بالقرب منهم جنوباً. ومن الطوائف المسيحية المستقلة بنوع من الحكم الذاتي، كان الموارنة في شمالي لبنان. وبعيداً عن هذه التقسيمات الطائفية والمذهبية، زاد في حدّة هذه الفوضى داخل ما كان، قبلاً، يشكّل الامبراطورية العربية الاسلامية، ذلك السيل المستمر من الاعراب البدو، الذين كانوا يهجرون الصحراء ليستقرّوا في المناطق الزراعية أو في المواقع العسكرية. أضف إلى ذلك سيلاً آخر من الاكراد، ومن التركمان، كان يتدفق للانخراط في جيش الأمير الحاكم الذي يمنحهم خير جزاء[1].

تلك التجزئة المشوبة بالفوضى السياسية، جعلت الناس، وقد عانوا الذلّ والفقر طوال قرون بسبب الجور العباسي والفاطمي والسلجوقي والتركي، لا يبالون بتبدل من يسود، خاصّة بعد أن كان الجند في الخلافتين: الشيعيّة الفاطمية، والسنيّة العباسية، قد غدا بأكثريته الساحقة من أولئك المرتزقة المغامرين الغرباء: بربر وأتراك وأكراد وتركمان، الذين أصبحوا يسيطرون على الأراضي الزراعية التي كان السلاطين والأمراء يمنحونها هبة لهم، بعد انتزاعها من أيدي مستثمريها من العرب ومن السكان الأصليين[2].

في هذه الأجواء، انطلق الأتراك السلاجقة الذين كانوا قد تمكّنوا من تبطين الخلافة العبّاسية بسلطتهم الفعلية، انطلقوا، بطبيعتهم المحاربة، ليشعلوا حروباً كان العرب قد كفّوا عنها منذ أمد بعيد، وبدا وكأن ممتهين الحرب هؤلاء، قد أخذوا على عاتقهم غزو الروم تحت شعار الاسلام. وسرعان ما سيطروا على أرمينية سنة ١٠٦٤، ثم تغلبّوا، بقيادة ألب إرسلان، على البيزنطيين بقيادة الامبراطور رومانس الرابع سنة ١٠٧١ في معركة ملاذ جرت[3]، وأسر القائد السلجوقي

١ ـ فيليب حتّي، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور، ترجمة أنيس فريحة، ص ٣٤٢

٢ ـ راجع: Lammens, La Syrie, I, PP. 208 - 209, 242

٣ ـ ملاذجرت، أو ملاذكرد، هي Malazgirt. مدينة في شمال شرقي تركية، على مقربة من بحيرة وان. كانت تدعى قديماً مانتزيكرت، قاعدة أرمنية هامة، ثم عاصمة لإمارة عربية في القرن التاسع، إحتلّها البيزنطيون سنة ١٠٠١، قبل أن تقع فيها هذه المعركة.

الامبراطور نفسه، فانفتحت أمام السلجوقيين الأتراك أبواب آسية، وأسسوا فيها سلطنة الروم، بعدما احتلّوا بين ١٠٧٨ و ١٠٨١ مدناً داخلية كأيقونية، وثغورا متطرّفة كإزمير، وسبحت خيولهم في مرمرة، وراحوا يترقّبون الفرصة للعبور إلى تراقية[1] وأوروبة، بعد أن تشتّت جيش البيزنطيين تماماً، وقد كان هذا الانحدار البيزنطي من أسوأ الكوارث، لأن البلقان كانت قد أصبحت صقلّية، واليونان كانت قد خلت من السكان وافتقرت، ولأن آسية الصغرى وحدها كانت معقل الروح الهلينية، فمنها كان الامبراطور يجمع جيوشه، وفيها كان يجد أكبر قوّاده وأنشط ضبّاطه، وأسوأ ما كان في أمر اجتياح الأتراك أنّ فتحهم لم يقتصر على السلطة والسياسة، بل تعدّاهما إلى استملاك الأرض، فحلّ القروي التركي محل القروي اليوناني، فأضاعت الهلينية قواعدها ومكانتها بشكل لم يسبق له مثيل[2].

تزامنت هذه الأحداث مع وجود امبراطور بيزنطي راغب في اعادة وحدة الكنيسة، هو ألكسيوس كومنينس (امبراطور ١٠٨١ ـ ١١١٨)، ووجود بابا يولي الكنيسة الجامعة كل اهتمامه ويرعاها بعناية مستمرة، وهو أوربانوس الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩). وكانت الاتصالات متواصلة بين البابا والامبراطور الذي تصدّى لهجمات الأتراك السلجوقيين في الأناضول والنورمان في الأبيروس[3]، وكان ينقل إلى البابا مخاوفه من تفاقم الشر في آسية الصغرى وتزايد عدد الأتراك فيها وانتشارهم في سهولها ووديانها. وهذا ما اعتبره المؤرخون نداءات متتالية من الامبراطور إلى البابا وصفها بعضهم بالاستنجاد والاستغاثة. تزامن كل هذا مع إقدام رعاع التركمان وأمثالهم على العيث بأرض الشرق فساداً يقتلون وينهبون،

١ ـ تراقيا: منطقة في جنوب أوروبة الشرقية، تتقاسمها منذ ١٩١٩ ـ ١٩٢٣ اليونان (تراقيا الغربية) وبلغاريا (تراقيا الشمالية أو روملي الشرقية) وتركية (تراقيل الشرقية وأهم مدنها استنبول)

٢ ـ رينيه غروسيه، رصيد التاريخ، ج ٢، ص ١٠٦ ـ ١٠٩

٣ ـ ابيروس Epiros: منطقة في بلاد اليونان القديمة جنوبي مقدونية. ألّفت مملكة مستقلّة بعد الاسكندر. من أشهر ملوكها بيروس الثاني (٣١٨ ـ ٢٧٢ ق.م)

ينتهكون حرمة الكنائس في أثناء الصلوات، حيث يجلسون على الموائد المقدسة ويهينون الكهنة، ويخربون الكنائس، ويحولون بعضها إلى مساجد[1]. كل هذه الأعمال وصلت إلى مسمع البابا عن طريق الحجّاج الغربيين الذين خبروها بأنفسهم واضطروا في بعض الأحيان إلى أن يُقاتلوا للوصول إلى القبر المقدس.

لم تقتصر الفوضى في فلسطين إبان تلك الحقبة على كل ما ذكر، وعلى تعرّض المسيحية والمسيحيين للاذلال والاهانة، بل ان السكان من أهل البلاد، إلى أيّ دين انتموا، كانوا، كما سبق وذكرنا، عرضة لامتهان الحقوق وللجور، فكان النزاع حامياً بين السلاجقة السنّة والفاطميين الشيعة وقد شهد مذابح رهيبة، وكانت أورشليم، بشكل خاص، هدفاً لنزاع مستمر بين السلاجقة والفاطميين أحياناً، وبين السلاجقة أنفسهم أحياناً أخرى، مما أحلّ ضيقاً شديداً بالنصارى. واضطر البطريرك سمعان الأورشليمي إلى أن يهرب مع كبار رجال الأكليروس إلى جزيرة قبرص[2].

مع تفاقم هذه الأحداث أرسل الامبراطور ألكسيوس إلى ايطالية لجنة عسكرية بيزنطية مهمّتها حضّ المسيحيين على الجهاد في سبيل الدين، كان ذلك في آذار ١٠٩٥ حيث صدف أن كان البابا أوربانوس الثاني قد دعا إلى مجمع لمعالجة موضوع الانشقاق في بيانشينزا Piacenza. وهناك دعا البابا اللجّنة العسكرية البيزنطية إلى ارتقاء منبر المجمع ونقْل ما لديهم إلى الأساقفة. وقد صُعق الأساقفة الحاضرون لما سمعوه من أفواه أعضاء ذلك الوفد عمّا كانت تعانيه المسيحية في الشرق من إضطهاد مخيف يهدّد بشكل جدّي المسيحيّة في أرض منشئها[3]. وقد وقع هذا النداء المُلح في نفس البابا أوربانوس موقعاً عظيماً. وإذ

١ ـ Grousset R., Histoire des croisades, I, P. 2; Claude Cahen, La syrie du Nord à l'époque des croisades (Paris, 1940) P. 199; William of tyre, vol. I, P. 47

٢ ـ Grousset R., I, P. 47

٣ ـ Hefelé - Leclercq, Historie des Conciles, V, 394 - 395

كان من المقرر عقد مجمع في مدينة كليرمون Clermont الفرنسية للبحث في شؤون كنيسة فرنسة، انتقل البابا إلى هناك في آخر الصيف حيث استقبله الفرنسيون بمنتهى التكريم والإجلال كونه من أصل فرنسي، وأحد عظماء بلادهم. كان نداء البيزنطيين لا يزال يضجّ في نفس أوربانوس الثاني عندما وصل إلى جنوب فرنسا حيث راح رهبان كلوني[1] ينقلون اليه مشاهداتهم المروّعة عن شؤون الحج والحجاج. ويعتبر بعض المؤرخين أنَّ البابا قد اتّصل من هناك بريمون كونت تولوز وتباحث معه في أمر الشرق.

في هذه الأجواء وصل أوربانوس الثاني إلى كليرمون حيث عُقد المجمع بين الثامن عشر والثامن والعشرين من تشرين الثاني. وبعد انجاز جدول أعمال المؤتمر وفي اليوم ما قبل الأخير من أيام المجمع (٢٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ) أعلن عن عزمه على القاء بيان هام وأباح الحضور للجمهور.

اعتلى البابا أوربانوس الثاني، بكل جلال ووقار، المنصّة المهيبة التي أُقيمت خصّيصاً للمناسبة في باحة كاتدرائية كليرمون، وراح، بلهجة الخطيب المفوّه، يعدّد فظائع السلاجقة الأتراك المرتكبة في الشرق، مُذكّراً بقدسية أورشليم، وبوجوب الحفاظ عليها، وتأمين وصول الحجاج إلى مقدساتها، داعياً إلى الجهاد في سبيل الله، مؤكّداً الغفران للشهداء المجاهدين[2]. ووسط هتاف الناس: «هذا ما يريده الله» أعلن أوربانوس عن حماية الكنيسة لعائلات المجاهدين وأملاكهم، وأوجب وضع شارة الصليب قماشاً أحمر على أكتاف المجاهدين أو صدورهم، وعيّن القسطنطينية مُلتقى المجاهدين محدداً يوم الخامس عشر من آب ـ أغسطس ـ (عيد انتقال العذراء) من سنة ١٠٩٦ موعداً للانطلاق. وعين الأسقف أديمار

١ ـ كلوني Cluny: مدينة في شرق فرنسة، انشئ فيها دير للآباء البندكتيين سنة ٩١٠. منه انبثقت في الغرب حركة اصلاح ونهضة دينية وثقافية ولا سيما في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وقد عُرف رهبان هذا الدير برهبان كلوني.

٢ ـ Munro, D.C., speach of urban to at Clermont, Amer. Hist. Revue; XI, 231 F.F.

Adhemar قائداً أعلى وزعيماً أوحد للصليبيين، وأمر بوجوب إعادة جميع أوقاف كنائس الشرق وحقوقها إليها[١].

يَعتبر بعض المؤرخين ان اختيار البابا لجنوبي فرنسة مكاناً لبدء دعوته «لم يكن من قبيل المصادفة محضاً، إذ كانت تلك البقعة من القارة الأوروبية قد اكتسحتها قبائل المسلمين قادمة من اسبانية. وكان المسلمون خلال أربعة قرون ونصف القرن يوالون الهجوم على المواطن المسيحية، أوّلاً عن طريق الامبراطورية البيزنطية، وثانياً عن طريق اسبانية وصقلية وايطالية. وكان قد آن للمسيحية أن تُبدي ردّة ما» ويرون فوق ذلك كله «أن البابا أوربانوس الثاني رأى في الْتماس امبراطور الروم ألكسيوس كومنينس العون منه، فرصة سانحة لتوحيد الكنيسة اليونانية وكنيسة رومة بعد الانشقاق الذي وقع بين ١٠٠٩ و ١٠٥٤ ولإقامة نفسه رئيساً أوحد للمسيحيّة[٢]».

على أثر خطبة الحبر الأعظم غدت صيحة «هكذا يريد الله» "Deus le volt" بمثابة نفير تردّد صداه في أوروبة من أدناها إلى أقصاها، وسرى في الناس على اختلاف طبقاتهم كأنما بعدوى نفسانية عجيبة، فكان هنالك المتعبّدون الرانون إلى تنفيذ ما يريده الله، والقوّاد العسكريون الطامعون بالاستيلاء على مناطق جديدة، وأرباب الخيال البعيد، والنفوس المضطّربة، وعشّاق المغامرات المستعدّون أبداً للانضمام إلى كل حركة بارزة، إضافة إلى المجرمين والخطأة ناشدي الغفران من خلال الحجّ إلى الأرض التي وطئتها قدما المسيح، ومثلهم من مُنوا بالشقاء الاقتصادي والاجتماعي، فكان «حمل الصليب» راحة وفرجاً لهمومهم[٣]. ومع حلول

١ ـ Chalandon F., Historie de la première croisade, PP. 44 - 46; Runciman S., History of the crusades, I, PP. 2 - 5;
Chevalier U., Cartulaire de st. chaffre, PP. 13 -14, 161 163; Hefelé - Leclercq, V, 339

٢ ـ حتّي ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٢٤

٣ ـ المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٢٢؛ وراجع: August C. Krey, the first crusade (Prinston - 1921) PP. 24 - 43

ربيع العام ١٠٩٧ كان قد تقاطر إلى القسطنطينية أكثر من ١٥٠ ألف[١] افرنجي ونورماندي حاملين الصليب شارة، فعُرفوا من ثم بالصليبيين. وقبل حلول الصيف كانت هذه الحملة الصليبية، وهي الأولى، قد اخترقت آسية الصغرى، واحتلت نيقية قاعدة السلاجقة، وأسقطت مدينة دوريلايوم[٢]. وبذلك الفتح المظفر عاد القسم الأكبر من آسية الصغرى إلى امبراطور الروم بحكم تعهّد الولاء الذي منحه اياه الصليبيون وفاءً لرابطة العرق[٣].

بداية الحروب الصليبية

عند وصول الصليبيين إلى الشرق في حملتهم الأولى ربيع ١٠٩٧، كانت هذه المنطقة من العالم مجزّأة، كما سبق وألمعنا، بين العديد من الحكام. فإضافة إلى المناطق التي كان يسيطر عليها السلاجقة الأتراك في آسية الصغرى وأطراف أوروبة، كان بعض المناطق المجاورة لها تحت حكم الأرمن، وبينما كان جزء من سورية، هو الجزء الشمالي، تحت حكم السلاجقة، كان الجزء الجنوبي تابعاً للخلافة الفاطميّة، مما جعل هذه البلاد لزمن ليس بالقصير مسرحاً للنزاع بين الأتراك السنّة والمصريين المتشيعين. وكانت أقسام أخرى من سورية خاضعة لسيطرة زعماء من العرب، فطرابلس وجوارها تحت سلطة بني عمار الشيعة، وشيزر الواقعة على ضفاف العاصي كانت تحت حكم بني منقذ. بينما كان الدروز معتصمين في جنوبي لبنان، والنصيريون العلويون في جبال سورية الشمالية، والاسماعيليون والحشاشون إلى الشرق من النصيرية، والمسيحيون الموارنة في لبنان الشمالي. أما

١ ـ خلص بعض الدراسات الحديثة إلى أن الحملات الصليبية حشدت نادراً أكثر من عشرة آلاف مقاتل. في هذا الخصوص، راجع: La grande encyclopédie Larousse, V. 6 (croisades), P. 3501

٢ ـ هي اسكي شهير: المدينة التركية الواقعة جنوب غرب انقره

٣ ـ Fulcher, Historia hierosolymitana, ed., Hagemeyer (Heidelberg, 1913) P. 192; وراجع: ابن القلانسي ص ١٣٤ Claude Cahen. La Syrie du Nord à l'époque des Croisades (Paris 1940), PP. 3 - 104

انطاكية، وهي مهد الكنيسة المنظّمة الأولى، فقد كان أميرها تركياً سلجوقياً منذ ١٠٨٤. أما مصر فكانت فاطمية بكاملها. وكان الفاطميون هناك قلقين من قوة جيرانهم السلاجقة. وفي بعض المصادر أنهم «استحثوا الافرنج، أي الصليبيين، لإقامة امارة بين الدولتين»، وفيها أيضاً «أن الأمراء المسلمين الصغار كانوا يسالمون هؤلاء الغزاة في خضمّ مؤامرات كانوا يحوكونها ضد بعضهم البعض[1]».

نتيجة هذا الواقع المجزأ والمتناحر، يعتبر مؤرّخو الحروب الصليبية أنّ الانتصار الذي أحرزه الصليبيون في المرحلة الأولى بين ١٠٩٧ و ١١٤٤ جاء نتيجة لضعف المقاومة التي لاقوها أكثر مما كان نتيجة لقوة الغازين ومهارتهم[2].

لم يقتصر التشرذم على أولئك الذين جاء الصليبيون لمحاربتهم، بل هو أصاب الصليبيين أنفسهم فور عبورهم جبال طوروس، وراح كل منهم يضع خططاً بهدف توسيع رقعة سيطرته. وقد نتج من ذلك تحوّل بودوان الملقب عند العرب بأسماء ثلاثة: بغدوين، بردويل، بلدوين، شرقاً باتجاه مناطق مسيحية، فاحتل الرها (أورفا Urfa, Edesse) بين النهرين في تركية التي كانت تحت السيطرة الأرمنية، وأسس هناك ولاية عُرفت باسمها ونصّب نفسه أميراً على عرشها وتزوّج احدى أميراتها الأرمنية واستقر فيها إلى حين[3]. وكان بودوان هكذا، الذي سيصبح فيما بعد ملكاً على القدس، من اللوثرنجيين وقد قدم من بلاد الرين. في هذا الوقت تحوّل غرباً الأمير الصقلّي النورماني تانكريت دي هوت فيل Tancred ودخل مدينة مسيحية هي الأخرى أرمنيّة السكان: كيليكية، حيث كان إلى جانب الأرمن جماعة من اليونان. ثم احتل مدينة طرسوس والمناطق المحيطة بها.

اندفع باقي الجيش الصليبي باتجاه سورية، وكانت انطاكية هدفه الأول بالنظر

١ - Wiet, l'Egypte arabe, Historie de la nation egyptienne, P. 59
٢ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٦٢
٣ - لمزيد من الاطّلاع حول إمارة الرها، راجع:
Matthew of Edessa, Chronique, Ed., Dulauries (Paris, 1858)

لما كان لها من أهمية مسيحية، وبعد حصار شديد وطويل استمر ثمانية أشهر كاملة بقيادة بوهمند Bohémond، الأمير النورماني شقيق تانكريت، حاول حاكما حلب ودمشق السلجوقيان شنّ هجومات لفك الحصار باءت بالفشل نتيجة مساندة الاسطول الايطالي للمحاصِرين من البحر، وقد سقطت المدينة عندما تواطأ قائد انطاكي أرمني ناقم، كان يتولى الدفاع عن أحد أبراجها، مع المحاصرين المسيحيين[1]. ولكن «ما كاد المحاصرون يدخلون المدينة حتى وجدوا أنفسهم محاصَرين بدورهم... على يد المغامر السلجوقي كربوقا... فكان ما قاساه الصليبيون إثر ذلك من الوباء والمجاعة مدة خمسة وعشرين يوماً من أشد ما سبق لهم أن عانوه، حتى أنهم نبشوا جثث الحيوانات الميتة وأكلوها[2]. ولم يعد بالامكان رفع حالتهم المعنوية وكسب الوقت إلاّ بأعجوبة. وقد تحققت هذه الاعجوبة باكتشاف الحربة المقدسة التي طُعن بها جنب السيد المخلص وهو معلّق على الصليب، إذ عُثر عليها دفينة في احدى كنائس انطاكية، فاندفع الصليبيون على الأثر بجرأة بالغة، استطاعوا بها أن يردوا المحاصرين عن المدينة. وظل بوهمند، وهو أدهى قواد الصليبيين وأمضاهم عزيمة، حاكماً على هذه الولاية الجديدة مضمومة إليها انطاكية وجوارها. وقد كان امبراطور الروم يأمل باعادة انطاكية إليه، لكنه مني بخيبة الأمل. وكان أشد منه خيبة ريموند صاحب تولوز، زعيم أغنياء جنوبي فرنسة، وهو الذي تحقّق الاكتشاف المدهش على يد رجاله، إذ كان يطمع بأن تكون إمارة انطاكية له[3]».

لمّا نصّب بوهمند نفسه حاكماً على ولاية انطاكية، سار الكونت ريموند

١ - ابن القلانسي، ص ١٣٥
٢ - William of tyre, vol. I, P. 271;
حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٢٧
٣ - راجع: "Raimundus, De Agiles, "Historia francorum qui ceperunt Jerusalem", in migue, pathrologia Latina, vol. V, P. 657; William of Tyre, vol. I, P. 349; "Annales de terre sainte", archives de l'orient Latin, vol. II, (Paris 1884), PT. 2, P. 429;

بجيوشه جنوباً فاجتاح معرّة النعمان وأنزل الدمار بسكانها وأصبحت تُعرف بلسان الافرنج بـ « مارا » . ثم احتل حصن الأكراد المسيطر على الطريق الموصل بين سهول العاصي والسهول الساحلية، إلى أن أدرك عرقة الواقعة شمالي لبنان، والتي كانت تابعة لإمارة طرابلس، فعصت عليه بفضل حصونها المنيعة رغم حصاره لها ثلاثة أشهر. في هذه الأثناء كان شقيق بودوان: غودفري دي بويون Godefroy قد انحدر بقواته بمحاذاة الساحل ليحاصر جبلة، فالتقى بريموند. وإذ كان الهدف الرئيسي القدس، رُفع الحصار وسارت الحملة على الطريق الساحلي حيث اتصلت بالموارنة في البترون الذين أسدوا إليها معونة جليلة من خلال قيامهم بمهمّة الأدلاّء. أمّا بيروت، فسارع أميرها التنوخي إلى تقديم الهدايا للافرنج تماماً مثلما فعل ابن عمّار الشيعيّ أمير طرابلس. وهكذا وصلت الحملة إلى عكّة في شبه نزهة. وفي السابع من حزيران (يونيو) بلغوا محيط الهدف الذي كان الجهاد من أجله: مدينة القدس.

كانت أورشليم في ذلك الوقت بيد الفاطميين، وعاملِهم فيها الفضل بن بدر الجمالي، وحاميتها عربية سودانية، وعديدها نحو ألف رجل. أما عدد المهاجمين فقد بلغ نحواً من أربعين ألفاً نصفهم من الجنود النظاميين، وكان على رأسهم ثلاثة من كبار القادة: غودفري وريموند وتانكريت. وبعد حصار دام شهراً ونيفاً أطبقوا على المدينة المقدسة في الخامس عشر من تموز - يوليو - « وفتكوا بأهلها على اختلاف السن والجنس بلا تمييز ولا مراعاة[1] » . وفي أحد المصادر العربية[2] أن عدد الضحايا بلغ نحواً من سبعين ألفاً، ويذكر مؤرخون لاتين أن « النظر كان يقع على أكوام من الاشلاء في الساحات والطرق[3] » .

باحتلال الصليبيين للقدس، نشأت في سورية الدولة اللاتينية الثالثة بعد

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٢٩

٢ - ابن الاثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٨٣

٣ - William of Tyre, Vol. I, PP. 370 - 37

الرها وانطاكية، بيدَ أن أورشليم كانت أهم تلك الدول على الإطلاق. وقد تولّى الحكم فيها غودفري متّخذاً لقب « حامي القبر المقدس » . وراح تانكريت يتوغّل نحو الأردن، فسيطر على بيسان بعد اخضاع نابلس من دون مقاومة، ثم استقر في طبريّة بصفة حاكم اقليم تابع للقدس. إلاّ أنه مع بداية القرن الثاني عشر أصبح حاكماً لانطاكية خلفاً لعمه بوهمند الذي كان قد أُسر على يد السلاجقة. وكان بودوان، شقيق غودفري أمير الرها، قد استدعي ليتوّج ملكاً على هذه المنطقة في يوم الميلاد من العام ١١٠٠ بإعتبار أنه المؤسس الحقيقي للمملكة اللاتينية في الشرق.

اجتهد الملك اللاتيني الأول في الشرق في اخضاع مدن الساحل بهدف تأمين المواصلات البحرية مع أوروبة، وصدّ هجومات الاسطول الفاطمي. وبمعاونة ملاّحي الجمهوريات الايطالية تمكّن من اخضاع أرسوف وقيصرية بعد سنة من ملكه. وقبل نهاية سنة ١١١٠ كان قد سيطر على عكّة وبيروت وصيدا بمساعدة أساطيل بيزا وجنوى والنروج. ثم راح يوسّع مملكته جنوباً حيث بنى سنة ١١١٥ قلعة الجبل الملكي Monte Regalis، وهي المعروفة بقلعة الشوبك، لحراسة طريق القوافل بين دمشق ومصر والحجاز. وعندما مات بودوان سنة ١١١٨ كانت المملكة اللاتينية قد بلغت ذروتها وأصبحت تمتدّ من خليج العقبة إلى بيروت باستثناء شبه جزيرة صور التي بقيت بيد المسلمين حتى ١١٢٤، وعسقلان حتى سنة ١١٥٣، وكان الامتداد الشرقي لتلك المملكة محاذياً لوادي الاردن.

من جهة ثانية كان ريموند الملقب بـ Saint-Gilles وقد دعاه العرب صنجيل، مصمّماً على اخضاع طرابلس التي سبق أن غضّ النظر عنها وهو في طريقه إلى بيت المقدس. غير أنه عاد إليها سنة ١١٠٣ وبنى القلعة الشهيرة باسمه فوق تل مشرف على المدينة حيث نشأ حيّ لاتيني. ومن هناك عقد حصاراً على المدينة المسوّرة التي كان عدد سكانها نحو عشرين ألفاً، وراح يهاجم المناطق المجاورة لها بمساندة اسطول جنوى، ولم يتم له اخضاع المدينة اذ صمدت طرابلس قرابة

ست سنوات ولم تسقط إلاّ بعد موت ريموند (١١٥٠) بأربع سنوات. وكانت اللاذقيّة قد سقطت قبل ست سنوات بيد تانكريت الذي احتلّ أفامية أيضاً سنة ١١٠٦ وألحق المدينتين بولاية انطاكية التي شملت أحياناً أجزاء من كيليكية.

وعندما توفي بودوان الأول سنة ١١١٨ خلفه بودوان الثاني الذي ملك حتى وفاته سنة ١١٣١ حين أصبحت المملكة اللاتينية في الشرق تضم دولاً ثلاثاً: طرابلس وانطاكية والرها، تدين بالولاء الاسمي لملك القدس. إلاّ ان بعض المدن الداخلية ومنها: حلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ودمشق، قد بقيت خارج سلطة الإفرنج.

وهكذا فقد حقّقت الحملة الصليبية، التي دعا اليها البابا أوربانوس الثاني، أهدافها، وأصبحت طريق بيت المقدس سالكة للحجاج الغربيين. بيدَ ان الحروب الصليبية لن تتوقف عند هذا الحد، كما انها لن تثبت على حال مستقر، بل ستكون فاتحة صراع جديد بين الشرق والغرب تحت عنوان المسيحية والاسلام، سوف يتفاعل مع السنين ليعيد في النهاية كلاً إلى دياره، وليدفع المسيحيون الشرقيون كلفة ردّة الرجل الاسلامية، ولتصبح هذه الكلفة عرفاً مستمراً إلى يومنا هذا.

تأثير الحروب الصليبية في مسيحيي الشرق

مهما حاول الباحثون المحدِّثون، بحكم الدوافع السياسية، ان يحوّروا في التاريخ، ومهما حاولوا أن يلطّفوا الواقع بطمس الحقائق، لن يكون بوسعهم أن يزيلوا حقيقة ان مسيحيّي الشرق، الملكيين منهم من بيزنطيين وغير بيزنطيين، وان المسيحيين الغربيين في انتمائهم الطقسّي، والمشرقيين في انتمائهم العرقي والجغرافي، قد رحّبوا بالصليبيين وعاونوهم ووجدوا فيهم المنقذين من السيطرة

الاسلامية المتصاعدة، ومن الفوضى التي سيطرت على هذه البقعة من العالم بعهد التفكّك الاسلامي في نهاية الألف الأول للميلاد. كذلك لن يمكنهم نكران أن بعض المجتمعات المنشقّة داخل الاسلام قد رحّبت بالصليبيين، أو أنها تعاونت معهم في وجه القوى الاسلامية السنيّة غير العربية التي كانت تعيث بالبلاد فساداً. وقد عبّر بعض الباحثين عن هذا الواقع بأن «امتداد الموجة الصليبية الأولى نحو الجنوب، بعد انتزاع انطاكية من أيدي الأتراك السلجوقيين، استُقبل في سورية ولبنان وفلسطين بلا مبالاة من جانب أهل الشيعة وبعطف من جانب المسيحيين[1]». بيدَ أن هذا القول، على ما فيه من اشارة إلى عدم مقاومة الشيعة للصليبيين، يبقى ملطِّفاً لحقيقة الواقع. ذلك أنه عندما وصل الزحف الصليبي إلى طرابلس في حملته الأولى باتجاه القدس، وكانت المدينة يومها قاعدة إمارة بني عمّار الشيعة، سارع ابن عمّار، أمير طرابلس، إلى ملاقاة القائد الصليبي غودفري دي بويون حاملاً اليه الهدايا الثمينة. وعندما وصلت الحملة إلى بيروت أقدم أميرها التنوخي الدرزي على مثل ما أقدم عليه ندّه الشيعي في طرابلس مقدّماً للصليبيين «مالاً ومقداراً سخياً من المؤن[2]».

وغني عن التأكيد ان جميع الكنائس التابعة للقسطنطينية والمعروفة بالكنائس الاورثوذكسية قد تعاونت مع الصليبيين إلى أقصى الحدود منذ مجيئهم إلى الشرق. فلقد كان هذا المجيء مرجّواً لا بل نتيجة استغاثة واستنجاد من الروم أنفسهم، كما سبق وذكرنا عن الحاح الامبراطور البيزنطي على البابا الروماني بوجوب إنقاذ المسيحيّة في الشرق.

في مقابل هذا التعاطف بين بعض أهل الشرق من مسيحيين وغير مسيحيين مع الصليبيين، كان هنالك موقف مسيحي معاد لهؤلاء الصليبيين، هو موقف «الهراطقة، من يونانيين وأرمن وسوريين ويعاقبة، الذين كانوا لا يزالون يمارسون

١ - بولس، التحولات، ص ٢٤٩
٢ - william of Tyre, Vol. I, P. 331

نصرانيتهم على طريقتهم الخصوصية في جوار انطاكية[1]»، وهؤلاء هم القائلون بالطبيعة الواحدة، أو بغير ذلك مما لا يتّفق مع المبدإ القويم للكنيستين الشرقية والغربية.

بقيت العلاقات على صفائها وعلى كثير من التعاضد والتعاون بين الصليبيين اللاتين وبين الروم البيزنطيين، حتى وفاة أديمار، الأسقف الذي كلّفه البابا أوربانوس قيادة الحملة الصليبية إلى الشرق، وكانت تلك الوفاة في الأول من آب (أغسطس) سنة ١٠٩٨، مما استدعى اجتماع الأمراء الصليبيين في انطاكية في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) ليوجّهوا رسالة إلى البابا أوربانوس الثاني يبلغونه من خلالها خبر وفاة أديمار، ويرجونه أن يأتي بنفسه إلى انطاكية ليرعى الكنيسة فيها. وقد استغرب المؤرخون الروم أن يكون الأمراء الافرنج «قد تناسوا وجود يوحنا السابع بطريرك انطاكية الشرعي فلم يذكروه لمناسبة هذا الطلب[2]». ويتّهمون بوهمند بأنه كان «منهوماً بالسلطة فاشتدّ حرصه على امارة انطاكية واستهلك اليها... إلى أن كاشف الروم بالعداوة فحاول في حزيران (يونيو) ١٠٩٩ أن يخرجهم من اللاذقية[3]».

اذا كان موت ممثّل البابا في ترؤس الحملة الصليبية الأسقف أديمار قد أوقع بعض الخلل في العلاقة بين الكنيستين الشرقية والغربية، فان وفاة البابا أوربانوس الثاني في التاسع والعشرين من تموز(يوليو) سنة ١٠٩٩ قد وضعت هذه العلاقة على حافة المجهول، إذ فقدت الحملة الصليبية رأس هرميتها، ولم يكن للبابا الذي خلف أوربانوس الثاني، وهو پاسكاليس الثاني (١٠٩٩ ـ ١١١٨) السلطة نفسها التي كانت للأول على قادة الافرنج، الذين راحوا يقررون سياساتهم بعيداً عن

١ ـ Anonymi gesta francorum X, 30; Raymond d'Aguilers, XIII; Haginmeyer H., Die Kreuzzugsbriefe, P. 164

٢ ـ رستم: كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٢، ص ٢٧٧

٣ ـ المرجع السابق، ص ٢٧٨

الإرادة الكنسيّة الجامعة. وهكذا أقدم بوهمند على مهاجمة منطقة مرعش في جنوب تركية، التي كانت قد أعيدت إلى الروم بموجب شروط المعاهدة بينهم وبين الصليبيين، ليضمّها إلى امارته. وكذلك فعل تانكريت بالنسبة إلى طرسوس وأدنه. وعندما وقع بوهمند أسيراً في يد السلجوقيين في صيف ١١٠٠، وبعد تحرره من هذا الأسر، اتهم البطريرك الانطاكي يوحنا السابع بأنه قد تواطأ مع الأتراك لأسره، وأجبره على الخروج من انطاكية وجعل مكانه أسقفاً لاتينياً. هذا ما تذكره المراجع الاورثوذكسية[1]. بينما يقول مؤرخو اللاتين بأن البطريرك الانطاكي يوحنا السابع قد استقال، وإذ شغر كرسيه نُصب الأسقف اللاتيني برناردوس بطريركاً مكانه[2].

كذلك يعتبر مؤرخو القدس أن التعيين الذي أجراه الأمراء الصليبيّون لأرنولفوس روهيز بطريركاً على أورشليم قد أدى إلى نتائج خطيرة على صعيد العلاقات بين الكنيستين، بسبب مماشاة هذا البطريرك لسياسة بوهمند الكنسيّة، معتبرين أنه، إضافة إلى إبعاده الكهنة الأرمن واليعاقبة والأقباط عن كنيسة القبر المقدس، قد أبعد الكهنة الأورثوذكسيين وعيّن عشرين كاهناً لاتينياً للخدمة في تلك الكنيسة، ثم «قبض على الكهنة الأورثوذكسيين مُطالباً بعود الصليب، وأمر بتعذيبهم، حتى قبلوا مكرهين بتقديم الأثر المقدس له[3]». ويبدو أن هذا البطريرك اللاتيني، الذي كان واعظاً أديباً دون أن يكون زاهداً أو حائزاً أيّة درجة كهنوتية، قد تصرّف ببعض الاستبداد، مما أغضب الشعب الأورثوذكسي وكهنته، كما أثار إستياء القسطنطينية[4].

١ ـ راجع: Grumel V., Patriarches d'Antioche, Echos d'Orient (1933), PP. 286 - 298; Leib B., Deux inedits byzantins, PP. 59 - 69

٢ ـ William of Tyre, VI, P. 23; Orderic Vitalis, IV, P. 141

٣ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٢، ص ٢٧٩؛ William of Tyre, IX, 1; Fulcher de chartres, I, P. 30

٤ ـ Runciman S., History of the crusades, I, PP. 294 - 295

في هذه الأثناء كان البابا أوربانوس الثاني قبل وفاته قد عيّن رئيس أساقفة بيزا دمبرتوس Daimbert خلفاً لأديمار وممثلاً لسلطة رومة في الأراضي المقدسة، فحلّ محل أرنولفوس بطريركاً على أورشليم، وخضع له غودفري، وكيل القبر المقدس، وبوهمند أمير انطاكية، وأقسما يمين الطاعة والولاء له. أما أمير الرها بودوان، فامتنع عن الخضوع.

منذ دمبرتوس تعاقب على سدة البطريركية في أورشليم أحد عشر بطريركاً لاتينياً كان آخرهم هرقليوس (١١٨٠ - ١١٩٠). بينما جلس على كرسي انطاكية في الحقبة نفسها أربعة بطاركة كان آخرهم بطرس (١١٩٦ - ١٢٠٨). ونشأت تدريجياً خمس أبرشيات كبرى تابعة لأورشليم رأس كلاً منها رئيس أساقفة، وهي أبرشيات: صور وقيصرية وبيسان وبصرى وعمان. وكانت أسقفيات بيروت وصيدا وبانياس وعكّة تابعة لصور، وأسقفيات سَبُطية تابعة لقيصرية، وطبرية وجبل الطور تابعة لبيسان. بينما كان لانطاكية ست عشرة ابرشية. هي أبرشيات: مصيصة والباره وأباميه ومنبج والرها وبانياس وجبلة وطرابلس واللاذقية وحارم (أو ارتاح) ومرعش وقيسون وقورش ورفنية وطرطوس وجبيل. وقد نشأت منازعات شديدة بين البطريركيتين على أبرشيات الساحل الفينيقي، فكانت أورشليم تقول بوجوب اتباع الملاءمة السياسية في تقسيم الأبرشيات، بينما قالت انطاكية بقرارات المجامع المسكونية ووجوب ابقاء القديم على قدمه. وبعد تطوّر تلك المنازعات وتدخّل ثلاثة باباوات في ملابساتها، بقي الحدّ الفاصل بين البطريركيتين الحدّ السياسي بين مملكة أورشليم وإمارة طرابلس[1].

في هذه الأثناء امتنع الأورثوذكسيون عن الاعتراف بسلطة الاكليروس اللاتيني، وراحوا ينتخبون في القسطنطينية بطريركاً تلو البطريرك على أورشليم طوال المدّة التي كان فيها اللاتين في المدينة المقدّسة، وكان هؤلاء البطاركة، على ما

١ - Cahen C., Syrie du Nord, P.P.314 - 317; Richard J., Royaume de Jerusalem,P.P 97, 98

يبدو، يقيمون دوماً في القسطنطينية. أما بالنسبة لانطاكية فيذكر بعض المراجع أنها، بايعاز من الامبراطور، حذت حذو أورشليم[1].

هذه الحزازات بين المملكة اللاتينية الغربية في الشرق، والامبراطورية الشرقية في القسطنطينية، التي نشأت في بداية الوجود الصليبي، سوف تتطور فيما بعد إلى منازعات عسكرية، وسوف تبقي جذوة الانشقاق متوهّجة، رغم الأخطار المصيريّة التي كانت تتهدد المسيحية في الشرق، التي من أجلها جاء الصليبيون ومن أجلها استنجد الروم باللاتين. غير أن الطرفين إنجذبا خلف السلطة والمطامع أكثر مما أعارا المسيحية اهتماماً. على خط آخر كانت الحمية الدينية تفعل فعلها في بعض الأوساط الاسلامية، من عربية وغير عربية. وكان هناك من يعير الدين كل الاهتمام، ومن يحلم بتخطّي جميع الفوارق المذهبية والعرقية، سواء بالسياسة أو بالقوة، من أجل الوصول إلى وحدة اسلامية متراصّة، يمكن من خلالها تحرير الشرق من السيطرة المسيحية: الغربية والشرقية. وهذا ما سوف يتحقق على يد بطل من أشهر أبطال الاسلام ذي أصل كردي ولد سنة ١١٣٨ في تكريت الواقعة على ضفاف دجلة بين الموصل وسامرّاء فسمّي يوسف، ولكنّ شهرته قد انتشرت بلقبه: صلاح الدين الأيوبي، الذي سيأخذ على عاتقه إزالة المملكة اللاتينية الشرقية من الوجود. وإنّ هذا الوجود قد بدأ فعلاً بالاضمحلال مع زوال مملكة القدس عملياً سنة ١١٨٧، وإمارة انطاكية سنة ١٢٦٨. وحدها كونتية طرابلس دامت حوالى القرنين ولم تُزل إلاّ على أيدي المماليك سنة ١٢٩١.

لقد عمد الصليبيون، إبان سيطرتهم على الشرق، إلى تقسيم البلدان المحتلّة إلى أربع دول مرتبطة بما يشبه الفدرالية، وكانت مملكة القدس الدولة الرئيسة ذات السيادة، تتبعها دول اقطاعية ثلاث: كونتية طرابلس، وإمارة انطاكية، وكونتية الرها (Edissa) على الفرات، وكان ملك القدس على رأس الهرمية الاقطاعية. أما

١ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٢، ص ٢٨٨ - ٢٨٩

سلطته فكانت مستمدّة من سلطة الولاة الاقطاعيين ومن سلطة البطريرك الأورشليمي. وكانت سلطة الاقطاعيين الكبار على النمط نفسه داخل إماراتهم. وكان هؤلاء الاقطاعيون يؤلّفون هيئة تراقب سلطة الملك تسمى «المجلس الأعلى». وكان يلي هذا المجلس، نزولاً، مجالس لبورجوازيّين ذوي صلاحيات مماثلة لصلاحيات النبلاء الذين كان لهم سلطة على الحياة والموت. وقد تمتّع بحريات واسعة أعضاء الجاليات الايطالية والفرنسية التي كانت قد عاونت على الاحتلال إبان الحروب، مما جعلها تحرز تلك الامتيازات الموروثة[1].

تجدر الاشارة إلى أن مملكة القدس ودويلاتها لم تكن خاضعة لأي من الدول الغربية، بل كانت دولاً محليّة شرقية ذات حكم لاتيني. وقد اعتبر الافرنج، عموماً، كل من احترم الصليب مسيحياً، محاولين عدم التمييز بين الطوائف، وإن كان بعض تلك الطوائف غير موال لهم. على أن الطوائف التي محضتهم الولاء قد جهّزت اداراتهم بالعديد من الموظفين وبالممثلين لدى أمراء الداخل، وكان أبرز هؤلاء: الموارنة.

يُجمع المؤرخون على ان المسلمين، الذين كانوا يشكّلون الأغلبية بين سكان المدن الخاضعة للحكم الصليبي، كانوا يتمتعون بحرية دينية كاملة «وقد عاشوا في ظلّ الافرنج في رفاهية وطمأنينة تامة على أشخاصهم وممتلكاتهم... ومساكنهم بأيديهم وجميع أموالهم متروكة لهم... وكثيراً ما كانوا يقارنون بين حالتهم وحالة إخوانهم في المناطق الخاضعة للمسلمين بعيداً عن الترفيه والرفق[2]».

يعتبر بعض الباحثين أن مسالمة السكان المسلمين للحكام الافرنج المسيحيين جاءت نتيجة معاناتهم من استعباد الأتراك والأكراد والبربر المسلمين لهم، الذين كانت غايتهم جمع الثروة على حساب البلاد وشعوبها الأساسية في لبنان وسورية

---

١ - راجع: بولس، التحولات، ص ٢٥٦ - ٢٥٧

٢ - Lammens, La Syrie, précis historique, I, PP. 249 - 251 بالاستناد إلى ابن جبير

وفلسطين. لذلك اعتبروا إن سيطرة الافرنج، ان لم تكن أفضل، فهي على أي حال ليست أسوأ من السيطرة التي سبقتها. من شأن ذلك أن يدلّ على أن هؤلاء السكان كانوا مستعدّين لمناصرة أي مسلم واعد بالمحافظة على أموالهم وكراماتهم، وهذا ما سوف يوحي به ظهور صلاح الدين.

عندما كان الصليبيون الافرنج مسيطرين على الساحل المشرقي الذي يضمّ فلسطين ولبنان والشاطئ السوري، كانت سورية الداخلية التي تضمّ دمشق وحمص وحلب والموصل، اسلامية وعلى رأسها الأمراء الأتراك السلجوقيون أو عمّالهم الأتراك الاتابكة، وكان هؤلاء في حال مقاومة شبه مستمرة للصليبيين، كما كانوا في حال صراع شبه دائم بين بعضهم البعض للاستيلاء على السلطة. بينما كانت مصر لا تزال خاضعة لسلطة الخلافة الفاطمية الشيعية.

عودة الشرق إلى الشرق

في الربع الأول من القرن الثاني عشر، برز من بين الأتابكة قائد فذ، هو عماد الدين زنكي، فسادَ الموصل سنة ١١٢٧ ثم بسط سيطرته على الجزيرة الفراتية، ومن هناك دفع بجيوشه إلى مدينة الرها فانتزعها سنه ١١٤٤ من أيدي الصليبيين الذين حكموها نحو خمسين سنة، بعد أن ضمّ حلب إلى سلطته سنة ١١٢٨ ثم استولى على حماه فبعلبك. بيدَ أنه فيما كان يحاصر قلعة جابر، بعد سنتين من احتلاله للرها، هجم عليه بعض مماليكه بتحريض من خصومه واغتالوه[1]، فخلفه في القيادة ابنه نور الدين الذي تمكن سنة ١١٥٤ من انتزاع دمشق من السلالة التركية البورية التي أسسها طغتكين بن عبد الله بعد أن كانت دمشق لسنين كثيرة حليفة فعليّة للقدس اللاتينية. أما صلخد وبصرى وبانياس، التي كانت خاضعة للشيعة الاسماعيلية، وغيرها من المدن في منطقة دمشق، فربما

---

١ - سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، تعريب عفيف البعلبكي، ص ٢٩٤

عمدت أحياناً إلى التماس العون من اللاتين لمواصلة كفاحها ضدّ المسلمين الآخرين[1].

بسيطرته على دمشق، أزال نور الدين زنكي العقبة الأخيرة القائمة بين المناطق الخاضعة له ومدينة القدس. وللمرة الأولى منذ سقوط الأمويين سنة ٧٥٠ أصبحت دمشق عاصمة دولة مسلمة واسعة موحّدة ومستقلّة. وأصبح الهدف الأوحد لسياسة نور الدين انتصار الاسلام السنّي. وتركّزت جميع الجهود على الجهاد بعد أن وطّدت دمشق أهميتها العسكرية ونفوذها الديني كعاصمة للسنّة[2] مقابل العاصمة الشيعية آنذاك: القاهرة.

وإذ كان نور الدين هادفاً إلى تطويق القدس من الشمال والجنوب، رأى أن لا بدّ من السيطرة على مصر. فبعث بقائده الباسل أسد الدين شيركوه إلى عاصمة الخلافة الفاطميّة حيث تمكّن هذا القائد الكردي سنة ١١٦٩، بعد انتصارات حقّقها في ميداني القتال والسياسة، من تولي الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد (١١٦٠ - ١١٧٠)، ولكنّه لم يعش وزيراً سوى شهرين.

بموت أسد الدين انتقلت الوزارة في الخلافة الفاطمية الواهنة إلى ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب الذي كان قد رافقه إلى مصر. بيدَ أن حدثا لم يكن في الحسبان قد وضع صلاح الدين أمام مسؤولية تاريخية جسيمة. ذلك أن المخطّط الأكبر والقائد الأعلى نور الدين زنكي قد توفي فجأة في دمشق سنة ١١٧٤ تاركاً بعده خلفاء قاصرين وعاجزين، بعد أن كان صلاح الدين قد أقدم على خلع الخليفة العاضد وإلغاء الخلافة الفاطمية نهائياً في مصر وبعد أن سيطر على بلاد النيل سيطرة تامة، حتّى أنه عُرف بالسلطان. وإذ دبّت الفوضى في دمشق والموصل وحلب بعد موت نور الدين، قام رائد الوحدة الاسلامية صلاح الدين

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٣٤ - ٢٣٥

بعبور الصحراء على رأس سبعمائة فارس من الجنود المدربين، ودخل دمشق في ٢٤ تشرين الأول (أوكتوبر) ١١٧٤ بلا مقاومة، ثم تزوّج أرملة نور الدين ونال المبايعة من زعماء المدينة، وولى المدينة أخاه طغطكين، وغادرها على رأس جيش جنّده من الشام قاصداً حلب فأخضعها، وكذلك فعل ببعلبك، ومنها توجّه شمالاً إلى حماه حيث وجد ان جيشاً من جند حلب والموصل كان في اعقابه، وكان النصر الذي حقّقه صلاح الدين على هذا الجيش سنة ١١٧٥ حاسماً.

بعد الغائه لمعارضيه وخصومه ومحاولي الثورة عليه من الاتابكة والأكراد، وإزالته للخلافة الفاطمية من الوجود، وقبل البدء بمحاربة العدو الأكبر: الافرنج، تفرغ صلاح الدين لمقاتلة الحشاشين الذين حاولوا اغتياله مرتين، فانقضّ على قلاعهم التسع التي كانوا يحتمون فيها على امتداد جبال اللاّذقية، فأسقطها جميعاً باستثناء القلعة الرئيسية: مصياف، في جبال النصيريّة. على أنه لم يفكّ الحصار عنها إلاّ بعد عهد قطعه له زعيم فرقة الحشاشين بأنه لن يحاول اغتياله.

بعد توحيده لمصر وسورية، أصبح انتزاع البلاد من سيطرة الافرنج الهدف الخطير لصلاح الدين. وقد بدا هذا الهدف ممكن التحقيق بعد أن أصبحت القدس بين فك الكمّاشة الأول: القاهرة، وفكّها الثاني: دمشق. أما الوضع في فلسطين «فإنه كان يغري من يتطلّع إلى غزوها. ذلك أن مملكة بيت المقدس كانت، خلافاً لبنود هدنة السلام، تقوم بغزوات إلى جهة الشمال وإلى أبعد من حلب دون أن تترك جيشاً يتولّى أمر الدفاع عن فلسطين. وكان يتسلّم عرش مملكة بيت المقدس في ذلك الزمان بودوان الرابع ذو السادسة عشرة، وكان يُلقّب بالأبرص لأنه كان مصاباً بالبرص، وفضلاً عن هذا فإنّ ذراعه اليمنى كانت مشلولة لأنهم دقّوا فيهامسماراً، وهي عادة مستحبة كان يمارسها الفرسان دلالة على قوة التحمل والجلد[1]».

١ - حتي: صانعو التاريخ العربي، ص ١٧٨

في هذه الأثناء كان صلاح الدين بعد سيطرته على الدويلات الاسلامية في سورية قد عاد إلى القاهرة سنة ١١٧٦، وسارع إلى ترميم أسوار المدينة وإلى بناء قلعة على جبل المقطّم مشرفة على القاهرة لتمتين الدفاع عن عاصمته.

بدأ صلاح الدين حروبه مع الصليبيين بمهاجمة مدينة عسقلان الواقعة بين مصر وفلسطين «ولم يكن بالعسير على صلاح الدين أن يستولي عليها وان ينهب المناطق المحيطة بها. فقد كان فتحها أشبه بنزهة قام بها جنوده البالغ عددهم ستة وعشرين ألف مقاتل. وتابع الجيش زحفه شمالاً على ساحل البحر، إلى الرملة، مخلّفا بيت المقدس وراءه. في هذه الأثناء جمع الافرنج جيوشهم من بيت المقدس وعلى رأسهم الداوية، ومن صيدا وعلى رأسهم ريجنالد، ومن الكرك وعلى رأسهم ريجنالد شانتيون (اورناط). وكان جيش الداوية يُعرف أيضاً بالهيكليين، نسبة لهيكل سليمان في القدس حيث تأسست فرقتهم سنة ١١١٨ لحماية الحجاج، وليحاربوا إلى جانب أي جيش من جيوش الصليبيين. وكان هنالك طائفة أخرى منهم تُعرف بالاسبيتارية أو جنود القديس يوحنا، وقد تأسّست هذه الأخويّة العسكرية الدينية لتقوم بايواء الحجاج وتقديم الطعام والمأوى لهم. وظهر في ساحة المعركة في الرملة أسقف بيت لحم يحمل الصليب الحقيقي وينفث في جنوده روح الحماسة». وكانت النتيجة «ان تمزّق جيش صلاح الدين شر ممزق، وأما هو فإنه نجا من الموت بأعجوبة، وعندما أسدل الظلام ركب ذليلاً يتبعه من تبقّى من أفراد حرسه، وتراجعوا تاركين الجرحى وراءهم. وكان يوم الرملة (٢٥ تشرين الثاني - نوڤمبر -) من أسوأ ما عرفه في حياته العسكرية[١]».

هذه التجربة المرّة جعلت صلاح الدين، وهو صاحب قضية، يعيد النظر في بُنية آلته العسكرية، ويتهيأ لتحقيق أهدافه، ولم يعرف القنوط أو التراجع مدخلاً إلى عزيمته. بينما راح بودوان، أمام الخطر المحدق بالمملكة اللاتينية، يعمل على

١ - المرجع السابق، ص ١٧٩

تقوية الدفاعات عن المدينة. وبعد مرور أقل من سنتين على يوم الرملة، كان بودوان قد بنى قلعة في ممرّ مؤدٍّ إلى نهر الأردن في المكان الذي يُعرف ببنات يعقوب، حيث تقول التوراة أن يعقوب صارع فيه ملاك الرب؛ وكان هذا الممر حيوياً بالنسبة لدمشق إذ كان يصلها بسهل بانياس الذي كانت تعتمد في قسم كبير من تموينها بالقمح والأرز والقطن عليه.

في ٢٥ آب (أغوسطس) ١١٧٩ أصبحت هذه القلعة في حكم المحاصرة من قبل جيش صلاح الدين المعاد تنظيمه والمعزز بجنود من القاهرة ودمشق. ولقد دافع عنها الهيكليون ببسالة نادرة، فصمدت أسوارها التي بلغت ثخانتها ثلاثة عشر قدماً «مدة خمسة أيام كان النقّابون واللغّامون في أثنائها، من جيش صلاح الدين، يحاولون نقبها. ثم انهم حفروا حُفراً عميقة خارج الاسوار أشعَلوا فيها النار أياماً، وحفراً أخرى ملأوها ماء، وأخيراً نجحوا في إحداث ثغرة في الأسوار، فتدفقت الجيوش منها وهجموا على حاميتها، فقتلوا عدداً منهم ورموا بجثثهم من على الاسوار، وأُسر منهم سبعمئة فارس. وبالرغم من شدّة حر شهر آب (أغسطس)، وبالرغم من الرائحة الخبيثة المنبعثة من تفسّخ الجثث، فإن صلاح الدين أبى أن يغادر المكان قبل أن يرى تهديم القلعة التي بناها بودوان. وتقول الروايات الاسلامية ان يعقوب بكى ابنه يوسف في هذا المكان، ولذلك سُمّي فيما بعد «بيت الاحزان». وأصبح «بيت الاحزان» الآن مكان حزن وبكاء عند النصارى[١]».

إثر هذه النكسة الصليبية التي ترافقت مع انتكاس صحة بودوان، ومع سنة قحط ومجاعة ضربت مملكة صلاح الدين، قبِل الثاني بطلب الأول لهدنة سنتين. بيدَ أن هذه الهدنة لم تُرح القائد المسلم الذي واجهته مشكلات في حلب بسبب موت الملك الصالح، وعندما وصل إلى دمشق وجد ان عماد الدين، أخا عز الدين ملك الموصل، نصّب نفسه ملكاً وارثاً لابن عمه في حلب. وهكذا وجد صلاح

١ - المرجع السابق، ص ١٨٠

الدين ان لا بد له من إحكام قبضته على كامل سورية والعراق، اضافة إلى مصر، قبل ان يشن حربه التحريرية ضد الصليبيين.

وفي شهر أيلول (سبتمبر) ١١٨٢ كانت جيوشه أمام مداخل مدينة الموصل. وراحت مدن شمالي العراق تستسلم له المدينة تلو الأخرى من الرها إلى نصيبين على دجلة، فضرب الحصار على الموصل وراح جيشه يخرّب المناطق المحيطة بها. وفي الحادي عشر من حزيران (يونيو) ١١٨٣ وصل صلاح الدين إلى مداخل حلب التي سرعان ما استسلمت بفعل تعصّب سكانها لفروسية صلاح الدين ونبله وعدله وكرمه. ذلك ان اسمه كان قد شاع في جميع أنحاء العالم الاسلامي على أنه البطل المحرر، ليس من الصليبيين وحسب، بل من شذاذ الحكام وأهل السلطة من المسلمين. وبذلك، وبعد معاهدة بينه وبين حاكم الموصل، تعترف بالسلطة العليا له، أصبح سلطان مصر وسورية معززاً بلقب اضافي: سلطان شمالي العراق. على أن لقب سلطان الاسلام والمسلمين كان اللقب الجامع الذي يفضله، متطلعاً بعد هذه الانتصارات الداخلية إلى المستقبل بثقة وعزم وطموح لا يعرف حدّاً، يعززه ايمان بهدف وقضية؛ بينما كان ما تبقّى بين أيدي الصليبيين غير باعث إلى مثل هذه الحالة المعنوية، اذ لم يتبقّ في أيديهم الآن سوى كونتية طرابلس وكونتية انطاكية ومملكة بيت المقدس، وكانت هذه هشّة الترابط، تهدّدها كتلة اسلامية متراصّة. وبينما كان تركيب السكان في المنطقة الصليبية من أقليّة أوروبية ضئيلة تسيطر على طبقات عديدة من السكان الأصليين من مسيحيين ومسلمين، كان سكان الكتلة الاسلامية يشكّلون، تحت لواء صلاح الدين، جبهة موحّدة وثابتة ومقيمة، يختلف عنها كليّاً وضع المجموعات الواقعة تحت السيطرة الصليبية، حيث كان النصارى من الأرمن واليعاقبة في الجزء الشمالي غير موالين للصليبيين، على عكس الموارنة والكاثوليك من الملكيين، بينما الروم الاورثوذكس في الجزء الأوسط من البلاد وفي الجنوب يمحضون ولاءهم للامبراطور. ولقد كان الصليبيون يعتمدون في أمنهم على العون الذي يقدّمه لهم الحجاج إلى بيت المقدس، «ولكن الحاج كان

يعتقد ان حجّه ينتهي بزيارة بيت المقدس، ثم يأخذ بالتفكير في العودة إلى وطنه. فكان الحجّاج كالطيور القاطعة، تمر مرّاً. فلا يمكن، والحالة هذه ان يُعتمد عليهم كعنصر في الدفاع عن الممتلكات الصليبية. ثم كان هناك جاليات من جنوى والبندقية وبيزا، ولكنهم كانوا تجّاراً همّهم الربح والمصالح الخاصة أولاً. وكان لهذه الجاليات أحياء معينة يقيمون فيها. وكان لهم امتيازات يتمتّعون بها.

إن الروح الصليبية الأولى في أوروبة، وما كانت تنطوي عليه من مغامرة، كانت في هذا الحين قد زالت. ولم يعد الناس ينظرون إليها نظرتهم إليها في بادئ الأمر. وحلّ محلها اهتمام بامور التجارة، ونظرة جديدة إلى الحياة... «ومنذ البدء كانت هذه الممالك الصليبية ممالك دخيلة مصطنعة. وقد وجد الصليبيون أنفسهم أنهم يتيهون في معمعة لا يعرفون لها مخرجاً. وبينما كانت البلدان الاسلامية المحيطة بهم تتّحد، كان الصليبيون يجدون أنفسهم ضِعافاً غير متّحدين[1]».

ففي القدس مشكلة خلافة بودوان الرابع الذي توفي مريضاً سنة ١١٨٣، إلى أن استولى على العرش صهره استيلاء. وفي طرابلس مشكلة مماثلة: فلقد كان أميرها ريموند الثالث وصيّاً، وبصفته هذه ادّعى أنه وارث للعرش، فتفرّد بعقد معاهدة مع صلاح الدين ضد سيده المرتبط معه بالولاء في بيت المقدس. حتى ان بعضهم ذكر ان ريموند الثالث قد زار صلاح الدين في دمشق واعتنق الاسلام. هذا الحدّ بلغه التنابذ في صفوف الصليبيين «فكان صاحب الاقطاع يثور ضد سيده ويتصرّف تصرف المستقل. وفي أحيان كثيرة كان الصليبيون يحالفون المسلمين ضد خصومهم من النصارى، وأصبحوا الآن يشكون من العلل ذاتها التي كان يشكو منها المسلمون عند مقدم الصليبيين: الانقسام والتحاسد[2]» أو التحاسد الذي يؤدي دوماً إلى الانقسام.

إضافة إلى كل هذا، كان للتصرفات الرعناء لبعض القادة الافرنج فعل تأجيج

---

١ - المرجع السابق، ص ١٨٣

٢ - المرجع السابق، ص ١٨٤

العداء والتصميم على الانتقام في نفوس المسلمين وسلطانهم صلاح الدين. من هؤلاء ريجنالد صاحب قلعة الكرك الذي كان يعيش في قلعته عيشة بذخ وانفاق لما توفّر له عن طريق مداهمة القوافل التجارية ونهب قوافل الحجّاج المسلمين التي كانت تمرّ بقرب قلعته، حتى إنه نزل ذات مرة على شواطئ الحجاز بقصد تدنيس المكان. وفي ١١٨٧ وقعت قافلة فيها اخت السلطان صلاح الدين في الأسر، ولكي يكمل ريجنالد طين العداوة بلّة قال مخاطباً الاسرى: «دعوا الآن نبيكم ينجيكم من يديّ». هنا أقسم صلاح الدين على أنه سيقطع رأس ريجنالد بيده.

لسنا ندري إذا كانت هذه الحادثة التي جرت في ربيع سنة ١١٨٧ هي التي عجّلت في توقيت ساعة المعركة الحاسمة لدى قرار صلاح الدين بالخروج على رأس جيش قوامه اثنا عشر ألف فارس وستة آلاف متطوّع من المشاة من مدينة دمشق يوم الجمعة في السادس والعشرين من حزيران (يونيو). وكان هدف الجيش الأول: مدينة طبرية، التي استسلمت بعد ستة أيام من الحصار.

كان سقوط طبرية ايذاناً بزوال المملكة اللاتينية.

في جوار طبرية فوهة بركان خامد على رأس قمة تعرف بـ «قرون حطين» ترتفع حوالى ستمائة متر فوق سطح بحر الجليل. وفي الأخبار ان عظة السيد المسيح على الجبل إنما كانت في هذا المكان. ونحو هذا المكان تحوّل جيش المسلمين من طبرية في جو حره شديد للغاية يوم الثالث من تموز حيث نشبت المعركة الفاصلة. وكان السير الطويل قد انهك جيوش الافرنج المدججين بالسلاح الثقيل. فقد كان سلاح الفارس الصليبي يشتمل على سترة جلدية فوقها درع، وعلى خوذة ثقيلة، وسيف طويل، ورمح، وترس. وقد ضرب العطش ذلك الجيش حتى خبله في تلك البقعة الجديبة حيث لا ماء، فأحاط بهم المسلمون بسلاحهم الخفيف وأمطروهم بوابل من النبال لم يسبق ان تعرّضوا لنظيره. ولم يسلم من العشرين ألفاً، بين فارس وراجل، إلاّ من ارتدّ أو لاذ بالفرار. أمّا الباقون فقد سقطوا في المعركة، أو وقعوا في الأسر. وكان على رأس موكب الأسرى ملك

القدس بذاته: غي دي لوسينيان، إضافة إلى ذلك الذي أقسم صلاح الدين على قطع رأسه: ريجنالد أوف ساتدن. وفي خيمة صلاح الدين أجلس السلطان إلى جانبه ملك الافرنج وأمر له بشراب ماء الورد وعاملهُ بما يليق برتبته الرفيعة هامساً بأذنه: «ان الملك لا يقتل ملكاً» واستل سيفه وهوى به على عنق ريجنالد فقطع رأسه باراً بقسمه[١].

لم تصمد القدس للحصار الذي استهدفها سوى اسبوع واحد كانت نهايته ونهاية الحكم الصليبي عليها في الثاني من تشرين الاول (أوكتوبر). ويركّز المؤرخون على الفرق بين معاملة صلاح الدين للمدنيين من الافرنج، ومعاملة الافرنج للمسلمين قبل ثمان وثمانين سنة. «فمَن استطاع أن يؤدي الفدية عن نفسه فقد فعل، وسُمح للفقراء منهم بفرصة عشرين يوماً يجمعون خلالها مبلغاً يفتدون به نفوسهم، وبيع الباقون عبيداً. أما الأراضي التي أخلاها الافرنج، فقد ابتاعها الجنود والنصارى من المواطنين. واتّجهت موجة الفتح بعد القدس نحو الحصون الباقية فجرفت في طريقها الشوبك[٢]، والكرك[٣]، إلى الجنوب، وقلعة كوكب[٤]، والشقيف[٥]، وصهيون[٦]، إلى الشمال. ثم سقطت عسقلان وعكة وصفد وطرطوس وجبل

---

١ ـ Ernoul and Bernard, le tresorier, Chronique, Ed. de Mas Latrie (Paris, 1871), PP. 172 - 174؛ بهاء الدين ابن شدّاد، سيرة صلاح الدين (القاهرة ١٣١٧) ص ٢٧، ٦٠ ـ ٦٥؛ ابن الاثير، ج ١١، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٥؛ أبو شامة، ج ٢، ص ٧٥ وما يليها.

٢ ـ الشوبك: قلعة بناها بودوان الاول في جبل الشوراة جنوبي الأردن للإشراف على الطريق بين دمشق والحجاز ومصر. كانت على جانب عظيم من الأهمية في الحروب الصليبية.

٣ ـ الكرك: حصن مسوّر كان للمؤابيين. عُرف قديماً باسم: كير مؤاب، موقعه في الاردن، يشرف على طريق الحج والتجارة.

٤ ـ كوكب: حصن بناه الصليبيون في الاردن إلى الشمال من بيسان، وكان كامل اسمه: كوكب الهواء.

٥ ـ الشقيف: قلعة قائمة على صخر شاهق يبلغ ارتفاعه خمسمائة متر عن نهر الليطاني. وهي تسيطر على الممر الجبلي من دمشق إلى صيدا. واسمها التام: شقيف أرنون. والكلمتان سريانيتان. شقيف: الصخر العظيم، أرنون: السيل المندفع.

٦ ـ صهيون: قلعة صهيون أو قلعة صلاح الدين: قلعة في سورية قرب اللاذقية. تحصّن فيها الفينيقيون دون الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد. احتلّها البيزنطينيون سنة ٩٧٥، ثم الصليبيون سنة ١١١٩، ثم صلاح الدين سنة ١١٨٨.

واللاّذقية جميعاً قبل نهاية سنة ١١٨٩، حيث لم يبق في يد الافرنج إلاّ صور وطرابلس وانطاكية وبعض المدن والحصون الصغيرة[1] ».

كان لسقوط المدينة المقدسة في يد المسلمين، ولإخراج الصليبيين منها، ردّة فعل عنيفة في أوروبة المسيحية. وقد تُرجمت ردّة الفعل هذه بإعداد حملة صليبية ساهم فيها أقوى الملوك في أوروبة الغربية آنذاك: ملك المانيا فريدريك بارباروسا، وملك فرنسا فيليب اغسطس، وملك بريطانيا ريكاردوس الملقّب بقلب الأسد «وقد التقت الأسطورة بالتاريخ لتجعل من هذه المعركة التي تقابل فيها البطلان: ريكاردوس وصلاح الدين، حقبة من أروع الحقب وأشدّها اثارة في تاريخ الغرب والشرق[2] ».

هذه الحملة الصليبية الجديدة سوف يُكتب لها ان تستمر في عملياتها الحربية السنتين الممتدتين بين ٢٧ آب (أغسطس) ١١٨٩ و١٢ تموز (يوليو) ١١٩١. وتُعتبر العمليات الحربية التي شهدها الشرق في هاتين السنتين من أعظم المواقع التي دارت في تاريخ القرون الوسطى. وسجّل فيها التاريخ أعمالاً من البطولة النادرة جرت في كلّ من المعسكرين المتقاتلين. وقد اشترك فيها اساطيل غربية إلى جانب الصليبيين وملاّحون مسلمون من بيروت، وسبّاحون أمّنوا، كما حمام الزاجل، الصلات بين صلاح الدين وجيوشه المحاصرة.

اشترك من اللاتين في هذه الحملة المقيمون منهم في سورية والقادمون حديثاً في الحملة الجديدة من أوروبة باستثناء الألمان الذين كان ملكهم قد سلك طريق البر، لكنه غرق وهو يعبر نهراً في كيليكية، فتخاذل الكثيرون من أتباعه وعادوا أدراجهم.

١ ـ حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص ٢٣٨؛ راجع: ابن خلدون، ج ٥، ص ٣١١؛ المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة الملوك، نشر مصطفى زيادة، (القاهرة ١٩٣٤)، ج١، قسم ١، ص٩٩ ـ ١٠١؛ ابن شداد، ص ٦٥ وما يليها؛ .Ernoul and Bernard, P. 179

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٣٩.

بعد ان حرر الافرنج مدينة عكة تحوّلوا إلى القدس فحاصروها. وإذا أخفق صلاح الدين في الحصول على نجدة من الخليفة العباسي، استسلمت المدينة. وكان من شروط الاستسلام إعادة عود الصليب الحقيقي الذي انتهب في حطين، وإخلاء سبيل الحامية، في مقابل أداء ٢٠٠ ألف قطعة ذهبية. وفي حال عدم دفع المال بعد مضي شهر، أمر قلب الأسد بالألفين والسبع مئة أسير فقتلوا عن آخرهم[1].

ويضع كبير مؤرّخي الشرق الأوسط، كتابة، نهاية ذلك الفصل من الزمن الذي سطع في سماء شرقه اسم صلاح الدين الأيوبي على هذه الصورة!

«وكان ريكاردوس وجداني الخيال، فاقترح على صلاح الدين، حسماً للنزاع، ان تُزفّ اخت ريكاردوس إلى أخ صلاح الدين الأصغر، الملك العادل، وأن تُقدّم عكّة والقدس للعروسين هدية زفاف، فيكون بذلك ختام النضال المسيحي الاسلامي. وفي أيار (مايو) ١١٩٢ قام ريكاردوس بمنح الملك الكامل ابن الملك العادل رتبة الفروسية في احتفال رسمي مهيب، وكان عمه صلاح الدين قد مُنح، قبل ذلك بسنين عديدة، هذه الرتبة السامية من رتب الفروسية المسيحية. وقد تبادل ريكاردوس وصلاح الدين الهدايا. لكن لم يُقدر لهما ان يلتقيا. وفي ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١١٩٢ تمّ الصلح بينهما على أنْ يكون الساحل، من مدينة صور إلى الجنوب، تابعاً للاتين، وان يبقى الداخل بيد المسلمين، وألاّ يعترض أحد سبيل الحجّاج الوافدين على القدس. وهكذا قُسّمت فلسطين، وودّع ريكاردوس سورية، وعاد أدراجه إلى وطنه. وفي مستهل شهر آذار (مارس) من العام التالي توفي صلاح الدين على أثر حمى أصابته، وله من العمر خمس وخمسون سنة. ولا يزال قبره القائم إلى جانب المسجد الاموي من أجلّ المزارات في العاصمة السورية[2] ».

١ ـ راجع: ابو شامه، ج ٢، ص ١٨٨؛ ابو الفداء، ج ٣، ص ٨٣ ـ ٨٤؛ ابن شداد، ص ١٦٤ ـ ١٦٥؛ قابل: Benedict of Peter Boroug, Ed: W. Stubbs (London, 1867) Vol. II. P. 189;

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٤٠

أماّ الإرثُ الذي خلّفه فقد بلغ سبعة واربعين درهماً وقطعة واحدة من ذهب. لكن الذكرى التي خلّفها لا تزال كنزاً يفوق كل تقدير في تراث الشرق العربي.

مثلما حصل في حالات ارث عظماء التاريخ، فإنّ تاريخ أمراء الأسرة الأيوبية، منذ وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣ حتى هلاك آخر أمير منهم سنة ١٢٥٠، لم يكن سوى سجل من الدسائس والصراع فيما بينهم، إذ كان لكل منهم أطماع توسّعية اقليمية، وقد تمرّدوا جميعاً على سلطة سلاطين مصر الايوبيين الذين كان أولهم الملك العادل أخا صلاح الدين، بينما كان ابنا صلاح الدين الوريثين لأبيهما في المنطقة السورية التي انقسمت بينهما. وقد نشأت بعد العادل أسر أيوبية عديدة تولّت الحكم في مصر ودمشق والعراق، وظهرت منها فروع أخرى في حمص وحماة واليمن[1].

لم يكن حال الصليبيين، لجهة التفسخ والفتن، أفضل مما كان عليه حال المسلمين في الجانب الآخر. «ولم يكن الجمهور في أوروبة طيلة القرن الثالث عشر، ليلقي بالاً إلى هذه الحروب. ولم يجهّز منها ما هو شبيه بالحملة الصليبية الأولى، من حيث انها تخلّفت عن الدوافع الدينيّة، إلاّ حملات القديس لويس ملك فرنسة في أواسط ذلك القرن. على ان عدداً من الحملات الصليبية التي جُهّزت في هذا العصر قد وُجّهت إلى مصر على أمل أن تبلغ البحر الأحمر، وتساهم في النشاط التجاري العامر في المحيط الهندي، على افتراض ان احتلال دمياط أو الاسكندرية، مثلاً، قد يمكّن من استبدال القدس بإحداهما[2]».

بخلال هذه الأجواء التي فقد فيها الصليبيون روح الجهاد تماماً، مثلما فقدها المسلمون، وفي خلال الاضطرابات التي نشبت ما بين أمراء السلالة الأيوبية، إذ كان واحدهم يستدعي الافرنج لمساعدته في استعدائه للآخر، سواء كان هؤلاء

١ - راجع: Wiet, l'Egypte Arabe, P. 59

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٤٢

أمراء في مصر أو دمشق أو حلب أو حماه أو حمص أو الكرك أو غيرها، أخذت المدن التي احتلها صلاح الدين كبيروت وصفد وطبريّة، تعود تباعاً إلى أيدي الافرنج الذين كانوا ينتهزون الخلافات الأيوبية، ليحصلوا على مغانم جوهرية، حتى أنهم استعادوا القدس، بالطرق الدبلوماسية، عندما تخلّى الملك الكامل ابن العادل: شقيق صلاح الدين، عن القدس لفريدريك الثاني ملك صقلية، سنة ١٢٢٩، بموجب معاهدة عقدت لعشر سنوات، تعهّد فريدريك بموجبها بأن يقدّم الدعم للسلطان الأيوبي على اعدائه وجلّهم من الأيوبيين[1]. ولم تعد المدينة المقدسة إلى حوزة الاسلام قبل سنة ١٢٤٤ عندما عمد نجم الدين ابن أخي الكامل إلى استخدام قوة من الأتراك الخوارزم الذين أخرجهم جنكيزخان من موطنهم في آسية الوسطى.

واذ كان الشقاق قد استشرى في صفوف الافرنج واشتدت المنافسة بين أهل جنوى منهم وأهل البندقية، واستحكم التحاسد بين الفرسان الهيكليين والفرسان الاسبيتاريين، ونشب النزاع بين زعمائهم، لم يعد بوسع هؤلاء ان يستغلّوا التفسّخ الايوبي مثلما فعلوا من قبل ومثلما استعان المسلمون بالصليبيين على المسلمين، فها هم الصليبيون في هذه الخصومات، يستعينون بالمسلمين ضد الصليبيين.

كانت الحملة الصليبية السادسة[2] الأبرز بين الحملات التي تلت الحملة الثالثة، وقد كان لقدوم ملك فرنسة القديس لويس (الملك لويس التاسع ١٢١٤ ـ ١٢٧٠) تأثير فعّال في اعادة ضخ شيء من الجهاد الديني إلى مقاتلي الافرنج. وقد قضى هذا الملك القائد أربع سنوات في سورية (١٢٥٠ ـ ١٢٥٤) حيث حصن يافة وعكة وقيصرية وصيدا التي كان يحتلها الصليبيون، ورمّم الحصن الذي اتخذه مقراً له في صيدا، وقد قام الفرسان الهيكليون على حمايته.

١ - راجع: ابن الاثير، الكامل، ج١٢، ص ٣١٥؛ ابو الفداء، ج ٣، ص ١٤٨

٢ - اختلف المؤرخون في ترقيم الحملات الصليبية. فبينما اعتبر بعضهم ان الحملة التي قادها القديس لويس هي الحملة السادسة اعتبر آخرون ان هذا الملك القديس قد قاد الحملتين السابعة والثامنة.

كان لويس، بالنسبة إلى سائر القواد الصليبيين، أطهرهم قلباً واسماهم خلقاً، بل لقد كانت له شخصيّة القديس الحقيقي كما يذكر مؤرخو الحقبة الصليبية. وكان أول مَنْ قاد حملة صليبية ضد مصر سنة ١٢٤٩، فاستولى على دمياط، في دلتا النيل، على رأس جيشه الفرنسي، ثم قاد جيشه نحو القاهرة. ولكن جيش المماليك التابع للسلطان الأيوبي عاهل مصر، قد قضى على الغُزاة الفرنسيين في معركة المنصورة على طريق القاهرة، وأسر الملك لويس الذي استوجب تحريره ارجاع دمياط ودفع فدية كبيرة.

وفي هذه الحقبة برز خطر جديد مداهم أخذ ينذر بسوء العاقبة، وقد ذر قرنه هذه المرّة من صوب الشرق. إنهم التتر، الذين راحت قبائلهم المغولية تجتاح سورية من الشمال باتجاه الجنوب. ففي سنة ١٢٥٨ استولت هذه الجيوش الزاحفة من مجاهل آسية الوسطى على بغداد فاستسلمت المدينة للنهب والذبح وقُتل فيها أكثر من مائة ألف إنسان، وهُدمت أحياء بكاملها، وقُتل الخليفة العباسي المستعصم بالله، آخر الخلفاء العباسيين (١٢٤٢ ـ ١٢٥٨). وإذ أُلغيت الخلافة العباسية نهائياً، بقيت عاصمتهم بغداد مدينة مدمّرة طوال ما تبقّى من القرن الثالث عشر وكامل القرن الرابع عشر. وفي الموصل شمالي العراق أعلن العاهل الأيوبي خضوعه للمغول. وفي السنة التالية سقطت حلب بعد مقاومة شهرين فنهبها المغول، مما افزع جارتها دمشق التي استسلمت بلا مقاومة بعد أن هرب أميرها الأيوبي نحو الجنوب. ومن هناك اندفع الفاتحون المجتاحون حتى غزه. «وبينما كان الأمراء الأيوبيون، حفداء صلاح الدين، يتنافسون في سورية فيما بينهم على الاستذلال المهين أمام المغول، اتّخذ المماليك الأتراك، في مصر، المبادرة ضد العدو الآسيوي الجديد، وعزموا على المجابهة عسكرياً. وبعد معركتين في فلسطين اندحر المغول على يد ثالث سلاطين المماليك: قطز (١٢٥٩ ـ ١٢٦٠) الملقب بالملك المظفّر الذي أرجعهم إلى ما وراء الفرات[1]».

---

١ ـ بولس، التحولات، ص ٢٩٠

المماليك، جمع مملوك كلمة عربية تعني: عبيداً، أو أرقاء، بشرتهم غير سوداء يتحدرون من أجناس وعناصر بشرية متعددة، كان يؤتى بهم فتياناً من شمال البحر الاسود والقوقاز. وكان معظمهم آسيويين، من أتراك وشركس، اعتنقوا الاسلام في سن مبكرة. استعان بهم الأيوبيون للخدمة العسكرية مثلما استعان العباسيون يوماً بالاتراك السلجوقيين. وكما فعل الأتراك بالعبّاسيّين، فعل المماليك بالأيّوبيّين، فتمكّن بعض زعمائهم من الوصول إلى الحكم، وأسسوا في مصر سلالتي المماليك البحرية والبرجية. فالبحريون (١٢٥٣ ـ ١٣٨٢) اشتراهم أيوب الصالح نجم الدين وانشأ منهم فصيلة الحرس، وأسكنهم جزيرة الروضة على بحر النيل، فدعوا بالبحريين. والبرجيون (١٢٨٣ ـ ١٥١٧) من مماليك السلطان قلاوون. أقاموا في برج قلعة القاهرة فدعوا بالبرجيين.

كان قطز حفيد أيبك الملقّب بالمعزّ، أول سلاطين المماليك البحريين (١٢٥٤ ـ ١٢٥٧) وهو الذي اغتيل بدسيسة شهيرة من شجرة الدرّ، التي كانت والدة السلطان الأيوبي القاصر طوران شاه، وقد قتله المماليك وأجبروا شجرة الدّر على ان تتزوج زعيمهم عز الدين أيبك سنة ١٢٥٤.

عندما دحر قطز المغول سنة ١٢٦٠ في فلسطين وأرجعهم إلى ما وراء الفرات، دخل هذا السلطان المملوكي الثالث في احتفال مهيب إلى دمشق حيث استُقبل كمحرر عظيم. إلاّ أن البطل الحقيقي الذي انتصر على المغول لم يكن السلطان قطز بل كان قائده: بيبرس، ذا الاصل التركماني، وهو قد نشأ عبداً في حضن الدولة الايوبية. وبينما كانت قافلة النصر عائدة من سورية إلى مصر، إنقضّ القائد على السلطان فقتله واغتصب الحكم لنفسه، وأصبح اسمه: الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧). وقد غدا أعظم سلاطين دولة المماليك إطلاقاً، وهو الذي جاء على رأس سلسلة من السلاطين الذين سدّدوا إلى سورية اللاتينية الضربات القاضية الأخيرة، وقضوا تماماً على مملكة كيليكية الأرمنية. ولقد تمكّن بيبرس من إعادة توحيد مصر وسورية ليغدو من ثم قادراً على مواصلة الحرب

المقدّسة، «فشنّ بين سنتي ١٢٦٣ و ١٢٧١ غارات سنوية على معاقل الافرنج حتى خضعت له تباعاً، ومع ان الفرسان الهيكليين والأُسبيتاريّين كانوا معتصمين في حصون منيعة، كانت للدولة اللاتينية بمثابة المتراس، فقد عجزوا عن الصمود لضرباته المتتالية. ففي سنة ١٢٦٣ احتلّ بيبرس الكرك، وهدم كنيسة الناصرة الجليلة. وبعد ذلك بسنتين ظفر بقيصرية على أثر هجوم مفاجئ. وبعد حصار دام أربعين يوماً تسلّم أرصوف من يدّ الفرسان الأسبيتاريّين. وفي سنة ١٢٦٦ القت صفد السلاح وأُبيدت غدراً حاميتها التي بلغت الألفين بعد أن مُنحوا الأمان... وفي ١٢٦٨ سقطت يافة واستسلمت قلعة شقيف أرنون. وأهم من ذلك كلّه ان انطاكية نفسها القت سلاحها. وقد سقط من حامية انطاكية وسكانها ستة عشر ألفاً تحت حدّ السيف، وأسر مایة ألف، فبيع الصبي منهم باثني عشر درهماً والبنت بخمسة. أما المدينة نفسها بقلعتها القديمة وكنائسها الشهيرة فقد جُعلت طعاماً للنار. وهي ضربة لم تصحُ منها انطاكية حتى الآن[1] ».

هدم سقوط انطاكية معنويات الافرنج، فسارعوا إلى اخلاء عدد من الحصون الصغرى القريبة، ثم استسلم حصن الاكراد المنيع بعد حصار قصير لم يدم أكثر من نصف شهر في ربيع ١٢٧١، وهو الحصن الذي حمى لسنين عديدة الممر الواصل ساحل لبنان الشمالي بسورية. وقُهرت حصون مصياف والقدموس والكهف والخوابي التي كانت جميعاً بيد الحشاشين أحلاف الاسبيتاريّين، وكانت تقع في منطقة النصيرية، فسارعت طرطوس، وهي حصن الهيكليين الرئيسي، وقلعة المرأب، وهي بيد الأسبيتاريّين إلى عقد الصلح[2].

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٤٤، بالاستناد إلى: ابن الفرات، التاريخ، نشر قسطنطين زريق، ج ٧، (بيروت، ١٩٤٢)، ص ٨٢؛ المقريزي، كتاب السلوك في معرفة دول الملوك ترجمة كاترمير (باريس ١٨٥٤) ج ١، ق ٢، ص ٢٩ - ٣٠، ٥٢ - ٥٤؛ ابو الفداء، ج ٤، ص ٣ - ٥؛ ابن العبري، ص ٥٠٠.

٢ - راجع: الادريسي، نشر غولد ميستر، ص ١٨ -٢٢.

بموت بيبرس سنة ١٢٧٧ استقر من تبقّى من الصليبيين على قلتهم في ظل الهدنة التي عقدوها مع السلطان الراحل سنة ١٢٧٢ لمدة عشر سنوات. وقد خلف بيبرس سلطانان ضعيفان: بركة خان السعيد ناصر الدين (١٢٧٧ - ١٢٧٩) ثم سلامش العادل بدر الدين الذي لم يحكم سوى أشهر من سنة ١٢٧٩. عقبهما سلطان قوي لا يقل عن بيبرس حمية هو قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) الملقب بالملك المنصور.

جدّد قلاوون الهدنة في ١٥ نيسان (إبريل) ١٢٨٢ مع الفرسان الهيكليين في طرطوس لعشر سنوات وعشرة أشهر. ثم في ١٢٨٥ عقد هدنة مماثلة مع أميرة صور التي كانت بيروت في حوزتها. وحاصر قلعة المرقب شهراً ونيفاً إلى أن استسلمت في ربيع ١٢٨٥ وسيقت حاميتها من فرسان الاسبيتاريّين مخفورة إلى طرابلس التي كانت لا تزال في يد الافرنج. وهذه الأخيرة، وقد كانت أكبر مدينة لا تزال في يد الافرنج، سقطت بعد ذلك بأربع سنوات، ولم يبقَ سوى عكة كموقع حربي مهم في يد الافرنج، وقد مات بيبرس بينما كان يتهيأ للانقضاض عليها. وإذ تسلم القيادة من بعده ابنه الاشرف (١٢٩٠ - ١٢٩٣)، استأنف مهمة أبيه فانقض على عكة في ١٨ آيار ١٢٩١ وفتحها «ولم يراع عهد الامان الذي قطعه على نفسه للهيكليين، بل فتك بهم أشدّ الفتك، وقد غدت المدينة بحكم الزائلة من الوجود[1] ».

كان سقوط عكة بعد سقوط طرابلس ايذاناً بمصير المدن الساحلية القليلة الباقية في أيدي الصليبيين. وفي اليوم الذي سقطت فيه المدينة الفلسطينية الأخيرة، أجلى الصليبيون عن صور اللبنانية. ولم يبقوا في صيدا أكثر من شهرين. ثم انسحبوا من بيروت قبل نهاية تموز(يوليو). وهجروا طرطوس في بداية آب(أغسطس). ولم يبق من الصليبيين سوى الهيكليين الذين صمدوا في جزيرة أرواد حوالى احدى عشرة سنة. فكانوا خاتمة مشهد النهاية من فصل الوجود الصليبي في الشرق.

١ - أبو الفداء، المجلّد الرابع، ص ٢٥ - ٢٦؛ المقريزي، ج ٢، ق ٣، ص ١٢٥ - ١٢٩.

انعكاسات الحروب الصليبية
على المسيحية المشرقية

قد يكون من العسير جداً التمكّن من الاحاطة بجميع الانعكاسات الفعلية التي خلّفتها الحروب الصليبية، إن على المسيحية في الشرق، أم حتى على المجموعات الاسلامية المنشقّة. ذلك ان تلك الحروب كانت متعددة الجبهات بحيث أنه لم تجرِ مع خلافة معينة، أو مع عرق معين، بل هي بدأت مع السلاجقة الاتراك، وانتهت مع المماليك السُنّة، مروراً بالفاطميين الشيعة، وببقايا الخلافة العباسية الرمزية، وبالاتابكة الأتراك، ومن ثم بصلاح الدين وورثائه الايوبيين. وهي كذلك تفاعلت مع شعوب، وتفاعل معها، سلباً وإيجاباً، أي عداوة وتحالفاً، وبحسب الاوقات والظروف، أقوام منهم: المسيحيون البيزنطيّون، والمسيحيون المنشقّون عن الكنيسة الجامعة: أقباطاً ونساطرة ويعاقبة وأرمن... إضافة إلى من تفاعل معها منْ مناصرين ملكيين غربيين وموارنة؛ ومسلمين منشقّين: قرامطة وحشاشين ونصيريين ودروز...

لقد كانت الحروب الصليبية في الشرق عنصر تحويل أساسي في المسار السياسي والاجتماعي والاقتصادي بل والكياني لزمن طويل، لا نبالغ إذا قلنا إنه لم ينتهِ تفاعلاً حتى اليوم. فلولا الوجود الصليبي لما كان صلاح الدين قد وجد نفسه أمام قضية استوجبت ترسله وريادته من أجل توحيد المسلمين في ملّة واحدة وفي قوة واحدة. فإنّ ردة الفعل الإسلامية الوجدانية الكيانية على اجتياح الصليبيين المسيحيين للشرق الذي كان قد استقرّ أكثر من أربعة قرون تحت سيطرة سياسية وعسكرية إسلامية، كانت بمثابة ضخّ قوة جديدة في مسيرة الاسلام الذي كان، عشية وصول الصليبيين إلى القسطنطينية، مفككاً متناحراً بين عروق ومذاهب وخلافات، على أن الخطر المصيري الآتي من مقلب الشمس قد طبّق المقولة المعبّر عنها بالعديد من الحِكم والامثال الرائجة في أوساط مجتمعات هذه البقعة من العالم، وأشهرها إسلامياً: أنصر أخاك ظالماً كان أم مظلوماً.

قبل الصليبيين كانت بيزنطية تشكل، بنظر الاسلام، تلك القوة الخارجية التي اعتُبرت، لزمن طويل، القاعدة المرجع لمن يقاومونها من مسيحيين في مناطق سيطرتهم، غير أن وصول الجيوش الغربية اللاتينية بتلك القوة قد جعل المسلمين، منذ ذلك التاريخ، يمدّون نظرهم إلى ما وراء حدود القسطنطينية. وبانسحاب الصليبيين من هذه الأرض نشأ واقع غاب عن رؤية الكثير من الباحثين، ألا وهو ان ذلك الانسحاب، كان بمثابة تقاسم غير معلن للشرق والغرب، بين المسيحيين والمسلمين: الشرق للمسلمين، والغرب للمسيحيين. عملياً، حققت الحروب الصليبية نتيجة بالغة الاهمية بالنسبة للمسيحية في الغرب، فلقد كان السلاجقة الاتراك، يوم نداء البابا اوربانوس الثاني يهددون الغرب جدّياً، ولقد أزال الصليبيون هذا التهديد تماماً من خلال مهاجمة مصدر الخطر في عقره، ولكنهم ما أن أزالوا الخطر الاسلامي عن أوروبة المسيحية، وحقّقوا الهدف القومي الرئيس، حتى انطفأت فيهم جذوة الجهاد. فالجهاد لم يكن جهاداً للمسيحية بشكل عام، بل كان جهاداً من أجل ايطالية وما وراءها. كان جهاداً قومياً أكثر مما كان جهاداً دينياً، وإلاّ لكان الغرب قد حرص على اجتياح الشرق بقوة ساحقة وليس بحملات متتالية لا يربط بينها أيّة استراتيجية واضحة الابعاد.

هذا الواقع فعل فعله أيضاً في شكل العلاقة بين قوى رومة اللاتينية وقوى القسطنطينية الاغريقية المسيحية والتي أصبحت بيزنطيّة. صحيح ان بداية الحملات الصليبية كانت تحالفاً بين هاتين القوتين، إلاّ أنهما لم تصبحا في يوم من الأيام قوة واحدة، هما لم تبلغا قط درجة الاندماج. حتى في احلك أيام المسيحية بقي هناك قوى بيزنطيّة وقوى لاتينيّة. بقيت هنالك كنيستان، بقي هنالك الامبراطور والبطريركية المسكونيّة في القسطنطينية. والبابا في رومة. بقيت المسيحية مشرذمة. بقي الصراع الخفي ليفعل فعله بينهما. بينما توحّدت القوى الاسلامية الرئيسية تحت لواء: لا إله إلاّ الله، واذا أشترك «المشركون» في واقعة، أو معركة، أو حقبة، فإن الصليب بقي صلباناً: قبطياً ويعقوبياً وأرمنياً ونسطورياً وملكياً

وأريوسياً ومانوياً ومارونياً وبيزنطياً ولاتينياً... عداك عن طوائف تشرذمت بين خلقيدونية ومشيئة واحدة ومشيئتين وطبيعة واحدة وطبيعتين ومريم أم الله ومريم الامرأة العادية والفطير وعماد التائبين ولقب البطريرك والأيقونات وإلى ما هنالك من بدع واستقامات وما يضحك الباحث أو يبكيه بحسب انتمائه العقدي.

حتى ان الصليبيين اللاتين قد انقسموا بعضهم على بعض، فتحارب البنادقة مع الجنويين، وقضى آل بليولوغس على الامبراطورية الصليبية في القسطنطينية، وتناحر الاقطاعي مع الاقطاعي والامير مع الامير والاميران مع الملك. تناحروا وتقاتلوا وهم مخيّمون في مرجة تحيط بها غابات الاعداء... تقول لنا المدوّنات ان الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧)، أحد كبار دَقِّ الوتد في التابوت الصليبي، قد تحالف، أو على الأقل قد تمكّن من إيجاد علاقة ودّية، مع ميخائيل الثامن امبراطور الروم (١٢٥٨ - ١٢٨٢)، وبذلك قهر الأخير اللاتين في القسطنطينية واتفق الاثنان بناء على رغبة بيبرس، على «ان يبقى ميخائيل مُضيّقاً على اللاتين، ومُنفتحاً على بيبرس وعلى القباجقة، بني جنسه، لتتمّ الصلة بين مصر وجنوب روسية عن طريق البحر... فوافق الامبراطور بليولوغس ميخائيل الثامن على اقتراح بيبرس، وأزوج خان القباجقة من ابنته - غير الشرعية - وفتح المضايق للمماليك، مقابل اقامة بطريرك أورثوذكسي في الاسكندرية سنة ١٢٦٢. ثم حالف هذا الامبراطور القسطنطيني، السلطان المصري الايوبي للصمود في وجه القائد الصليبي كارلوس أنجو[١]». هذا الامبراطور كان الامبراطور العاشر على القسطنطينية بعد ألكسيس الاول (١٠٨١ - ١١١٨) الذي كان استنجاده ببابا رومة العامل الاساسي في مجيء الصليبيين إلى الشرق، وها هو ميخائيل يتعاهد مع اعداء الامس الذين استنجد سلفه بالصليبيين لانقاذ المسيحية من قوتهم، ويخطط معهم لإزالة الصليبيين من الشرق، وللعودة بالوضع إلى ما كان عليه يوم الاستنجاد بهم.

١ - رستم: كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٢، ص ٣٣٧، مرجعه: Dolger F., Reg. 1902 - 2052

يعتبر مؤرخو الروم ان هذا التحالف الذي حصل بين السلطان المسلم بيبرس والامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن، والذي دفع الأول وقبض الثاني ثمنه اقامة بطريرك أورثوذكسي في الاسكندرية سنة ١٢٦٢، «هو الذي هيّأ الجو لبيبرس من أجل محاربة الصليبيين[١]»، فقام في السنة التالية «على رأس جيش قوي وهاجم الناصرة، فاستولى عليها وخرّب كنيستها وشاهد خرابها وقد سوّيت بها الأرض، واغار على عكة فغنم في ضواحيها[٢]». «ثم جال سنة ١٢٦٥ جولة ثانية فاستولى على قصيرية فلسطين ودكّ أبراجها وخرّب حصونها وأبنيتها. وما لبث ان أسقط أرسوف، وأن دخل حيفة منتصراً وبطش فيها بطشاً[٣]». وهكذا كرّت حروبه إلى نهايتها. وعندما كان بيبرس، لدى استسلام انطاكية، يقتل وينهب في المدينة التي لم يسلم منها سوى بضعة آلاف التجأوا إلى القلعة، ولدى استسلامهم جرى بيعهم بأبخس الاثمان نظراً لكثرتهم، فبلغ ثمن الصبي اثني عشر درهماً، وثمن البنت خمسة دراهم[٤]، لم يميّز إطلاقاً بين ما هو بيزنطي وما هو لاتيني! وعندما هجر رؤساء الدين الناجون انطاكية المدمّرة لم يتّجهوا إلى القسطنطينية بل إلى دمشق مركز السلطة الاسلامية في البلاد، وذلك بموجب الاتفاق الذي حصل بين الامبراطور ميخائيل الثامن وسلطان المماليك بيبرس في أمر بطاركة الكرسي الانطاكي، «فاعترف السلطان برئاستهم وسمح بانتقالهم من انطاكية إلى دمشق[٥]».

ان ما يدعو إلى العجب في هذه التطورات ان الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني، الذي تحالف مع المماليك ضد اللاتين في الشرق، كان في الوقت نفسه

١ - رستم: كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٢، ص ٣٣٧

٢ - ابو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٧ - ٢١٨

٣ - Barhebraeus, Assemani, Bibl. Orient, III. PP. 444 - 445; Vartan, (Dulaurier) Journ. asiatique (1860), PP. 205 - 206

٤ - Aini, Perles d'Histoire, (Rec. Hist. Crois.) Vol. II, 229 - 234; Barhebraues, P. 448

٥ - Eccelesia Ierosolemon, Anon. 42

يسعى بقوة من أجل التوصل إلى اتحاد بين الكنيستين اللاتينية والبيزنطية. فبينما كان ميخائيل يحارب اللاتين في عاصمته القسطنطينية كان، على خط آخر، يفاوض البابا اسكندر الرابع (١٢٥٤ ـ ١٢٦١) في موضوع الاتحاد. بيدَ أن ميخائيل سيطر على القسطنطينية قبل أن يحصل أي تقدّم في شأن الاتحاد[1].

من شأن متابعة قصة محاولات ميخائيل الثامن في شأن اتحاد الكنيسة من خلال اتصالاته برومة، ان تدلّ بوضوح على أنّ الامبراطور البيزنطي كان يضع هدفاً واضحاً لسياسته، وهو سيطرة البيزنطيين على الممالك اللاتينية في الشرق، أو على الأقل على كنائس الشرق. فبعد سيطرته على القسطنطينية سالم المغول في آسية ليتسنّى له فرض سلطته على ممتلكات الروم في البلقان. وإذ كان البابا اسكندر الرابع قد توفي، وخلفه أوربانوس الرابع (١٢٦١ ـ ١٢٦٤) وحاول البابا الجديد تنظيم حملة صليبية أخرى على القسطنطينية لاستعادتها من يد البيزنطيين، سارع ميخائيل إلى مفاوضة البابا في أمر الاتحاد، مما جعل الحبر الروماني يعدل عن مشروع الحملة. وكاد الاتفاق يتمّ بين البابا، والامبراطور الداهية، لكن وفاة البابا سنة ١٢٦٤ حالت دون ذلك.

خلف أوربانوس الرابع متسنّماً كرسيّ البابوية كليمانص الرابع (١٢٦٥ ـ ١٢٦٨) وكان هذا الأخير أشدّ اندفاعاً من الذين سبقوه في إعادة إحياء الامبراطورية اللاتينية في الشرق. وقد صارح كليمانص الامبراطور ميخائيل، مهدّداً، بأنه لا يعِد بعدم ارسال حملة صليبية جديدة قبل خضوع الامبراطور هو وكنيسته لسلطة رومة[2]. وبالفعل راح هذا البابا يشجّع ملوك ايطالية على العمل الحربي في الشرق، وانتزع من بودوان الثاني تنازلاً عن حقوقه في عرش القسطنطينية اللاتيني إلى كارلوس أنجو ملك صقلية، أمام البابا في فيتيربو

١ ـ Janain R., les sanctuaires de Byzance sous la domination latine (études bizantines, 1945) PP. 134 - 184; Norden W., Das papsttum und byzanz, F., PP. 382 - 383

٢ ـ Dolger F., PP. 1943 - 1947

Viterbo وإذ خشي ميخائيل الثامن سوء العاقبة سارع إلى مفاوضة البابا في شأن الاتحاد، لكن اقليموس كان قد أدرك أهداف الامبراطور فتصلّب في موقفه فارضاً اعلان الانصياع لكنيسة رومة قبل البحث في أي موضوع آخر. لكن الأقدار شاءت أن يفارق هذا البابا الحازم الحياة في خريف سنة ١٢٦٨. كما شاءت أن يقع ارتباك في رومة بسبب انقسام الكرادلة الذي أدّى إلى شغور السدة البابوية مدة سنتين وتسعة أشهر. وإذ فقد ميخائيل المرجعية في رومة راح يفاوض ملك فرنسة لويس التاسع (١٢١٤ ـ ١٢٧٠) راجياً «وضع حدّ لمطامع أخيه كارلوس انجو في ممتلكات الروم[1]». وقبل أن يتفق الكرادلة ويُجلسوا على الكرسي الروماني غريغوريوس العاشر سنة ١٢٧١، كان لويس التاسع قد توفي قبل سنة دون ان تزول أهداف كارلوس في استعادة القسطنطينية.

كان غريغوريوس من الذين أدركوا حقيقة المخاطر المهدّدة بانهيار الامارات اللاتينية في الشرق، لأنه يوم انتُخب بابا، كان في فلسطين، فراح يعمل على مختلف الجبهات من أجل درء ذلك الخطر. ففاوض التتر في محاربة المسلمين، وحضّ الأمير ادوارد البريطاني على تنظيم حملة صليبية جديدة. ومرّ، وهو في طريقه من فلسطين إلى رومة، بالقسطنطينية حيث التقى الامبراطور ميخائيل وأظهر له استعداده للعمل الجدّي في سبيل اتحاد الكنيستين. وبينما أكمل غريغوريوس طريقه إلى رومة، سارع ميخائيل إلى دعوة الاساقفة والأشراف والوجهاء إلى اجتماع عام، شرح بخلاله الخطر المحدق ببيزنطية، وأعرب عن إيمانه بضرورة الاستعانة بالغرب. لكن موقف الامبراطور قوبل بمقاومة شديدة ومكابرة عنيدة من قبل المجتمعين، لا سيما من البطريرك والاساقفة وبعض أعضاء الأسرة المالكة. ولم يتمكّن ميخائيل من إستمالة سوى بعض علماء اللاهوت وعدد قليل من الأساقفة[2].

وإذا ما تابعنا تلك التطورات نجد ان تحالف ميخائيل مع بيبرس في الشرق لم

١ ـ رستم: كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٢، ص ٣٢٦، مرجعه: Ibid, 1968. 1971.

٢ ـ المرجع السابق، مرجعه: Brétier L., Byzance, P. 398

يكن سوى نتيجة تخوّف الامبراطور، لا بل تأكده، من قرب سحق المسلمين للصليبيين، فحاول من خلال ذلك التحالف ان ينقذ ما يمكن انقاذه من كنائس الشرق. ان الداعي لهذا الاستنتاج هو ان ميخائيل قد لبّى البطريرك غويغوريوس إلى مجمع في ليون ربيع سنة ١٢٧٤، وجاء المدينة الفرنسية وفد بيزنطي أعلن خضوع كنيسة بيزنطية لسلطة رومة العظمى، وأكّد استعداد الامبراطور للاشتراك في حملة صليبية جديدة[1].

ردّة الفعل على خضوع الامبراطور لسلطة رومة العليا في القسطنطينية، كانت عنيفة. فاستقال البطريرك يوسف الأول احتجاجاً، وقرّعت شقيقة الامبراطور أفلوجية أخاها، وضجّ الامراء، والتأم مجمع أورثوذكسي لتوبيخ الامبراطور الذي، رغم ذلك كلّه، واظب على الاتحاد حتى وفاته[2].

خلف البابا غريغوريوس بعد وفاته سنة ١٢٧٦ أربعة باباوات بخلال أربع سنوات كان آخرهم نيقولاوس الذي توفي سنة ١٢٨٠، وقد سار الباباوات الأربعة على خطى غريغوريوس. ولكن بموت البابا نيقولاوس الثالث سنة ١٢٨٠ وبموت ميخائيل الثامن سنة ١٢٨٢، وإذ كانت تدابير تثبيت الاتحاد قد تعرقلت بسبب تسارع موت الباباوات من جهة، وبسبب الخلافات العنيفة داخل القسطنطينية من جهة ثانية، وبوصول مارتينوس الرابع (١٢٨١ ـ ١٢٨٥) إلى السدّة الرومانية من جهة، ووصول اندرونيكوس إلى السدّة الامبراطورية البيزنطية سنة ١٢٨٨، وقيام عمته افلوجية بتحريضه على فسخ الاتحاد، سقط حلم الاتحاد بين الكنيستين، مما أسقط حلم تثبيت ركائز الامبراطورية المسيحية في الشرق، وأُعيد تنظيم الحكم والكنيسة في القسطنطينية بشكل معاد للاتين[3]، لتأخذ الاحداث مجراها الذي اخذته.

١ ـ Grumel V., Concile de Lyon et la réunion de l'église grecque, Ibid, Col. 1391 - 1410; Norden, W., Papsttum, PP. 520 - 615

٢ ـ Grumel V., En Orient après le concile de Lyon, (Echos d'Orient, 1925), PP. 321 - 322; Rouillard G., Politique de Michel VIII, (Etudes bizantine, 1944) PP. 73 - 84

٣ ـ Nicephorus gregoras, Ist., VI, 1 - 2

كان للحروب الصليبية، عملياً، نتائج مناقضة تماماً للهدف الذي كانت من أجله تلك الحروب أساساً. فلقد جاء الصليبيون إلى الشرق تحت شعار الصليب وبهدف حماية المسيحيين والمسيحية فيه،ولكن بانعطافهم عن أهدافهم، أو بالاحرى عن الأهداف التي أرسلوا من أجلها، انتفى الجامع بينهم، فكانت الخلافات لا بل المنازعات فيما بينهم التي زادت في زعزعة مملكتهم الغريبة إلى أن انهارت تماماً. وبذلك كان على مسيحيي الشرق أن يتحملوا وزر الاحقاد التي خلّفها الافرنج في قلوب المسلمين. ولقد انصبّ الحقد والكره اللذان ولدتهما الحروب الصليبية على النصارى من أهل البلاد، وعلى تلك الاقلّيات المسلمة المنشقّة عن السنّة بحجة ان بعضها قد ساند «الكفار» بحسب الافتاءات التي صدرت في ذلك العصر. وبالاجمال «فان عواقب الحملات الصليبية على الشرق كانت مفجعة. فقد خشي المماليك رجوع الافرنج، إذ كان بعضهم قد تحوّل إلى جزيرة قبرص، فعمدوا إلى تخريب المرافئ[1]».

فبينما يذكر الرحالة ابن جبير (١١٤٥ ـ ١٢١٧) أن عكة، بعد صور كانت أشد المدن ازدهاراً في سورية الافرنجية، «وقد كانت مدينة منقطعة النظير بحصونها[2]»، يذكر رحالة آخر زار المنطقة بعد الاول بقرن من الزمن انها كانت خراباً يباباً[3].

وقد يكون ابن بطوطة[4] أفضل من أعطى صورة عن وضع المنطقة إثر تحريرها

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٥٩؛ راجع: ابو الفداء، التقويم، ص ٢٣٩؛ ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج ٢١، ص ١٢٩ ـ ١٣٠؛ قابل: الادريسي، نشر غولد ميستر، ص ١١

٢ ـ محمد بن أحمد ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٣٠٤

٣ ـ ابو الفداء، (١٢٧٣ ـ ١٣٣٣)، تقويم البلدان، ص ٢٤٣

٤ ـ ابن بطوطة، (محمد بن عبد الله) (١٣٠٣ ـ ١٣٧٧): ولد في طنجة. رحّالة طاف في أنحاء العالم المعروف واستغرقت رحلاته الثلاث زهاء ٢٩ سنة زار خلالها مصر والشام وفلسطين والحجاز والعراق وبلاد العجم وجنوبي بلاد العرب وافريقية الشرقية وبلاد آسية الصغرى والقرم والقسطنطينية وبلاد خوارزم وما وراء ڤولغا وبخارى وافغانستان والهند والصين وبنغال والهند الأقصى. ثم رجع إلى بلاد العرب عن طريق جزيرة سومطرة وعاد إلى المغرب ثم إلى غرناطة. وقادته رحلته الثالثة إلى بلاد الزنج. له: «تحفة النظّار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار» المعروفة برحلة ابن بطوطة. ترجمت إلى الفرنسية والانكليزية والالمانية.

من الافرنج، فيذكر ان عسقلان كانت خراباً، وكذلك مدينة عكة، وصور، وطبرية «التي كانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها إلاّ رسوم تنبئ عن عظمتها[1] ».

وهكذا أصبحت جميع مدن الشاطئ الواقعة بين عسقلان وطرابلس خراباً أو ما يشبه الخراب[2].

وامعاناً في سياسة التخريب، عمد سلاطين المماليك إلى تدمير لبنان تدميراً منظّماً بعد ان عملوا ببعض النصوص الشرعية القديمة وباجتهادات لفقهاء مسلمين سنّة، فضيّقوا على النصارى واوجبوا الحدّ من نفوذهم، كما أنهم أحدثوا تدابير جعلت المسلمين المُنشقّين يتساوون مع المسيحيين في المقاساة. ففي سنة ١٢٧٧ هدم العامل المملوكي في القدس كنيسة القيامة «وقتل قسيسها بيده وحوّلها إلى زاوية اسلامية. كما هدم المماليك كنيسة الروم في الاسكندرية التي كانت مقرّاً بطريركياً يعتقد الاورثوذكس ان رأس يحيا بن زكريا[3] مدفون فيها ثم جعلوها مسجداً وأطلقوا عليها اسم المدرسة الخضراء[4] ».

وإذ حقد المماليك على نصارى الرها وانطاكية بسبب التأييد الذي أبداه هؤلاء للصليبيين، عمدوا إلى ابتزاز جميع أموال مسيحيي القدس وسلعهم، وعملوا على تشريدهم مستثنين العاجزين والمرضى والنساء والاطفال[5]. وفي العام ١٢٩٩ أصدر السلطان المملوكي قلاوون (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠) مراسيم تُحرّم على النصارى من رعاياه تولي الوظائف الحكومية. وعمد خليفته السلطان الناصر محمد بن

١ ـ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، طبع وترجمة: Defrémery C. and sanguinatti B. R., (Paris 1893) I, PP. 126 - 132

٢ ـ راجع: ابو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٣٩

٣ ـ يحيا بن زكريا في المراجع الاسلامية هو اسم ليوحنا المعمدان

٤ ـ النويري، نهاية الأدب، طبعة باريس، ج ٢٩، ص ٩٨

٥ ـ William of Tyre, Vol. I, P. 334

قلاوون (١٢٩٣ ـ ١٢٩٤) إلى تطبيق التدابير القديمة التي أوجبت على أهل الذمّة من مسيحيين ويهود أن يرتدوا ملابس خاصة يعرفون بها، وان يمتنعوا من ركوب الخيل والبغال. كذلك فعل الناصر الثاني الحسن ابن الناصر محمد (١٣٤٧ - ١٣٥١) الذي زايد على جدوده فأمر بإلغاء عيد قومي من أعياد القبط، وأقفل الكثير من كنائس النصارى في مصر[1].

وكان اللاتين قد منحوا موارنة لبنان جميع الحقوق الكنسية والمدنية التي كانت لأبناء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. تلك الامتيازات جعلت المماليك يخصّصون هذه الطائفة المسيحية بامتيازات من نوع آخر، فجرّدوا سنة ١٢٨٣ حملة عسكرية ضدّ معاقل الموارنة في بشري واهدن وحدث الجبة من أعالي لبنان الشمالي وخرّبوها[2]. وقد أصدر السلطان قلاوون منشوراً إلى عامله في دمشق أقوش الافرم، وإلى عامله الآخر في طرابلس أسندم، وإلى أمراء الغرب التنوخيين ليشنّوا حرب إبادة على منطقة كسروان التي كان يقطنها مسيحيون وشيعة ونصيرية، وأطمعهم «في أن مَنْ نهب امرأة كانت له جارية، أو صبياً كان له غلاماً، ومن أتى منهم برأس مقتول كان له ديناراً[3] ». فكانت الحملات العسكرية التي تعرّضت لها كسروان من أعنف الحملات التي تعرّض لها لبنان ومن أشدّها فتكاً وخراباً، وقد توافقت مع افتاء ابن تيمية، مُفتي دولة المماليك واحد أعظم فقهاء عصره، بأن الدروز والنصيرية ليسوا مسلمين، وانهم دون النصارى مرتبة ويجب إبادتهم[4]. واشترك ابن تيمية نفسه في هذه الحملة. وبالرغم من المقاومة العنيفة التي أبداها المسيحيون، كما الاقليات الدينية المنشقّة، والتي مكّنتهم من

١ ـ المقريزي: كتاب السلوك في معرفة دول الملوك، ترجمة كاترمير (باريس، ١٨٥٤)، ج ١، ص ٦٩

٢ ـ البطريرك اسطفانوس الدويهي، تاريخ الازمنة، مجلة المشرق، المجلد ٤٤ (سنة ١٩٥٠) ص ١٤٥ - ١٤٦

٣ ـ راجع: الخوري منصور الحتوني، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية (الطبعة القديمة) ص ٤١ وما يليها.

٤ ـ صلاح الدين المنجد، ولاة دمشق في العهد العثماني (دمشق ١٩٤٩) ص ٦ ـ ٧

الصمود في وجه حملة الابادة زهاء خمس سنوات، جاءت المعركة الفاصلة سنة ١٣٠٧ التي انتهت في عين صوفر حيث أباد جيش المماليك البالغ عدده حوالى خمسين ألف مقاتل، زهاء عشرة آلاف كسرواني، كان معظمهم من الدروز، وخرّبوا بلادهم، وقطعوا أشجارهم، وذبحوا نساءهم وأطفالهم، وتقاسمت ثلاثمئة عائلة تركمانية المنطقة الساحلية الواقعة شمالي بيروت إلى جنوبي طرابلس كإقطاعات بينها[1].

بنتيجة تلك الحملات العنيفة لم يبق بلدة واحدة مأهولة في المنطقة الواقعة جنوبي جبيل ابتداء من نهر ابراهيم حتى مشارف بيروت امتداداً إلى النهر المعروف باسمها. وقد اباد المماليك كل من كان بوسعه القتال من الموارنة، أما النساء والاطفال والعجز فقد رحلوا إلى قبرص حيث نشأت جالية مارونية لا تزال في الجزيرة حتى اليوم.

لم تقتصر محاربة المماليك للمسيحيين على الموارنة، بل هي شملت كل من رسم على وجهه شارة الصليب. ولم تقتصر مدّة الاضطهاد على حقبة ردة فعل قصيرة بل هي امتدّت على مدى زمن حكم المماليك. وقد عانى مسيحيو مصر الامرّين في تلك الحقبة سواء كانوا من الاورثوذكس أو من الاقباط المونوفيزيين. ومن المدونات انه في سنة ١٣٦٤ «ورد الخبر بمنازلة الفرنج مدينة الاسكندرية، فلوحق النصارى، وأحضر البطريق والنصارى. وأُلزموا بحمل أموالهم لفكاك أسر المسلمين. وكُتب بذلك إلى البلاد الشامية[2]». وفي سنة ١٤٤٢ «ختم على كنائس النصارى الملكيّين في مصر لأنه وُجد داخلها أعمدة كدان من الحجارة المنحوتة... وحصل على جميع أهل الطوائف من أهل الذمّة من الأهانة والتغريم ما لا مزيد

١ - راجع: ابراهيم عوّاد، لبنان في عهد المماليك، المشرق، مجموعة ١٩٤٢ المجلد ٤٠، ص ١٦ - ٢١؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، المشرق، المجموعة ١٩٥٠ المجلد ٤٤، ص ١٦٠ - ١٦٤؛ صالح بن يحيا، تاريخ بيروت، ص ٣٢ - ٣٣، ١٠٠ - ١٠١

٢ - المقريزي، السلوك، ص ٤٦ - ٤٧

عليه[1]». وفي سنة ١٤٤٥ أمر الملك الظاهر سيف الدين جقمق (١٤٣٨ - ١٤٥٣) بهدم جدار كنيسة الملكيين في القاهرة «لأن جدارها عال على مسجد يجاورها وأنه يجب هدمه[2]». وبعد سنتين أمر السلطان بهدم تلك الكنيسة، وهي الواقعة بقصر الشمع، وأمر ببيع انقاضها، ليُبنى بثمنها مسجد في مكانها[3]. وعندما توفي السيد أحمد بن حسن بن علي الشافعي الشهير بالنعماني سنة ١٤٤٨، كان قد أسلم على يده ثمانون كافراً، أي مسيحياً. ولم يبق في قصر الشمع ولا في دموة (الجيزة) ولا في المدينة كنيس لليهود ولا كنيسة للنصارى إلاّ وقد شملها من السيد إما هدم، وإما بعض هدم، وإما ازالة منبر، أو أيقونة أو حجاب أو هيكل[4].

لم يكتف السلطان جقمق بكل هذا، بل «جهز خاصكياً اسمه اينال باي... فحضر إلى القدس الشريف بمرسوم من الملك الظاهر بالكشف على الديارات وبهدم ما استجد بدير صهيون وغيره. وانتزاع قبر داوود من النصارى. فهُدم البناء المستجد بصهيون، وأُخرج قبر داوود من أيدي النصارى، ونُبشت عظام الرهبان المدفونين بالقبو الذي به قبر داوود... وكان ذلك اليوم مشهوداً. وفي تلك السنة وقع البطش بالنصارى، فأُخرج المسجد من دير السريان وسُلّم للشيخ محمد المشمر وصار زاوية. وهُدم البناء المستجد ببيت لحم وبالقيامة، وقُلع الدرابزين الخشب... وأُخذ إلى المسجد الأقصى بالتكبير والتهليل. وكُشفت جميع الديارات وهُدم ما استجد بها[5]». وقد اعتبر المؤرخ المسلم ان تلك الاعمال التي جاد بها السلطان سيف الدين جقمق في أواخر عهده جعلته مؤهّلاً لأن «يختم الله أعماله بالصالحات وإزالة الديارات المنكرات[6]».

١ - ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر بأنباء العمر، طبعة باريس، ص ٢٦١

٢ - المرجع السابق، ص ٢٦١ - ٢٧٥

٣ - السنحاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص ١٨٠ - ١٨٢

٤ - المرجع السابق، ص ٢٢٧ - ٢٢٨

٥ - مجير الدين الحنبلي، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ص ٤٤٣ - ٤٤٤

٦ - المرجع السابق

أما بالنسبة لأقباط مصر فقد اعتبر مؤرخوهم أن عهد السلاطين المماليك كان كارثة على النصرانية، وذكروا ان هؤلاء المماليك قد رتّبوا مصير الاقباط حسب هواهم، وكان بإمكانهم ابتزاز أموال الأقليّة بسهولة دون ان يخشوا من قيامها بأية حركة[1]. وعلى العموم، لم ينته عهد المماليك (سنة ١٥١٧) إلاّ وكانوا قد تمكّنوا من عدم ابقاء كنيسة واحدة في مصر لم يلحقوا بها الضرر[2].

***

في هذه الاثناء كان رجال الفكر المسيحي في الغرب قد اقتنعوا باخفاق الوسائل العسكرية في معاملة المسلمين بعد أن كان بعض الروّاد منهم قد دعا منذ أواسط القرن الثاني عشر إلى تركيز الاهتمام على الوسائل السلمية، وخاصة التبشيرية منها. من هؤلاء أحد الصليبيين الذي أسس سنة ١١٥٧ الاخوية الكرملية، نسبة إلى جبل الكرمل الفلسطيني، ولا تزال هذه المؤسسة عاملة في الشرق حتى اليوم. كما نشأت في أوائل القرن الثالث عشر اخويتان رهبانيتان: الفرنسيسكان والدومينيكان، وقد انشأ كل من هذه الاخويات فروعاً له في العديد من مدن الشرق. وقبل نهاية ذلك القرن كان للفرنسيسكان في بيروت كنيسة كبيرة. أما مؤسس الأخوية الفرنسيسكانية فهو القديس فرنسيس الأسيسي[3]، الذي زار سنة ١٢١٩ بلاط الأيوبيين في مصر، حيث أجرى مناقشة مع السلطان الكامل الاول محمد بن أحمد (١٢١٨ ـ ١٢٣٨)، تركّزت على المواضيع الدينية، ولكنّها كانت في النتيجة عقيمة. غير أنّ الرهبانية الفرنسيسكانية التي انصرف رهبانها إلى التعليم والتبشير في المدن، حيث نشّطوا الحياة الروحية في

١ ـ جاك تاجر، أقباط ومسلمون، (Jersey 1984)، ص ١٧٢ وما يليها
٢ ـ السنحاوي، التبر، ص ٣٦
٣ ـ فرنسيس الاسيسي أو الأسيزي، (١١٨٢ ـ ١٢٢٦): قديس، مؤسس رهبانية الفرنسيسكان. ولد في أسيزي وفيها توفي. امتاز بتواضعه وروح البساطة والفرح وحبّه للفقر. كان أثره الديني كبيراً في الغرب طوال القرون الوسطى

العلمانيين، قد استمرت في تقدّم. فقد كان رهبانها في الشرق هم «حرّاس الاراضي المقدسة» حطّوا في القدس سنة ١٢٢٩ ـ ١٢٤٤، ودمياط سنة ١٢٤٩، والقاهرة سنة ١٣٢٠، وبيروت سنة ١٤٤٠، وحلب سنة ١٥٧١، وطرابلس لبنان سنة ١٥٨٢، والناصرة وصيدا سنة ١٦٣٢.

أما الدومينيكان فهي الرهبانية التي أسسها عبد الأحد أو القديس دومينيك[1] سنة ١٢٠٦، كان أعضاؤها أرباب التعليم الفلسفي واللاهوتي في القرون الوسطى. وقد كتب أسقف دومينيكاني هو وليم الطرابلسي، رسالة من أوفى رسائل العصور الوسطى بشؤون المسلمين، مبيناً النقاط التي يتّفق فيها الاسلام مع المسيحية، موصياً باستخدام المرسلين بدلاً من الجنود لاستعادة البلاد المقدسة. وكان وليم الطرابلسي، كزميله وحامل اسمه وليم الصوري، مولوداً في هذا البلاد ولكن من أبوين أوروبيين. غير أن توصية وليم الطرابلسي لم تتحقّق قبل القرن السابع عشر، إذ دخل الدومينيكان البلاد الشرقية، ثم أسّسوا إكليريكيّه الموصل سنة ١٨٨٢ وكانت لهم فيها مطبعة عربية شهيرة. ولهم في القدس مدرسة الكتاب المقدس.

وكان الكاهن القطلاني ريموند لال المتوفي سنة ١٣١٥ أول أوروبي شدّد على أهميّة الدراسات الشرقية كأداة فعّالة لنضال سلمي يعتمد الاقناع وسيلة بدلاً من الاكراه. وكان ريموند «قد تعلّم العربية على يد عبد، ثم اشتغل في تعليمها. وبتأثيره جرى الروح الصليبي في مجرى جديد هو اقناع المسلمين باعتناق المسيحية بدلاً من محاولة ابادتهم[2]».

إلاّ أن المماليك قد واجهوا الارساليات بتقييد شديد. وفي كتاب البراءة الذي

١ ـ عبد الأحد أو دومينيك Dominique (١١٧٠ ـ ١٢٢١): قديس ولد في قشتالة ـ اسبانية. أسّس رهبانية الدومينيكان أو الاخوة الواعظين لمقاومة بدعة الألبيجيين.
٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٦٣

أرسله السلطان إلى بطريرك الملكيين الروم، ينبّهه ألاّ يقابل الأجانب وألاّ يستضيفهم، لا سيما اذا كانوا من المشتبه بهم، وألاّ يراسل حاكماً أو ملكاً في دولة أجنبية. وقد أرسل تنبيهاً مماثلاً إلى بطريرك اليعاقبة[1]. وفي الاطار نفسه انقطعت الرسائل بين رومة وبطريرك الموارنة الذي استمرّ طيلة عهد المماليك ينقل مقره من قرية إلى أخرى نظراً للحالة القلقة التي كانت سائدة[2]. ولكن بالرغم من هذا كله ظلّ الموارنة في شمالي لبنان يمارسون نوعاً من الاستقلال الداخلي بقيادة رؤسائهم: المقدمين[3]، الذين كانوا: «يجمعون الضرائب وينشئون المحاكم القضائية لإجراء العدل. وكانت الأمور التي تتعلّق بالاحوال الشخصية تُترك للمحاكم الروحية التي كان الاكليروس يقضي فيها[4]».

***

لم تنجح محاولات المماليك في إبادة الطوائف المسيحية كما انها لم تنجح في إبادة الطوائف المنشقّة عن الاسلام، على أنها أضعفت تلك الطوائف جميعاً «وقد وجّهت هذه السياسة انظار السكان، في شمالي سورية وفي لبنان وفلسطين التي ظلّت زمناً طويلاً تحت الحكم الاوروبي، وفي الدرجة الاولى الافرنسي، إلى الغرب[5]». وكما كانت ردّة الفعل ضدّ الاوروبيين عميقة في سلبيتها لدى انكسار هؤلاء على أيدي المماليك، كذلك ستكون ردّة فعل الطوائف التي عانت من ظلم المماليك سلبية بعمق، وستوجه أنظار تلك الأقلّيات نحو الغرب حتى بعد زوال حكم المماليك وطوال-مدة حكم خلفائهم: العثمانيين.

---

١ - العمري، التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢) ص ١٤٥ - ١٤٦

٢ - Dib P., l'Eglise maronite (Paris 1930), PP. 156 - 219

٣ - راجع: طنوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ٢٠١ - ٢٢٣

٤ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤

٥ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٣٩٩.

الفصل الثاني عشر

القسطنطنية عاصمة... السلطنة العثمانيّة

- «عمائم الشيوخ ولا تيجان الكرادلة»
- المسيحيّة في نصف الألف العثماني
- الكنيسة السريانيّة
- الأشوريون والكلدان
- الكنيسة الأرمنيّة
- الكنيسة المارونيّة
- الكنيسة القبطيّة
- الكنيسة البروتستانتيّة

«عمائم الشيوخ ولا تيجان
الكرادلة»

الترك: ظهرت، كلفظة، لأول مرة، اسماً لأقوام من بداة آسية الوسطى في بداية القرن السادس، كانت قبائلهم تقيم بين بحر آرال[1] وجبال ألتائي[2]، وتُقسم إلى ثلاثة فروع: الويغور والكرلوك والأغوز أو الغز، نزح بعضها شرقاً وبعضها غرباً إلى ما وراء نهر جيحون[3]. إلى أن تمكّنت من انشاء دويلات بدويّة انتشرت في منغوليا وحدود الصين الشمالية حتى البحر الأسود، «وكما عاش الاعراب على الجمال كذلك عاش الاتراك على الخيل، فشربوا ألبانها وأكلوا لحومها وامتطوها في طلب النصر. وقد استخدموا الركاب والقوس والنبال، وكانت الميزة التي تفوّقوا بها على خصومهم سرعة الانتقال. كان أول اتصالهم بالشعوب الهندية الأوروبية في تركستان[4]. وفي هذا البلد واجههم العرب الفاتحون للمرة الأولى في القرنين السابع والثامن، وعندما بلغ آسية الصغرى بعد ذلك من عُرف منهم بالعثمانيين، وجدوا البلاد قد تترّكت جزئياً على يد أنسبائهم السلاجقة[5]. ويعود السلاجقة والعثمانيون بالنسب إلى قبيلة الغز، أو الاتحاد القبلي المعروف بهذا الاسم. أما المؤسس الذي نُسبت إليه السلالة العثمانية فزعيم شبه تاريخي اسمه عثمان[6]،

---

١ - بحر آرال، أو بحر خوارزم Aral: بحيرة مالحة في تركستان الغربية (الاتحاد السوفياتي سابقاً) يصبّ فيها نهرا سيرداريا وامورداريا

٢ - ألتائي Altaï: سلسلة جبال في آسية الوسطى بين روسية والصين، فيها معادن الذهب والفضة. يبلغ ارتفاعها ٤٥٢٠ متراً

٣ - نهر جيحون، أو أمودريا Amou-daria، طوله ٢٥٤٠ كيلومتراً. هو اكسس القديم، نبعه من جبال بامير (الهند)، يجتاز آسية السوفياتية، ويصبّ في بحر آرال (راجع آرال أعلاه).

٤ - تركستان: منطقة في آسية الوسطى بين سيبيريا وبحر قزوين وإيران وافغانستان والهند ومنغوليا. هي منقسمة بين الصين والاتحاد السوفياتي سابقاً. دخلها المسلمون ابتداء من ٧٥١. القسم الصيني يؤلف مقاطعة سين كيانغ. والقسم الذي كان في الاتحاد السوفياتي مساحته أربعة ملايين كيلومتر مربع يؤلف جمهوريات: تركمانستان، أوزباكستان، تاشقاند، تادجيسكتان، القرغير، قازخستان.

٥ - السلاجقة: راجع الفصل السابق.

٦ - راجع: Mehmed Fuad Koprülü, les origines de l'empire ottoman, (Paris, 1935), PP. 87 Seq.; Paul Wittek, the rise of the ottoman Empire, (London, 1938) PP. 7 Seq.; Joseph Vonhonner, geschichte des osmanischen Reisches, Vol. I (Pest, 1827), PP. 40 Seq.

عاش بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، يستدلّ من اسمه هذا - إذا صح - أنّ عشيرته كانت آخذة في اعتناق الاسلام أو قد اعتنقته نهائياً... وقد بقيت الدولة العثمانية بعد أن تأسست حوالى سنة ١٣٠٠ نحواً من ست وستين سنة مجرّد إمارة قائمة على الحدود، واتخذت بعد سنة ١٣٢٦ مدينة بروسا[١] قاعدة لها. ثم غدت بين سنة ١٣٦٦ وسنة ١٤٥٣ مملكة عاصمتها مدينة أدرنة[٢]. وكان استيلاء محمد الثاني الفاتح على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فاتحة العهد الامبراطوري للدولة العثمانية[٣]».

في ربيع سنة ١٤٥٢ بدأ السلطان العثماني محمد الثاني (١٤٤٦ - ١٤٨١) بانشاء قلعة بالقرب من القسطنطينية على الساحل الأوروبي قبالة قلعة كوزل حصار التي كان قد أنشأها بايزيد على الشاطئ الآسيوي. وكان بايزيد الأول (١٣٤٧ - ١٤٠٢) الملقّب بلدرم أي الصاعقة، وهو السلطان العثماني (١٣٨٩ - ١٤٠٢) قد حارب القسطنطينية سبعة أعوام واحتلّ الصرب قبل أن ينتصر عليه تيمورلنك في معركة أنقره ويأسره.

عندما أرسل الامبراطور قسطنطين الحادي عشر وفداً إلى محمد الثاني ليحتجّ على بناء القلعة، ما كان من السلطان العثماني إلاّ أن أمر بأعضاء الوفد فقُطعت رؤوسهم. و إذ تأكد لقسطنطين الخطر المنتظر، راح يرمّم أسوار القسطنطينية ويتهيّأ للدفاع. كما انه راسل أمراء البندقية وجنوى مستنجداً وملوّحاً بامتيازات هامة للامارتين. كذلك بعث يستنجد بالبابا نيقولاوس الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥).

١ - بروسا .Brousse أو بورسه: مدينة في غربي تركية الآسيوية. فتحها أورخان بن عثمان سنة ١٣٢٦ واتخذها العثمانيون عاصمة لهم.
٢ - ادرنة Andrinople: مدينة في تركية أوروبة من مدن الامبراطورية البيزنطية فتحها الاتراك سنة ١٣٦١ فأصبحت مقرّاً لسلاطينهم حتى ١٤٥٣.
٣ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٣٠٣ - ٣٠٤

أرسلت رومة الكاردينال أسيدورس إلى القسطنطينية ليبحث أمر التعاون، وقد طالب الكاردينال الامبراطور بأن يُذكر اسم البابا في رتبة القدّاس في القسطنطينية تمهيداً لاقناع اللاتين بوجوب ارسال حملة للدفاع عن القسطنطينية، غير ان الامبراطور كان مُحرجاً بموقف كبار أعضاء الاكليروس الروم الرافض للخضوع لسلطة البابا، وقد أوجب الظرف عليه أن يساير رومة، فضغط على بعض كبار الاكليروس وأقام في الثاني عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٤٥٢ قدّاساً حافلاً في كنيسة الحكمة الالهية في القسطنطينية بموجب الطقس اللاتيني. «وما ان فعل حتى ضجّت المدينة بالاحتجاج... وقال أحد زعماء المعارضة الدوق الكبير نوتاراس قوله المشهور: - عمائم الشيوخ ولا تيجان الكرادلة[١] - !

كان لموقف رجال الدين البيزنطيّين، ولمن سار في ركاب ذلك الموقف، فعل إنهاء القسطنطينية كعاصمة من عواصم المسيحيّة في الشرق. ولم ينتصف شهر أيار (مايو) من سنة ١٤٥٣ حتى كان الأتراك قد اقتحموا سور المدينة التي دبّ الذعر في أهلها خاصة بعد أن سقط الامبراطور المنكود الحظ شهيداً وهو يحارب في ميدان الشرف. وقد أباح السلطان العثماني المدينة ثلاثة أيام بلياليها لستّين ألف مقاتل، إضافة إلى عدد كبير من الدراويش والتجّار والفلاّحين الذين انخرطوا في الحملة وقد استهواهم النهب والسلب. ثم دخل السلطان المدينة وذهب تواً إلى كنيستها الكبرى، كنيسة الحكمة الالهية، واعتلى المذبح وصلّى صلاته الاسلامية، فتحوّلت الكنيسة إلى مسجد وتحوّل القصر الامبراطوري، وهو المعروف بالقصر المقدّس، إلى مقرّ للسلطان، وتحوّلت القسطنطينية المسيحيّة إلى عاصمة للعثمانيين السنّة[٢].

١ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٣، ص٣
٢ - Pears E., Destruction of the greek empire, (1903); Amantos C., La prise de constan tinople (Athemes, 1953); Babinger E., Mehemed, Der eroberer und Seine zeit, (Munich, 1953); Annales Sultanorum ottomanidarum, P.G., Vol. 159, Col. 573 - 650; Guerdan R., Vie grandeur et misères de Byzance, (Paris 1954) PP. 205 - 2

إن القسطنطينية التي عصت على الإسلام بجميع خلافاته، منذ الراشدين حتى المماليك، والتي بقيت عاصمة للمسيحيّة في الشرق منذ انتقل إليها هرقل في العام ٦١١، كانت دائماً هدفاً أخيراً لتلك الخلافات جميعاً. إلاّ أنها هذه المرة كانت هدفاً أول لجحافل فاتحي شرقي البحر الابيض المتوسط ومصر ومحيطهما: العثمانيين.

بعد فتح القسطنطينية انطلق الأسطول العثماني ليحتلّ عدداً من الجزر اليونانية الواقعة شمالي بحر ايجه. وعندما توفي السلطان محمد الثاني سنة ١٤٨١ كان قد أخضع بلاد الصرب، وقضى على إمارتي الروم في المورة، وعلى دوقية أثينة اللاتينية، واستولى على امبراطورية طرابزون[1]. وأوصى محمد بالخلافة لابنه الأصغر: جم، الذي شهدت الدولة العثمانية الفتية تفسّخاً واضطرابات بسبب رفضه من قبل الانكشاريين[2] الذين والوا أخاه الأكبر: بايزيد. ومات محمد، بعد أربعة عشر عاماً من الصراع مع أخيه، مسموماً في ناپولي سنة ١٤٩٥ بعد ان أسره شارل الثامن. وبقيت السلطنة التركية العثمانية في حال من النزاع انتقل إلى أبناء بايزيد وأحفادهم حتى سنة ١٥١٢ عندما تمكّن سليم بن بايزيد من إكراه والده على التنازل له عن العرش، وكان أول أمر أصدره ان يُدس السم لأبيه ليثبّت اقدامه سلطاناً.

اتجه سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) بفتوحاته شطر آسية، فهاجم فارس التي كان على عرشها الشاه اسماعيل الصفوي الشيعي، وتمكّن سنة ١٥١٤ من ضمّ ديار بكر وكردستان إلى دولته. ثم اتّجه شطر المماليك، فكان أول صدام بين القوتين

١ ـ طرابزون: Trabzon, Trebizonte مدينة في أرمينية التركية على البحر الأسود، انشأها اليونان في القرن الثامن قبل الميلاد، ضمّها الرومان إلى امبراطوريتهم في القرن الأول ميلادي. نقل إليها الكسيس الأول قاعدة الدولة البيزنطية بعد تأسيس الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية، واستمرّت فيها من ١٢٠٤ إلى ١٤٦١. وكانت طرابزون العاصمة ومن مدنها سينوب. خضعت مراراً للسلاجقة وانشأت علاقات تجارية واسعة مع جنوى. أصبحت مركزاً للآداب والفنون، قبل أن يقضي عليها العثمانيون.
٢ ـ الانكشارية: معناها الجنود الجدد. هو اسم الجيش المنظّم الذي أحدثه العثمانيون في القرن الرابع عشر.

قد حصل في منطقة حلب في عهد بايزيد، وقد انتهى بصلح موقت مهدد في أي وقت، بسبب التنافس والتزاحم على النفوذ والزعامة في العالم الاسلامي بين القوتين العثمانية والمملوكية. وقد حاول المماليك السنّة التحالف مع الايرانيين الشيعة ضدّ بني عثمان السنّة، مما أغضب السلطان العثماني الذي أرسل للسلطان المملوكي يبلغه أن اسماعيل الصفوي، ملك إيران، خارجي، «وأنت مثله وسأبدأ بك قبله، وموعدنا مرج دابق[1]».

التحم الجيشان في ٢٤ آب (أغوسطس) ١٥١٦، حيث واجه جيش المماليك المصري المؤلّف من جماعات من البدو والسوريين بأسلحتهم التقليدية القديمة: السيف والخنجر، جيش الانكشارية العثماني المسلّح بالبنادق والبارود، وبالمدافع على أنواعها، ومنها الكبيرة الموضوعة على عجلات تجرّها الخيول[2].

كان على رأس جيش المماليك السلطان قانصوه الغوري الملقب بالملك الأشرف، وكان يومها في أواسط العقد الثامن من عمره، وقد قاتل قتال الأبطال، ولكنّ أصوات المدافع، ورؤيته لقادته وولاته يخونونه وهم ينضمّون الواحد تلو الآخر الى جيش العثمانيين المتفوق بعدده وعدته الحربية، قد جعلا قلبه الهرم ينهار فجأة ليسقط عن صهوة حصانه، ويتمّ بذلك النصر للسلطان العثماني سليم الذي اعتقله ونقله، وهو يعاني آلام القلب، إلى القسطنطينية. وبذلك سقطت سورية بكاملها بيد العثمانيين إذ تسارع ولاتها وعمّال المماليك فيها إلى إعلان ولائهم لهؤلاء. وقد رحّب أهلها بأسيادهم الجدد، شأنهم في كثير من الحالات السابقة، إذ اعتبروا أنهم منقذون لهم من الأسياد السابقين. ولم يشذّ أمراء لبنان وأعوانهم عن ذلك، بل سارعوا بقيادة فخر الدين الأول إلى مرج دابق ليعلنوا ولاءهم للسلطان.

١ ـ مرج دابق: موضع في سورية الشمالية بين منبج وإنطاكية على نهر قويق على بعد يوم عن حلب.
٢ ـ القرماني، أخبار الدول وآثار الاول (بغداد، ١٢٨٢ هـ) ص ٢٢٠

ومن سورية، بعد ذلك الفتح اليسير، سار الجيش العثماني المظفّر جنوباً نحو مصر حيث كان قد نودي بطومان باي سلطاناً مملوكياً عليها. وقد التحم الجيشان في الثاني والعشرين من كانون الثاني (يناير) سنة ١٥١٧ في الريدانية قرب القاهرة، حيث انهزم الجيش المصري الذي اثخنته القذائف، وشُنق طومان باي على أحد أبواب القاهرة الرئيسية في ١٧ نيسان[1] (إپريل).

بسقوط مصر بعد البلاد السورية، غدا الحجاز، بحكم الواقع، جزءاً من الامبراطورية العثمانية حيث ما لبث اسم السلطان أن أصبح يُذكر في مساجدها. وها هي سلطنة جديدة تبسط سيادتها على العرب وسائر الساميين، وهي أجنبية المولد، وإن كانت في دينها قد اسلمت حديثاً. هذه السلطنة سوف تحكم امبراطورية بلغت أوج عزّها في عهد سليمان الأول (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) الملقّب بالقانوني، وهو ابن الفاتح سليم الأول. ذلك أن القانوني قد استولى على الجانب الأكبر من هنغارية. وعقد الحصار على مدينة ڤيينة، واحتلّ جزيرة رودوس. وقد امتدت الامبراطورية في عهده من بودابسب على نهر الدانوب، إلى بغداد على نهر دجلة، ومن بلاد القرم إلى شلال النيل الأول. «ولم ينشئ المسلمون في العهد الحديث دولة هذا مداها، وكانت إلى ذلك من أطول الدول الاسلامية عمراً[2]» إذ ستعمّر حتى سنة ١٩٢٢، وقد ظهرت أول ما ظهرت سنة ١٣٠٠.

كانت الدولة العثمانية اسلامية تيوقراطية بجوهرها، كجميع الدول الاسلامية التي تعاقبت قبلها، تُميّز المسلمين عن غير المسلمين من رعاياها. فالرعايا المسيحيون ذميّون، يعاملون على أنهم من الدرجة الثانية، وفي بعض الأحيان من الاعداء، هم لا يستطيعون ان يكونوا مواطنين بكامل الشروط ما لم يتحوّلوا إلى الاسلام، وكان وجودهم مجرد أمر مقبول به، لكن عقائدهم وحقوقهم مُصانة لقاء

١ ـ ابن أياس، بدائع الزهور في تاريخ الدهور، (القاهرة ١٨٩٣)، ج ٣، ص ٩٧، ١١٥

٢ ـ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٣٠٥

دفع الجزية. وكان العثمانيون يصنّفون الرعايا المسيحيين بحسب الكنائس التي ينتمون إليها، بصرف النظر عن قومياتهم، فجميع المسيحيين الأورثوذكس في الدولة كانوا يعتبرون من الأروام، ولفظة روم عند الاتراك كانت تعني: الاغريق أو البيزنطيّين. وأصبح بطريرك الروم الاورثوذكسي في القسطنطينية الرئيس المدني لجميع المسيحيين، من أتباع الطقس اليوناني، الذين يؤلفون ملّة الروم. وأصبح المطارنة الرؤساء المحليين لأبناء أبرشياتهم والممثلين لهم لدى السلطات التركية، ونالوا بعض الامتيازات في حقل القضاء الجزائي والمدني. وفيما بعد، استفاد بطاركة الكنائس المختلفة، ورؤساء الطوائف الاسرائيلية، من الامتيازات نفسها[1]. وبهذا تمّ ما تمنّاه، أو ما فضّله على الأقل دوق القسطنطينية الكبير سنة ١٤٥٢: «عمائم الشيوخ ولا تيجان الكرادلة».

المسيحية في نصف الألف العثماني

يقول حتّي: «ان فلسفة العثمانيّين السياسية، كما فهمها الوالي العادي على الأقل، كانت تقوم على أن الشعوب المغلوبة، من غير المسلمين، كانوا: رعيّة، يتعهدهم: الراعي، لمنفعة الفاتح. وهذا التعبير المُستعار من حياة البدو في الجزيرة العربية، كان يعبّر كذلك عن المدارك التقليدية التي جالت في أذهان الأجيال المتحدّرة من القبائل البدوية في آسية الوسطى. فالشعوب المغلوبة في رأيهم، بمثابة المواشي البشرية، ولذلك اقتضى أن: يُحلبوا ويجزّوا، وانما تيسّر لهم ان يعيشوا كما يبتغون ما داموا لا يسببون المتاعب. ولما كان اكثرهم من الفلاحين والصناعيين والتجار، فلم يطمحوا إلى الانخراط في سلك الجندية، ولا نزعوا إلى تولّي المناصب المدنية. لكن «القطيع» كان بحاجة إلى: كلاب حراسة. وكان هؤلاء

١ ـ بولس، التحولات، ص ٣١٥؛ La mouche, histoire de la Turkie, P. 192 - 193

يجنّدون بالأكثر من أسرى الحرب، والرقيق الذي في حوزتهم، وأولاد النصارى الذين يؤخذون في مقابل الضرائب ثم يدربون ويربون كمسلمين. وكان هؤلاء المجنّدون يخضعون لمنهج عنيف من التدريب في العاصمة يستغرق سنين كثيرة، ويمرّون في مباريات شاقة وغربلة دقيقة. فمَن أبان عن فطنة وتوقد ذهن أُعد من جديد لتولي المناصب الحكومية، ومَن تميّز بالقوة الجسدية وُجّه إلى الخدمة العسكرية، وكان أصلبهم يحوّل إلى فرقة المشاة المعروفة بالانكشارية. وكانت طبقة الحكام وطبقة الجند في الامبراطورية في أول الأمر، تُنتقيان منهم على سبيل الحصر[1]. فرؤساء الوزارة، والوزراء، وأمراء البحر، والقوّاد، وحكام الأقاليم، جميعهم كانوا في ما سبق عبيداً، وكذلك بقوا. فكانت أرواحهم وأملاكهم في كل آن تحت رحمة سيدهم السلطان الذي ما تردد يوماً في ممارسة حقّه في هذه الملكية... وقد اعتمد العثمانيون اساساً آخر للتنظيم الإداري هو: التابعية الدينية. ذلك ان المجتمع في الشرق الأدنى كان، منذ عصور عريقة في القدم، يُقسم على أساس الملّة بدلاً من العرق والعنصر. وكانت نواة الملّة في التنظيم الإداري الأسرة، لا الاعتبار الجغرافي. ومن هنا كانت العقيدة والقومية في أذهان الناس اعتبارين متشابكين يتعذّر الفصل بينهما. وكانت كل من الفئات الدينية في الامبراطورية العثمانية تسمى ملّة. وكانت أكبر الملل إثنتين: ملّة الاسلام وملّة الروم. وكان الأرمن واليهود يُعدّون في جملة الملل. وكانت جميع الملل غير المسلمة، تبعاً لهذا النظام، مقسّمة إلى طوائف دينية يرئس كلاً منها رئيس من أبناء الطائفة يمارس بعض المهام المدنية الخطيرة، بحيث أدى هذا الوضع إلى انشاء نظام خاص بحكومات الأقليات الخاضعة. وكان الأوروبيون المقيمون في البلاد: من بندقيين وألمان وفرنسيين وانكليز، يعامَلون كسائر الملل، ففي سنة ١٥٢١ عقد السلطان

١ - Albert H. L, the governement of the ottoman Empire in the time of Suleiman the magnificent, (Cambridge, Mass. 1913) PP. 45 - Seq.; Barnette Miller, the palace school of Muhammad the conqrreror, (Cambridge, Mass. 1941), PP. 6 Seq., 81 - 82, 94 - 96.

سليمان معاهدة مع البندقيين في ثلاثين فصلاً، ثبّت فيها الامتيازات التي كانت لهم إبان الحكم البيزنطي. وحصل الفرنسيون على امتيازاتهم الأولى، بعد ذلك بأربع عشرة سنة، والانكليز سنة ١٥٨٠[1]».

وقد رأى السلاطين العثمانيون من الحكمة ان يظلّ الشقاق قائماً بين الكنيستين اليونانية واللاتينية[2]، فراحوا يوصلون إلى السدة البطريركية في القسطنطينية المعارضين للاتحاد بين الكنيستين. وحلّ الفاتح العثماني محلّ الامبراطور فأصبح يثبت البطريرك بقوله: «كن بطريركاً حرسك الله وسأوليك عطفي. وتمتّع بجميع الحقوق التي مارسها سلفاؤك[3]». و إذ حصر العثمانيون علاقة الشعب المسيحي الاورثوذكسي بالبطريرك الذي كان من حقه النظر في الخصومات، ومن واجبه جمع الضرائب المفروضة على الروم وكنائسهم، عاد عدد كبير من الروم إلى القسطنطينية واستقرّوا حول البطريركية، وكان لهم من ثروتهم القائمة على التجارة ومن براعتهم في السياسة ما ضمن لهم مركزاً رفيعاً في مختلف العهود العثمانية[4].

ومع أن مذهب الدولة العثمانية كان المذهب الحنفي السنّي، وقد خضع السلطان للشرع الشريف واعتز بحكمه وأحكامه، لكنه قال في الوقت نفسه بـ «العادة والعرف والقانون». والعادة هي ما استمر الناس عليه عند حكم العقول وعادوا إليه مرة بعد أخرى. والعرف هو ما استقرّ في النفوس من جهة شهادات العقول وتلقته العقول السليمة بالقبول. والعرف عند الأتراك العثمانيين كان ارادة

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٣١٣

٢ - Paparrhigopoulos C., Istoria Ellenichou ethnous, V, 504 - 522; Elliot sir Charles, Turkey in Europe, 242 FF.

٣ - Souvorov N., Manuel de droit ecclésiastique, P. 78; Papadopoulo th., history of greek chirche and people, II. N. 2

٤ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٣، ص٦

السلطان السنيّة، وهو من المعاني الخصوصية التي انفردوا بها[1]. والقانون هو العرف المدوّن بأمر السلطان أو مجموعة الإرادات السلطانية المدوّنة، وهذه الارادات السنيّة كانت لا تصدر قبل مشاورة العلماء المقربين من السلطان العارفين المطّلعين الذين كانوا يجارون السلطان في فتاويهم للمحافظة على المصلحة السياسية والاجتماعية بمقتضى الظرف. من هنا كانت الامتيازات التي خصّ بها محمد الفاتح وخلفاؤه بطاركة القسطنطينية[2].

قبل فتح العثمانيين للقسطنطينية كان بطريركها يُعتبر الثاني بعد «بطريرك» رومة، بحسب التعبير البيزنطي، وبعد بابا رومة بحسب التعبير الغربي. وكان يتقدم على بطاركة الشرق الثلاثة: الانطاكي، والأورشليمي، والاسكندري، الذين سبق لهم واعترفوا بهذا التقدم، وكان بطريرك القسطنطينية قد اتّخذ لنفسه لقب البطريرك المسكوني، بمعناه البيزنطي أي: بطريرك الامبراطورية. ورغم اعتراض رومة على هذا اللّقب فإن بطاركة الشرق الثلاثة، دون البطريرك الماروني، قد وافقوا على ذلك. وهكذا، فعندما استولى العثمانيون على البلاد أصبح بطريرك القسطنطينية بطريرك الدولة العثمانية[3].

يتّضح من المراجعات التاريخية أنّ كنيسة الروم قد تمتّعت إلى أقصى الحدود بامتيازاتها في العهد العثماني لتحرز لنفسها مكانة شرعية في الامبراطورية، ولتعتبر نفسها، من حيث القانون المدني ومن حيث الاعتبار الروحي، الكنيسة الشرعية الوحيدة. فقد اعتبر مؤرّخوها لتلك الحقبة سائر الطوائف والكنائس هراطقة، سواء كانوا من «اليعاقبة أو الأرمن أو الموارنة أو الكرج أو الافرنج أو

١ - Hammer Joseph Von, Staatsverfassung, 30; Fehmi y, Histoire de la Turkie, P. 237; Lybyer A., govermment of ottoman Empire, PP. 152 - 159

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٣، ص ١٣

٣ - راجع: De testa I., Recueil, V, P. 170; Appendix I. , Néale J., M., Patriarchate of Antioch, P. 194.

الأقباط[1]». وعندما حاول أحد بطاركة انطاكية: دوروثيوس الرابع (١٥٤١ - ١٥٤٣) أن يُفاوض بطاركة الموارنة للتوصّل إلى نوع من التعاون بين الطائفتين من خلال زيارة قام بها إلى البطريرك الماروني في قرية داريا من منطقة الزاوية في شمالي لبنان، فاقترح تبادل الخدمات الروحية بين الكهنة والسماح بالتزاوج بين الطائفتين مع الاحتفاظ بالعقائد القديمة، اجتمع بطاركة الاسكندرية وأورشليم وانطاكية والقسطنطينية وخلعوا البطريرك الانطاكي وجعلوا مكانه متروبوليت بيروت للروم الاورثوذكس[2]. وتفيد المدوّنات عن مشادات حصلت بين الروم والموارنة حول بعض الاوقاف في عكار. وعن أنه، في تلك الحقبة، (أواسط القرن السادس عشر)، قد تعرض الكاثوليكيون في شمالي لبنان (طرابلس) للاضطهاد[3]. وكانت ملامح نزاع داخلي ضمن بطريركية انطاكية الملكية، بين العنصر اليوناني والعنصر السرياني الأصل والعربي التطور، قد ظهرت مذ أخذ دور مدينة انطاكية كمقر للكرسي البطريركي يضعف شيئاً فشيئاً بعد الاحتلال العثماني للقسطنطينية سنة ١٤٥٣، وإعلان السلطات السياسية صدارة رئيس أساقفة القسطنطينية كممثل للمسيحيين أمام الباب العالي[4]، خاصة بعد أن نُقل مقر الكرسي نهائياً إلى دمشق، في القرن السادس عشر، وكانت دمشق قد احتلت مكانة الصدارة الحضارية في المنطقة[5].

وبين أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر اجتاحت انطاكية

١ - راجع: مجموعة المشرق، مجلّد ١٩٠٢، ص ٩٥١ - ٩٥٢.

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٣، ص ٢١ مستنداً إلى: Voyage, Vat. Arab., 689, Fol. 127, (Nasrallah, J., Chron., P.O.C., 1957), 34.

٣ - المطران يوسف الدبس، الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل، ص ٢٨٦ - ٢٨٧

٤ - الباب العالي: لقب كان يُراد به أولاً: البلاط السلطاني في اسطنبول ثم مقر الصدر الأعظم سنة ١٧١٨ وسائر الوزارات والدوائر الرسمية.

٥ - فريدا حداد، بطريركية انطاكية وسائر المشرق للروم الاورثوذكس، المنارة ١٩٨٦، العددان الأول والثاني، ص ٥٠

موجة من التقلّبات السياسية، أدّت إلى انشقاقات في صفوف الكنيسة، خاصة بعد دخول الارساليات الأجنبية والبعثات البابوية إلى الشرق، لا سيما مدينة حلب حيث دخل الفرنسيسكان سنة ١٥٧١، والكبوشيون واليسوعيون والكرمليون حوالى سنة ١٦٢٥. وقد قام بعض رؤساء الاساقفة الذين توالوا على كرسي انطاكية، خلال هذه الحقبة، بمحاولات للانضمام إلى رومة؛ من هؤلاء ملاتيوس كرمه الذي أصبح بطريركاً سنة ١٦٣٤، وعمل سراً لأجل ابرام الوحدة مع رومة. كذلك الامر مع خلفيه اوتيميوس الثالث، ومن ثم مكاريوس الثالث (١٦٤٧ - ١٦٧٢) الذي أعاد إلى الأذهان الموقف الكنسي الشرقي قبل الانفصال، إذ كتب إلى رومة، رسالة ملؤها الاحترام، مُبدياً عبرها تعاطفه معها، ولكنه لم يوقع صك الاتحاد الرسميّ. وبقي موضوع هذا الاتحاد في حال من التطاحن داخل كنيسة انطاكية إلى أن توفي البطريرك اثناسيوس الرابع سنة ١٧٢٤، وانتُخب الراهب سيلفستروس بطريركاً، فرفض توقيع صك الاتحاد، مما أدى إلى انشقاق داخل الكرسي، إذ انتخب دعاة الاتحاد بطريركاً آخر اسمه سيرافيم ودعوه كيريللوس الرابع؛ وقد تطوّر هذا النزاع إلى عقد مجمع شرقي أعلن شرعية بطريركية سيلفستروس، عقب ذلك أحداث دامية أدت إلى هروب كيريللوس واتباعه إلى جبل لبنان حيث أعلن استقلاله عن الكنيسة الاورثوذكسية وعن تأسيس الكنيسة الملكية الكاثوليكية برئاسة بطريرك[1]. ومنذ ذلك التاريخ وبطريرك الروم الكاثوليك، الذين يُعرفون أيضاً بالروم الملكيين، يقيم في لبنان في أكثرالأحيان، وإن كان قد أقام في مصر لفترات متقطّعة. أما المنطقة الرئيسية لأتباع هذه الكنيسة فهي مدينة زحله اللبنانيّة.

كان قد سبق هذا التطوّر، الذي أدى إلى ازدواجية الكنيسة الانطاكية، نشاط مركّز للارساليات اللاتينية. وقد تركّز هذا النشاط في حلب ودمشق

١ - المرجع السابق - ص ٥٠ - ٥١

وحوران والقرى المحيطة بها إضافة إلى بيروت وجوارها وبعلبك ويبرود والقرى الواقعة جنوبي حمص باتجاه بعلبك، فضلاً عن جنوبي لبنان والجليل. كما شملت الحركة أحياناً حمص نفسها حيث توقّفت أمام ردّة الفعل الأورثوذكسية العنيفة، إذ قاومت البطريركية المسكونية (القسطنطينية) تَكَثْلُك المؤمنين بشدة، وحرمت المتكثلكين منهم، وألزمت أتباعها برفض التعاليم الكاثوليكية المخالفة للأورثوذكسية. وقد ساندت السلطات العثمانية الاورثوذكسيين صراحة، فكان على المتكثلكين أن يعيشوا خفية في المناطق الخاضعة مباشرة للسلطان، وأن يقاسوا في ممتلكاتهم، وأحياناً كثيرة في أرواحهم ودمائهم في سبيل إيمانهم. وقد لجأت عائلات كثيرة منهم إلى لبنان محتمية بالأمراء الشهابيين وبموارنة كسروان. وبقي الحال على هذا المنوال حتى سنة ١٨٣٠، إذ جاءت المعاهدة التي أنهت حرب الاستقلال اليونانية، فضغطت الدول الغربية على السلطان العثماني لكي يعترف بالنظام الخاص بالكاثوليك الشرقيين، بحيث لم يعد للبطاركة الاورثوذكس أية سلطة عليهم. وبانتخاب مكسيموس مظلوم بطريركاً سنة ١٨٣٣، ودخوله دمشق رسمياً في السنة التالية، استعاد الروم الكاثوليك اعتبارهم هناك، وقد كان هذا البطريرك مجاهداً كبيراً امتدت نشاطاته إلى أكثر من صعيد، وأضاف إلى لقبه الانطاكي لقب بطريركيتي أورشليم والاسكندرية، هذا بعد أنّ نظّم البطريركية وعمل على رفع المستوى الروحي في صفوف الاكليروس والشعب[1].

الكنيسة السريانية

لم تكن المصائب التي حلّت بالكنيسة السريانية أقل من تلك التي حلّت بالكنيسة البيزنطية في هذه المنطقة من العالم وفي تلك الحقبة من التاريخ. وإنّ تسمية الكنيسة السريانية تنطبق اليوم حصراً على جزءين محدّدين من طوائف

١ - اغناطيوس ديك، طائفة الروم الكاثوليك الملكيين. (المنارة ١٩٨٦) العددان الأول والثاني، ص ٧١ - ٧٥

الكنيسة التي كانت في الماضي السحيق سريانية، دلالة على المسيحيين من أهل البلاد، في مقابل الكنيسة اليونانية التي كانت تعني المتحدرين من الأصول الهلّلينية، هذان الجزءان هما: السريان الاورثوذكس والسريان الكاثوليك. هؤلاء السريان ينتمون أصلاً، كنسياً، إلى الكرسي الانطاكي، وهم الذين فُصلوا فيما بعد عن ذلك الكرسي بسبب قولهم بالطبيعة الواحدة (المونوفيزية)، وقد لُقّبوا فيما بعد باليعاقبة. وقد تعرّضت هذه الطائفة للاضطهاد البيزنطي، مما جعلها تناصر العرب عند الفتح الاسلامي، وقد تحوّل الكثير منها إلى الأسلام. وتفاقمت حركة التخلي عن الايمان عندما تمّت معاملة جميع المسيحيين، دون تمييز على أنهم كفّار[1]. وعلى مرّ التاريخ، عانى أتباع هذه الطائفة في العصور الاسلامية ما عاناه سائر المسيحيين من إذلال واضطهاد، على الرغم من اعتراف الخلفاء بطائفتهم. وفي القرن الثالث عشر اجتاحت جحافل المغول مراكز الثقل لهذه الطائفة في طور عابدين[2] وماردين[3] وتكريت[4] واربل[5] والموصل[6]، وذبحت أهلها، وقد لجأ الناجون منهم إلى جبال الاناضول الشرقية وبعض المدن في سورية وما بين النهرين ولبنان.

---

١ - Janin, les églises séparées d'orient (Bloud et gay, 1930) P. 156

٢ - طور عابدين: عبارة سريانية معناها جبل العابدين، هو اسم للجبال الممتدة بين ماردين في تركية وجزيرة ابن عمر شمالي ما بين النهرين. فتحها العرب سنة ٦٤٠، كان فيها عشرات الاديرة والكنائس التي دمرتها الحروب. أهمّ اديرتها الباقية: دير الزعفران الشهير بالقرب من ماردين.

٣ - ماردين: مدينة تركية، عدد سكانها اليوم حوالى ربع مليون نسمة، تقع على مسافة ٤١١ كيلومتراً من حلب. سوف يجلو عنها أكثر المسيحيين بين ١٨٩٥ و ١٩١٧ كما سيأتي. شهيرة بقلعتها القديمة. بالقرب منها دير الزعفران للسريان اليعاقبة المذكور في المرجع السابق.

٤ - تكريت: مدينة في العراق على شاطئ دجلة الأيمن شمالي سامراء. هي اليوم مركز قضاء تكريت في محافظة بغداد. سكّانها في الجاهلية بنو إياد النصارى. اشتهرت في العهد العباسي بقلعتها وصناعة الأصواف. فيها ولد صلاح الدين الأيوبي. هدمها تيمورلنك سنة ١٣٩٤. فيها آثار كنيسة قديمة كانت كرسيّاً اسقفياً كبيراً لليعاقبة.

٥ - إربل أو إربيل: مدينة في العراق، قاعدة محافظة إربيل ومركز القضاء سكانها اليوم حوالى مليون ونصف. هي «إربل» القديمة. ورد ذكرها في الكتابات السومرية الالف ٣ ق.م. عُرفت باسم «اربايلو» في العهد الاشوري. بالقرب منها انتصر الاسكندر الكبير على داريوس الفارسي في معركة كوكاميله.

٦ - الموصل: مدينة في العراق. قاعدة محافظة نينوى ومركز قضاء الموصل. حوالى ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة. لقّبت بالحدباء وأم الربيعين. تقوم على انقاض مدينة ساسانية (سلالة فارسية). بدأ انحطاطها بعد مرور المغول ١٢٥٩ وتيمورلنك ١٤٠٠.

حتى ذلك التاريخ كانت هذه الطائفة تضم حوالى مليوني مؤمن[1]. إلاّ أن هذا التشتّت قد أضعف من شأنها، وقد رافق تهجير أبنائها معاناة داخلية أدّت إلى الانقسامات في داخلها، حتى إنه في نهاية القرن الثالث عشر كان هنالك ثلاثة رؤساء للكنيسة السريانية، وكان يتبع كلاً منهم أساقفة ومؤمنون[2]. وفي خضم تلك الانقسامات حصلت مراسلات بين البابا غريغوريوس التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) والبطريرك السرياني اغناطيوس داود أدت إلى ارتداد هذا الأخير الذي كتب صورة ايمانية وأرسلها إلى قداسة البابا ثم جدّدها بعد عشر سنوات على عهد انيوقنتيوس الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤). وبعده بحوالى مائة سنة (١٣٤٠) عقد مجمع في جزيرة قبرص، بأمر من البابا بينيديكتوس الثاني عشر (١٣٣٤ - ١٣٤٢) حضره رؤساء الطوائف المسيحيّة الشرقيّة في الجزيرة، وفيه جاهر اسقف اليعاقبة بإيمان الكنيسة الكاثوليكية، على أن يبقى اليعاقبة على طقوسهم السريانية. ثم ما لبث قسم منهم ان تبع الطقس اللاتيني، والتحق القسم الآخر، على ما يبدو بالموارنة. وبعد مائة سنة أخرى جاءت محاولة جديدة على مستوى مجمع مسكوني اتحادي، هو المجمع الفلورنتيني (١٤٣٨ - ١٤٤٥) الذي عقده البابا أوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧) بهدف اتحاد الكنائس، وقد تمّ فيه الاتفاق مؤقتاً بين اليونان واللاتين، وقد مثّل الطائفة اليعقوبية في هذا المجمع البطريرك بهنام الحدلي، فكان من نتائج المجمع أن أصدر البابا أوجين صورة القرار الخاص باليعاقبة في ٤ شباط (فبراير) ١٤٤١. وبعد انتقال المجمع إلى اللاتران[3]، أوفد البطريرك الحدلي المطران عبد الله، مطران الرها، الذي أقر، في ٣٠ أيلول

---

١ - Khalil Kochassarly, Eventail des églises d'orient, (Bruxelles 1987) PP. 23 - 24

٢ - D. T. C, I / A, 1428

٣ - لاتران: Latran قصر في رومة كان مقاماً للباباوات مدّة عشرة قرون تقريباً. عقدت فيه خمسة مجامع مسكونية بين القرن ١٢ و ١٦. بالقرب منه كنيسة مار يوحنا اللاتراني التي شيّدها الامبراطور قسطنطين سنة ٣٢٤ ثم أُجريت فيها تعديلات عديدة. إحدى كنائس رومة الخمس الكبرى.

(سبتمبر) ١٤٤٤ بين يدي البابا المذكور باسم البطريرك وشعبه، بإيمان الكنيسة الكاثوليكية. غير أن هذا الاتحاد انفرط فيما بعد بسبب معاكسات السلطات العثمانية وصعوبة الاتصال بين الشرق والغرب. وبعد أكثر من مائة سنة، وتحديداً في ٢٦ أيار (مايو) ١٥٥٣، تلا موسى، موفد البطريرك إغناطيوس عبد الله، بين يدي البابا يوليوس الثالث (١٥٥٠ ـ ١٥٥٥) باسمه وباسم بطريركه اليعقوبي، دستور الايمان والتسليم بالمجامع المقدسة. ولكنّ مصير هذا الاعتراف كان كمصير الاعترافات السابقة. إلى أن جاءت المحاولة الأخيرة مع البطريرك نعمة أصفر الماردينى، عبر مراسلات متبادلة بينه وبين البابا بيوس الرابع (١٥٥٩ ـ ١٥٦٥) وخلفِهِ بيوس الخامس (١٥٦٦ ـ ١٥٧٢)، إلاّ أنّ هذا البطريرك قد أُكره على اعتناق الاسلام تخلّصاً من الموت، وقد تمكّن فيما بعد من اللجوء إلى رومة طالباً حماية البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢ ـ ١٥٨٥)، وأمضى حياته في الڤاتيكان بالتوبة والصلاة والعمل على التحاق جماعته بالكنيسة الرومانية، فاصطدم بصعوبتين افشلتا الاتفاق: معاكسة الحكّام الأتراك المستمرّة، وتمسّك السريان بطقوسهم وتقاليدهم[1].

لم تُسفر الاتصالات بين السريان والكثلكة عن نتائج رسمية قبل القرن السابع عشر، إذ في سنة ٦٤٩ اعتنق المطران السرياني الأورثوذكسي: ديونسيوس قسطنطين، أسقف حلب، المذهب الكاثوليكي وهو على فراش الموت، وخلفه ديونسيوس توما، وكان يؤيّد الكثلكة، ففتح كنيسته لوعظ الرهبان المرسلين وتبشيرهم. وكان القنصل الفرنسي: فرنسوا پيكه، خير مساعد لهم في مهمتهم الدينية. ولمّا مات المطران توما سنة ١٦٥٦ سعى القنصل پيكه لدى

١ ـ المطران رابولا انطون بيلوني، السريان الكاثوليك في لبنان، (المنارة ١٩٨٦) العددان الاول والثاني ص ١٥٤

البطريرك شمعون في طور عابدين ليقيم اندراوس اخيجان[1] اسقفاً على ابرشية حلب السريانية، فنجح في مسعاه[2]، وأصبح اخيجان أول بطريرك فعلي لطائفة السريان الكاثوليك.

لاقى اخيجان في حلب مقاومة عنيفة من بعض أبناء ملّته ومن السلطات العثمانية رغم فرمان الاعتراف السلطاني، فاضطر إلى ترك المدينة واللجوء إلى لبنان؛ غير أن عدداً كبيراً من أبناء رعيته قد ألحّ عليه العودة إلى حلب، وكذلك فعل المرسلون، فعاد اليها في ١٢ آذار (مارس) ١٦٥٨. إثر هذه العودة، ثبته البابا الكسندروس السابع (١٦٥٥ ـ ١٦٦٧) أسقفاً على حلب، وفي ربيع ١٦٦٠ عُقد اجتماع اشترك فيه ممثلون عن الروم والأرمن والسريان، اعترفوا بخلاله بصحّة المذهب الكاثوليكي. وإذ تمكّن المطران اندراوس اخيجان، بغيرته وجهوده من استمالة قلوب مقاوميه، فعندما توفي البطريرك شمعون اجتمع سريان حلب الكاثوليك وأعلنوا اندراوس بطريركاً على الكنيسة السريانية في ١٩ نيسان (إپريل) ١٦٦٢، فاعترف به السلطان محمد الرابع مصدراً البراءة، وأمراً همايونياً في ١٣ آب (أغوسطس) ١٦٦٢، ومنحه الكسندروس السابع درع التثبيت في ٢٢ تموز (يوليو) ١٦٦٣[3].

١ ـ اندراوس أو أندره اخيجان: من أبوين اورثوذكسيين. اعتنق الكثلكة على يد أحد المرسلين الكرمليين بحلب. يمم لبنان وحلّ في دير قنوبين عند البطريرك الماروني يوسف العاقوري. سافر إلى رومة ودرس في المدرسة المارونية سنتين. ارتدّ إلى لبنان وأقام عند البطريرك الماروني يوحنا الصفراوي الذي سامه كاهناً وعيّنه نائباً عنه في قبرص وعكار فشغل هذه الوظيفة خمس سنوات. واذ كانت أواصر الصداقة قوية بين البطريرك شمعون والقنصل بيكه، تمكّن القنصل من حمل البطريرك على اختيار كاهن سرياني كاثوليكي ليكون مطراناً على ابرشية حلب خلفاً للمطران توما الذي توفي سنة ١٦٥٦. فوقع الاختيار على أخيجان الذي قبل الرسامة الأسقفيّة من البطريرك الماروني يوحنّا الصفراوي في ٢٩ حزيران (يونيو) ١٦٥٦ ونال في ٧ تشرين الثاني نوڤمبر فرماناً سلطانياً من محمد الرابع عشر يعترف به رئيس اساقفة أبرشية حلب السريانية.

٢ ـ ميشال يتيم، تاريخ الكنيسة الشرقية، منشورات المكتبة البولسية (لبنان) الطبعة الثالثة، ص ٣٤٠

٣ ـ المرجع السابق، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١

إلاّ أن هذا الواقع، الذي كان له فعل الجمع في الكنيسة، قد أدى في الوقت نفسه إلى انقسام آخر. هذا الانقسام كان داخل الكنيسة السريانية بالذات. فلقد قاوم قسم من السريان، وهم الاورثوذكس، هذا الاعتراف بالكنيسة الكاثوليكية. وقد استفاد الأتراك العثمانيون من هذه المنازعات، فكانوا تارة يساندون هذه الفئة، وتارةً تلك، سواء بالرشوة أو المراوغة أو الدسائس. واستمرّت هذه المأساة على عهد البطريرك الكاثوليكي الثاني بطرس شهبادين، الذي خلف اخيجان، مما عرّضه للخلع عن كرسي البطريركية خمس مرات، هرب في إحداها إلى لبنان طالباً حماية البطريرك الماروني اسطفان الدويهي في قنوبين. وفي ١٤ آب(أغسطس) ١٧٠١ أصدر مفتي المسلمين في الاستانة، الشيخ فضل الله، بناء على شكوى كاذبة، أمراً إلى قاضي حلب بإلقاء القبض على هذا البطريرك وعلى مطران حلب رزق الله امين خان وعدد من الكهنة والرهبان، فزجّهم في السجن مدة ثمانين يوماً أُذيقوا بخلالها شتّى أنواع الإهانات والتعذيب والتجويع، ثم صدر أمر بنفيهم إلى قلعة أدنه، فجروا سيراً على الأقدام حتى الاسكندرون، ورغم تدخّل نائب قنصل فرنسة للتخفيف من وطأة هذه الاجراءات استمر تنفيذ المقرر. وما أن وصل المنفيّون إلى السجن حتى فارق المطران الحياة. وتبعه البطريرك بعد أربعة أشهر. وبقي الرهبان الثلاثة الآخرون معتقلين حتى سنة ١٧٠٤، ولم يُفرج عنهم إلاّ بعد تدخّل السفير الفرنسي وإلحاحه. فقصد الناجون الثلاثة دير قنوبين حيث أشار عليهم البطريرك الماروني يعقوب عواد بالذهاب إلى بلدة الشبانية في المتن ليكونوا في منأى عن سلطة باشا طرابلس. وبعد عناء طويل تمكّنوا من بناء دير في جوار الشبانية على اسم القديس أفرام عُرف باسم دير مار افرام الرغم. غير ان هذا الدير لم يصمد في وجه حركتي ١٨٤٠ و ١٨٦٠ إذ دُمّر تماماً بعد أن ذُبح رهبانه وأُحرقت مكتبته.

لم يكن حظّ البطريرك الثالث، الذي جاء بعد فترة انقطاع قسريّ، بأفضل من حظّ سلفيه. فاضطر هو الآخر إلى اللجوء إلى لبنان. هذا البطريرك هو ميخائيل

الثالث جروه الذي كان اسقفاً يعقوبياً على حلب، وقد اعتنق الكثلكة جهراً داخل الكنيسة، وتبعه سريان الابرشية جميعاً، ولكنه دفع ثمن جرأته تعرضه للسجن والاضطهاد. كل ذلك لم يمنع، إثر وفاة البطريرك اليعقوبي، من ان ينضمّ هؤلاء إلى السريان الكاثوليك في اختياره بطريركاً، وقد جرى الاحتفال بالتنصيب في ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٧٨٢ في دير الزعفران. ولكن بعد ثلاثة عشر يوماً قام الاكليروس اليعقوبي بانتخاب بطريرك آخر، سارع الاتراك إلى الاعتراف به وإلى خلع جروه وإلقائه في السجن[1].

بعد خروجه من السجن خرج البطريرك اغناطيوس جروه من بغداد ليلاً خفية متنكراً بثوب العرب في ٦ آذار(مارس) ١٧٨٤، ومشى بصحبة رفيقين حتى وصلوا إلى خارج المدينة. ومن هناك، استكروا خمسة جمال يقودهم ثلاثة أعرابيين لقاء مائة ليرة ذهبية، وقد صحب البطريرك الشماسان يعقوب بوطو، وزكريا، ثم لحق بهم الشماس توما إضافة إلى خادم البطريرك: دانيال. وسار القوم في القفر الخالي من الماء والقوت، والغني بالوحوش الضارية وسفّاكي الدماء. ولقد آسوا من الجوع والعطش وركوب الجمال ليلاً نهاراً ما جعلهم يتحققون من موتهم المحتّم، خاصة بعد ان دبّت القروح في أجسادهم، وقد نزف البطريرك دماء كثيرة فبدا لصحبه أنه لن ينجو إلاّ بأعجوبة. وقد تمكّنوا، على هذا المنوال، من الوصول إلى تدمر بعد خمسة عشر يوماً مختصرين مسافة يلزمها ستون يوماً من المسير. وفي تدمر تخلّى الاعرابيون عن البطريرك وصحبه إذ وصلت إلى آذانهم أخبار ملاحقة والي الشام لهم. غير ان اعرابياً آخر من تدمر حنّ على القوم وأركب البطريرك جمله مخاطراً بحياته ونقله إلى القريتين. ومن هناك ركبوا الحمير مصطحبين معهم أُناساً مسلمين ليوصلوهم إلى قرب الشام، وقد رفض أهالي قرية العدرى المسلمون ايواءهم مما اضطرهم إلى التخفّي مدة يومين في القفر ومعهم

---

١ - بيلوني، ص ١٥٥ - ١٥٧

الاعرابي الذي قبض ثمن خدماته ما طلب. و إذ أرسل البطريرك ساعياً إلى الكاهن السرياني وجماعته في الشام ليخبرهم سرّاً بوصوله، ارتعد الكاهن فأجبن، وردّ الساعي ومعه كتاب للبطريرك فيه أنه ورعيته يخافون التظاهر بكونهم من جماعة البطريرك. فلم يكن أمام القوم سوى التسلل، بكل ما في ذلك من صعوبات، إلى جبل كسروان في لبنان. فوصلوه يوم السبت العظيم ليلة أحد القيامة من سنة ١٧٨٤، ونزل جروه في دير خرب في بيت شباب هو دير ما انطونيوس النبع. أما صحبه فقد تفرق بين ماردين وحلب ومصر وسواها، ولم يبق معه سوى اثنين.

بعد انقضاء الربيع على البطريرك السرياني الكاثوليكي لاجئاً إلى ذلك الدير الخرب، قصد بيت أحد الفلاحين في بيت شباب، وهو جرجس ابي فياض، فاستأجره في ٧ آب (أغسطس) ١٧٨٤. في هذه الأثناء حضر إلى البطريرك المطران ايونيس نعمة الله الصدي، وكان من أصدق المطارنة ولاءً له، وكان معه شمّاسه، فأصبحت القافلة تضمّ ستة أشخاص ليس لديهم من وسائل العيش أدناها. ثم سار البطريرك وصحبه إلى كسروان حيث استأجروا بيتاً صغيراً في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٨٤ على أن يدفعوا إيجاره الزهيد شهرياً لمدة سنتين.

ذلك المكان، الذي استأجره البطريرك السرياني الكاثوليكيّ اغناطيوس ميخائيل جروه الحلبي نهاية سنة ١٧٨٤، كان قد بناه الخوري مارون الطرابلسي ديراً صغيراً على اسم سيدة النجاة على شرفة درعون، فعُرف بدير الشرفة. والخوري مارون هذا، هو حفيد الخوري يوسف صالح الدويهي الذي سيم مطراناً عام ١٧٢٨ على البترون بوضع يد البطريرك يعقوب عواد (١٧٠٥ - ١٧٣٣) وسمّاه اسطفان، وهو الذي أصبح فيما بعد بطريركاً على الطائفة المارونية.

كانت الأرض التي بنى عليها الخوري مارون طرابلسي دير الشرفة ملكاً للشيخ نوفل الخازن، وقد قرر المشايخ الخوازنة في تموز (يوليو) ١٧٥٤ ان يبيعوها

للقس مارون بثمن زهيد، شرط ان يبني عليها مدرسة يعلّم فيها الفتيان مبادئ السريانية والعربية والاصول الدينية، وهذا ما تدلّ عليه حجة البيع المحفوظة في دير الشرفة.

ما لبث البطريرك جروه ان اشترى هذا الدير بمبلغ ٢٥٠٠ قرش، ألف منه تبرع به الشيخ غندور سعد الخوري. وابتداء من صيف ١٧٨٦ راح البطريرك يشيّد بعض الغرف لسكناه وحاشيته والتلامذة الذين أزمع ان يستحضرهم من أطراف البلاد. وفي سنة ١٧٨٧ أطلق على الدير عنوان: دير الكرسي. وكتب مراراً في دفتر حساباته يقول: بيان ما نصرفه على دير الكرسي. وجعل يوقّع مناشيره وعرائضه الرسمية بعبارة: صدر عن كرسينا الانطاكي في دير سيدة النجاة. وفي ٢٣ أيار (مايو) ١٧٨٧ منح البابا بيوس السادس البطريرك اغناطيوس مخايل جروه البراءة الرسولية.

استقرّ البطريرك السرياني الكاثوليكي في كرسيه الجديد على شرفة درعون من كسروان لبنان، وراح يراسل الابرشيات ويطلب شباناً ممتازين بالتقوى والذكاء، ميالين إلى الروح الكهنوتي، وقد لبى الدعوة فريق من هؤلاء حضر إلى دير الشرفة، وراح أعضاؤه يقتبسون الفضيلة والعلم حتى ارتقوا إلى رتبة الكهنوت. وفي عام ١٧٨٩ بدأ البطريرك يبعث الشبان إلى رومة ليكملوا علومهم.

وهكذا دبّت الحياة في الطائفة السريانية الكاثوليكية على يد هذا البطريرك القدير، الذي جاهد جهاد الأبطال في سبيل رسالته. وفي وقائع لجوئه إلى هذه المنطقة من الشرق نموذج معبّر جداً من تلك الوقائع المماثلة التي جعلت لبنان وجبله ملجأ للأقليات المضّطهدة. ومثل كثير من الأديار، العائدة لمختلف الطوائف المسيحية، انطلق دير الشرفة في رسالته الاكليريكية، وكان من أوائل أساتذة مدرسته المطران إيونيوس نعمة الله الصدي، رفيق البطريرك، والمطران اثناسيوس موسى صبّاغ الرومي الملكي.

ويحفظ رؤساء هذه الطائفة الجميل للدولة الاسبانية لأنها في أحرج الحالات ساعدت المؤسس، بدءاً من ملكها وملكتها، وصولاً إلى وزرائها وسادتها وسيداتها. وفي أرشيف الدير من الوثائق والصكوك ما يفيد عن العون الكبير الذي قدّمه الاسبان لهذا الدير ومعهده، وأخصّ هؤلاء الدوقة دي هيرموزا التي أسعفت البطريرك بمبالغ طائلة لتعزيز الدير ومعهده. ويُعَدّ دير الشرفة اليوم من أكبر أديار لبنان حيث لا يزال يشهد لحقيقة كون هذا الجبل موئلاً للمضطهدين[1].

الأشــــــوريون والكـلـدان

النساطرة، هم الآخرون، من الجماعات المسيحيّة التي، منذ مجمع أفسس، تكنّ شعوراً بالعداء القوي إزاء بيزنطية. لذلك كانوا، كما اليعاقبة، قد استقبلوا العرب المنتصرين استقبال الأصدقاء. وإنّ ما عاناه النساطرة على أيدي المسلمين فيما بعد، كما على أيدي جنكزخان وتيمورلنك، لم يكن مختلفاً عمّا عاناه اليعاقبة. ومع أن الكنيسة النسطورية، وهي التي ستُعرف فيما بعد بالأشورية والكلدانية، كانت، كما ذكرنا سابقاً، قد حققت للمسيحيّة انتشاراً واسعاً في ديار الأتراك والمغول والتيبت والصين واليابان والهند وسيلان وجنوب آسية في اندونيسية، فإنها في المقابل قد أدّت للمسلمين خدمات جلّى في أعمال التأليف والترجمة، خاصة في عهد الخلافة العباسية، واشتهر منهم الأطباء والعلماء والمترجمون، من أمثال حنين بن إسحق، وآل بختيشوع ابن الطبيب، وابن ماسويه، والكندي، وكثيرون غيرهم، وقد لمع في هذا العصر البطريرك تيموتاوس

١ ـ طوني مفرّج، الموسوعة اللبنانية المصوّرة، الجزء الثالث (بيروت ١٩٧١) ص ١٠٢ ـ ١٠٥، تحقيق مصادرُه: البطريرك اسطفانوس الدويهي، بطاركة الطائفة المارونية، المطبعة الكاثوليكيّة، (بيروت ١٩٠٢)؛ الخوراسقف منصور الحتّوني، المقاطعة الكسروانية؛ الخور اسقف يوسف داغر، بطاركة الموارنة، المطبعة الكاثوليكية، (بيروت ١٩٥٨)؛ الخوري اسحق أرملة السرياني، تاريخ سيدة النجاة أي دير الشرفة (١٧٨٦ ـ ١٩٤٦)، مطبعة الآباء المرسلين اللبنانيين (جونيه ـ لبنان ١٩٤٦)

الملقّب بالكبير (٧٨٠ ـ ٨٢٣) وهو الذي نقل الكرسي البطريركي لهذه الطائفة إلى بغداد[1].

تدلّ الدراسات على أن الكنيسة الكلدانية، في مُنصرم القرن الثالث عشر، كانت تعدّ أكثر من ٢٣٠ أبرشية موزّعة على ٢٧ رئاسة اسقفية Métropole، منتشرة فوق جميع آسية الوسطى والمناطق المجاورة[2]، وقد بلغ عدد التابعين لهذه الكنيسة قرابة ثمانين مليون نسمة[3].

لم يتأثّر النساطرة كثيراً بالزحف المغولي على بلاد آسية في العام ١٢٥٨، بل ظلّت كنيستهم تنعم بالحرية الدينية، حيث أنّ الكثيرين من المغول كانوا قد اعتنقوا المسيحية النسطورية منذ الجيل السابع، حتى إنّ أحد هؤلاء المغول: يولاها، قد تبوّأ السدة البطريركية (١٢٨٣ ـ ١٣١٧)، ونقل مقرّه إلى ماراغا في بلاد المغول. وشهد الرحّالة الكبير البندقي ماركو باولو انتشار هذه الكنيسة، وذكر انه التقى البطريرك النسطوري المغولي يولاها الثالث في بلاط الامير المغولي ايلخان، وتحقق من عمل كنيسته التبشيريّة وتنظيمها وانتشارها في شتّى البلدان.

لم يكن أمر الكنيسة النسطورية والمغول في نهايته كما كان في بدايته. ذلك أنّ المغول في مطلع القرن الرابع عشر قد أخذوا يعتنقون الاسلام. وهكذا، عندما جاء تيمورلنك (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥) قضى على الكنيسة المشرقية النسطورية في المناطق الشرقية، فتقلّص ظلّها وقلّ عدد ابنائها الذين أسلم منهم من أسلم وفرّ الباقون، ولم يبقَ من النساطرة إلاّ قسم ضئيل في العراق لجأ إلى جبال كردستان وبلاد العجم[4]، حيث انكمش هذا الشعب على ذاته وانعزل متّبعاً نمط حياة

١ ـ البطريرك روفائيل بداويد، الكنيسة الكلدانية، مجلّة المنارة، العددان الاول والثاني، (١٩٨٦) ص ١٧٩ ـ ١٨٠

٢ ـ Janin, les ég. seq. d'orient, P. 163

٣ ـ بداويد، ص ١٨١

٤ ـ المرجع السابق، ص ١٨١

بطريركياً قبليًا، قائماً على الصلابة، ومنغلقاً. حتى إنّ الخلافة البطريركية أصبحت منذ سنة ١٤٥٠ وراثية تنتقل من البطريرك إلى أقاربه وفق شروط خاصة، كأن «يُفترض بالبطريرك العتيد ألاّ يكون قد أكل لحماً قط، وإنْ في أحشاء أمه، التي يجب عليها الامتناع عن هذا الطعام أثناء حبلها به[1]».

هذا الانعزال جعل الاشوريين يتمتعون في جبالهم، مثلما فعل الموارنة في جبل لبنان، ومثل هؤلاء حقق أولئك نوعاً من الاستقلال الواقعي، حيث لم يكن أحد ليجرؤ على اجتياز مواقعهم. وقد دام هذا الامتناع طويلاً: فإنّ موظّفاً عثمانياً اضطر سنة ١٨٣٥ إلى أن ينتقل من الموصل نحو القسطنطينية عبر طريق غير طريق ديار بكر المعتادة، فاجتاز مناطقهم. ولقد دهش هذا الموظف، ايما دهشة، عندما قال للناس هناك انه عثماني، ولم يفهموا معنى ذلك. بل لم يكونوا يعرفون شيئاً عن السلطان ولا يهتمّون بذلك أبداً. وعندما أدركوا أنه مسلم قالوا له أنهم هناك منذ أزمنة ما قبل نبيّه محمد. وقد ترك هؤلاء الموظف العثماني المسلم يمرّ دون أذيته، وافترقوا على نوع من العلاقة الطيبة. وقالوا له أنهم في ما مضى لم يسبق لهم أن رأوا خيالاً يجتاز جبالهم. وعندما وصل الرجل إلى ڤان، قال له أميرها أنه لم يسبق له أن رأى انساناً ينزل من تلك الجبال[2]!

بقي هؤلاء المسيحيون ممتنعين في جبالهم حتى جاء المرسلون الأنكليز في منتصف القرن التاسع عشر، وطلبوا من السلطات العثمانية ان تسهّل لهم الاتصال بهؤلاء في منطقة هاكياري Hakkiari، فوجد الباب العالي من واجبه أن يؤمّن للانكليز الحماية ويوظّف هذه الخدمة لدى سفارته، وأنفذ العثمانيون بذلك سلطتهم تدريجاً على أمير هاكياري الكردي الذي أُلزم بدفع الضريبة للسلطنة. وراح العثمانيون يحرّضون الأكراد على المسيحيين، فقام أمير بوتان الكردي سنة

١ ـ Pierre Rondot, les chrétiens d'orient, (Paris 1955) P. 159

٢ ـ المرجع السابق. P. 161

١٨٤٣ بحملة شرسه على المناطق المسيحيّة، اتبعها بحملة أخرى سنة ١٨٤٦ نفّذ بخلالها جيشه الكردي مذبحة عنيفة ذهب ضحيتها عشرات آلاف النساطرة، ودمّرت الرسالات الانكليزية والاوروبية التي كانت قد تأسّست في تلك المناطق. وعندما طالبت لندن السلطنة العثمانية بردع الأكراد، قام هذا الردع بتدمير امارتي هاكياري وبوتان وبالسيطرة على الاكراد والأشوريين معاً ووضع منطقتهم تحت الرّعاية العثمانيَّة المباشرة[1]. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، أمر السلطان محمد رشاد بإبادة جميع مسيحيي منطقة هاكياري، ومعظمهم من الاشوريين، وبعضهم من الأرمن. فراح الجنود، بمؤازرة الشعب المسلم الكرديّ، يذبحون أهالي القرى الأشورية المعزولة من السلاح، وقد اقتادوا الشبان والرجال إلى مراكز السلطات العسكرية وأبادوهم بالرصاص، ومن استطاع منهم الهرب لجأ إلى قودجانس حيث مركز البطريركية، أو إلى أيّة عشيرة مُقيمة في الجبال. أمام هذا الواقع عمدت الدولة العثمانية إلى قطع الطريق بين العشائر ومركز البطريركية، وحرّضت الأكراد ضد الأشوريين وسلّحتهم. فاشتعلت حرب بين الفئتين غير متكافئة القوى[2]. وفي ١١ حزيران (يونيو) ١٩١٥ هاجمت العشائر الكردية، تدعمها الوحدات التركية بالرجال والسلاح، مواقع الأشوريين في جميع الجهات. وقد استطاع المقاتلون المسيحيون أن يفتحوا طريقاً إلى إيران نقلوا عبرها الأطفال والنساء، وقطعان الماشية، ليتفرغوا من ثم لحرب ضروس دارت رحاها بينهم وبين المسلمين من أكراد ورجال عثمانيين في جبال هاكياري، بيدَ أن استفرادهم من قبل الامبراطورية جعلهم غير قادرين على الصمود أكثر من أربعة أشهر انسحبوا بعدها إلى أذربيجان وتوزّعوا في مناطقها[3].

استمرّت المذابح التي تعرّض لها الاشوريون حتى العام ١٩٣٣. فبعد منطقة

١ ـ المرجع السابق، P. 161

٢ ـ الارشمندريت ايڤان اوشانا، المنارة، السنة ٢٧، العددان الاول والثاني (١٩٨٦) ص ١٦٩

٣ ـ المرجع السابق، ص ١٧٠

هاكياري تعرّض سائر المناطق المسيحية لهجمات مماثلة، وقد ناضل الأشوريون وحدهم من أجل البقاء دون أنْ يمدّ لهم أحد يد العون. وكان آخر تلك المذابح الجماعية تلك التي جرت خلال ثلاثة أيام (٥ ـ ٧ آب ـ أغسطس ـ ١٩٣٣) فكانت قاضية عليهم. ولا يزال الشعب الأشوري، الذي تشتّت في العالم، يُحيي ذكرى سقوط شهداء تلك المذابح في تلك الأيام الثلاثة من كل عام.

لم تمنع الاضطهادات الدينية الشعب الأشوري من الانقسام كنسياً، على غرار ما حصل بالنسبة لسائر الطوائف، مما سوف يؤدي إلى انقسام الكنيسة التي كانت تُعرف بالنسطورية إلى كنيستين: كلدانية كاثوليكية، واشورية أورثوذكسية.

المحاولة الأولى التي جرت لضم هذه الكنيسة إلى كنيسة رومة جرت زمن المغول، عهد البطريرك سبريشوع الخامس (١٢٢٦ ـ ١٢٥٧)، الذي استقبل أول الرهبان الدومينيكان، وأرسل سنة ١٢٤٧ موفداً خاصّاً إلى البابا إينوقنتيوس الرابع (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤) هو الراهب شمعون الملقب بـ «عطا» محمّلاً إياه رسالة تُعلن صورة ايمانه، وفيها يطلب الاتحاد مع رومة. ولكنّ تلك المحاولة قد باءت بالفشل. كذلك كان مصير المحاولة الثانية التي جرت عهد البطريرك المغولي الأصل ياولاها الثالث (١٢٨٣ ـ ١٣١٧) الذي أوفد الراهب برصوما الصيني الأصل بالاتفاق مع الأمير المغولي أراغون[1].

توقّفت تلك المحاولات حتى سنة ١٥٥١إذ توفي البطريرك شمعون السابع، وبما أنّ التقليد، كما سبق أن ذكرنا، كان يقضي بأن تنتقل البطريركية بالارث، لم يجد معظم الناس في ابن أخ البطريرك الراحل: دنحا، الصفات التي تؤهّله للبطريركية، فرشّحوا عوضاً عنه الراهب يوحنان سولاقا رئيس دير الربان هارفرد في القوش[2]، فالتأم مجمع الاساقفة في مدينة الموصل القريبة من الدير وانتُخب

١ ـ بداويد، ص ١٨٣

٢ ـ القوش: بلدة في العراق. مركز قضاء القوش، محافظة نينوى.

سولاقا بطريركاً لكنيسة ما بين النهرين، بموجب القوانين المثبتة في مجامع كنيسة ساليق وطيسفون، واقروا اتحاد كنيستها بكنيسة رومة. وسافر يوحنان سولاقا إلى رومة في ١٨ تشرين الثاني (نوڤمبر) ١٥٥٢، يرافقه وفد من الأعيان ورجال الدين، وقدّم صورة إيمانه الكاثوليكي إلى البابا يوليوس الثالث (١٥٥٠ ـ ١٥٥٥) الذي أمر برسامته أسقفاً من قبل ثلاثة كرادلة، ثم أعلنه بطريركاً على الكنيسة الكلدانية في بازيليك يوحنا اللاتراني في ٢٠ نيسان (إپريل) ١٥٥٣ باسم يوحنا. وهكذا كانت أول كنيسة شرقية تتّحد برومة بصورة رسمية.

عاد البطريرك الجديد إلى بلاده وجعل مقرّه في مدينة آمد[1]، وباشر على الفور بتنظيم جماعته الكاثوليكية، فرسم خمسة أساقفة لكل من: آمد، والجزيرة، وماردين، وسعرت، وحسن كيفا، مثبتاً بذلك مركزه ومُشجّعاً الكثيرين من محبّي الاتحاد بكنيسة رومة. إلاّ أن تلك الكنيسة الكلدانية الفتيّة لم تتمكّن من الصمود في وجه النظام العثماني الذي حرّضه على تلك الكنيسة البطريرك النسطوري شمعون الثامن، فسارع العثمانيون إلى إلقاء القبض على البطريرك سولاقا وقتله سنة ١٥٥٥، فكان أول شهداء الاتحاد. غير أن البطريرك شمعون دنحا لم يتمكّن من جمع شمل الطائفة بأجمعها تحت سلطانه، وبقي الفرع الكاثوليكي منفصلاً عنه[2]. وتأصّل العداء بين فرعي هذه الكنيسة، وكان العثمانيون يساندون الفرع النسطوري مما اضطر البطريركية الكلدانية، تجنّباً للاضطهاد، إلى الانتقال من آمد إلى سعرت فإلى أورميا وسلماس في أذربيجان، إلى أنْ عاد البطريرك شمعون الثالث عشر (١٦٦٢ ـ ١٧٠٠) إلى النسطورية. وانتقل مع أتباعه إلى بلدة قوجانس في جبال كردستان حيث بقي الكرسي النسطوري حتى الحرب العالمية الأولى.

بيدَ ان الاتصال بين الكلدان ورومة لم ينقطع. وقد قام به هذه المرّة يوسف

١ ـ آمد هي ديار بكر

٢ ـ بداويد، ص ١٨٢

اسقف ديار بكر النسطوري الذي اعتنق الكثلكة سنة ١٦٧٢، وتمكّن، ويا للغرابة، من أن يحظى من السلطان العثماني بفرمان يقرّه بطريركاً على ديار بكر وماردين وتوابعهما مستقلاً عن سلطة البطريرك النسطوري. ومنحه البابا اينوقنتيوس الحادي عشر (١٦٧٦ ـ ١٦٨٩) سنة ١٦٨٣ لقب بطريرك الكلدان. ثم خلفه المطران يوسف صليبا الذي اعترفت به روما سنة ١٦٩٦ تحت اسم يوسف الثاني، ثم البطريرك يوسف الثالث الذي عقد مع البطريرك النسطوري اتفاقاً ساس الأخير بموجبه أبرشيّتي الموصل وحلب، واحتفظ يوسف بديار بكر وماردين، وقد اقرّ الباب العالي هذا الاتفاق. ثم جاء يوسف الرابع الذي استقال من منصبه سنة ١٧٨١ تاركاً تدبير البطريركية إلى ابن اخيه اغسطينوس الذي لم تعترف به روما، إلاّ أنه بقي يدير شؤون الكلدان الكاثوليك في ديار بكر حتى وفاته، حيث عين البابا بيوس الثامن في ٥ تموز (يوليو) ١٨٣٠ مطران الموصل المتكثلك يوحنا هرمز بطريركاً على الكلدان ومنحه لقب: بطريرك بابل على الكلدان. وكان هرمز ابن عم البطريرك النسطوري ايليا الثالث عشر، وقد جعل الموصل مقر الكرسي البطريركي، وتوفي عام ١٨٣٨ لتستمر من بعده سلسلة البطاركة الكلدان الكاثوليك إلى اليوم[1]. وقد انتقل مركز البطريركية إلى بغداد.

وقبل نهاية العثمانيين كان الكلدان، الذين يعدّون اليوم حوالى نصف مليون نسمة أكثرهم في العراق، قد توزّعوا على أنحاء عدّة، فتبع بطريركيتها في بغداد تسع ابرشيات كبرى في العراق، وثلاث في إيران، وواحدة في تركية، بعد أن أُلغيت ثلاث إثر المذابح التي تعرّضوا لها خلال الحرب العالمية الأولى، وواحدة في حلب، وواحدة في مصر. إضافة إلى وجود كلداني في الولايات المتحدة الاميركية، واسترالية، والسويد، وفرنسة، وروما، والقدس، ولبنان. وكان قد تأسّس لهم رهبانية على اسم القديس هرمزد تجدّدت سنة ١٨٠٨ على يد جبرائيل دنبو المارديني الذي ترهّب لدى الرهبان الانطونيين الموارنة في دير مار إشعيا في لبنان،

١ ـ المرجع السابق، ص ١٨٣

ثم انتقل إلى العراق لبعث الحياة الرهبانية بين شباب الطائفة الكلدانية. كما تأسس رهبانيتان للراهبات: راهبات الكلدان بنات مريم المحبول بها بلا دنس (١٩٢٢). وراهبات القلب الاقدس (١٩١٥).

قدمِ الكلدان إلى لبنان على دفعات ابتداء من العام ١٨٩٥ هرباً من مذابح الاتراك والأكراد في بلاد ما بين النهرين، مروراً بالحرب العالمية الأولى، وصولاً إلى الحرب العالمية الثانية. و إذ أصبح عددهم في لبنان قرابة العشرة آلاف نسمة، عيّنت روما مدبّراً رسولياً لهم سنة ١٩٣٨ ليرعى شؤونهم الدينية مع الكلدان في سورية والاسكندرونة. وفي سنة ١٩٥٧ تأسّست أول ابرشية للكلدان في لبنان ومُنح أسقفها لقب مطران بيروت على الكلدان. ويتابع اكليريكيو هذه الطائفة دروسهم مع الموارنة في اكليريكية غزير وجامعة الروح القدس الكسليك في لبنان[1].

أما الكنيسة الأشورية فقد عادت وانقسمت بدورها إلى كنيستين: إحداهما محافظة مقرّها في بغداد مع بعض الأساقفة والكهنة، والثانية اصلاحية يرأسها بطريرك يقيم في شيكاغو حيث لجأ بضعة آلاف من الأشوريين، ويساعده أساقفة منتشرون في عدة بلدان، علماً بأن قسماً من الاشوريين في العراق يتبع بطريرك شيكاغو رغم وجود بطريرك أشوري في بغداد[2].

الكنيسة الأرمنية

لم يكن ما أصابّ الكنيسة الأرمنية في الحقبة العثمانية بأقل مما عانت منه الكنيسة الأشورية الكلدانية، أو الكنيسة السريانية الشرقية.

دخلت المسيحية أرمينية باكراً، ويحفظ التقليد الأرمني ان الرسولين تدّاوس

١ ـ المرجع السابق، ص ١٨٧ ـ ١٨٨

٢ ـ Kochassarly, P. 20

وبرتلماوس هما اللذان بشّرا الناس في الهضبة الأرمنية التي كانت تقع بين نهر الفرات، الذي يفصلها عن كلدوكية، لجهة الغرب، وبين جبال البونتيك وجورجية وسلسلة جبال القوقاز شمالاً، وايران وأذربيجان شرقاً، وسلسلة جبال طوروس وسهل الجزيرة والعراق جنوباً. وقد كانت مساحة الهضبة الأرمنية تقارب الـ ٢٥٠ ألف كلم[٢]. واثبتت الآثار وجود شهداء مسيحيين في أرمينية في حقبة ما بين القرنين الأول والثاني. وقد اشتهر من هؤلاء شهداء ارارات وقوسكيانك وسوكياسيانك. وفي المدونات انه بين العام ٢٤٩ و ٢٥٥ كان للأرمن أسقف بعث إليه القديس ديونيسوس الاسكندري برسالة يسأله فيها رأيه بقضية التوبة. وكان اسم ذلك الأسقف: مهروجان. وقد أدخل أحد آباء الكنيسة اللاتينية الكبار: ترتوليانوس، في تفسيره لأعمال الرسل، اسم الأرمن في صفوف الأوائل الذين اهتدوا إلى الدين المسيحي[١].

وقبل نهاية القرن الخامس كانت الكنيسة الأرمنية قد اعتنقت المونوفيزية[٢]. واستقلّت عن الكنيستين البيزنطية واللاتينية[٣]. وقد تمكّن الأرمن، تبعاً لهذه الاستقلالية الدينية، من المحافظة على استقلال متقطّع عن الامبراطورية البيزنطية. وعندما حاول بعض الأساقفة، بين نهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع، ان يقولوا بمبادئ كنيسة رومة، جوبهوا برفض الأكثرية، مما اضطرهم إلى مغادرة أرمينية والتوجّه إلى راڤينة ورومة في ايطالية حيث أسّسوا لهم الاديار[٤].

حتى مجيء الصليبيين فشلت محاولات عديدة هدف بعضها إلى الاتحاد مع

١ - سيبوه سركيسيان، الكنيسة الأرمنية الاورثوذكسية في لبنان، مجلّة المنارة ١٩٨٦، العددان الاول والثاني. ص ٩٢

٢ - ميشال يتيم، تاريخ الكنيسة الشرقية منشورات المكتبة البولسية، (طبعة ثالثة ١٩٩١) ص ١١٨ - ١١٩

٣ - راجع: Rondot, P. 174

٤ - جوزيف ارناؤوطيان، الأرمن الكاثوليك، الموسوعة المارونية (الكسليك ١٩٩٢)، ج١

الكنيسة البيزنطية، وبعضها الآخر مع كنيسة رومة. وفي القرن الحادي عشر تمركز الأرمن في مقاطعة كيليكية وانشأوا إمارة مستقلّة حالفت الافرنج. وقد منحت رومة أميرها الأرمني لاون الثاني التاج الملكي. وفي هذه الحقبة كان عدد الأرمن ملحوظاً في إمارتي اورفا الرها، وانطاكية، كما كان لهم وجود في مملكة القدس. وفي هاتين الامارتين كانت العلاقات حسنة بين الافرنج والأرمن.

اسفرت الحملات الصليبية عن حصول اتحاد بين الكنيسة الأرمنية والكنيسة الأم في رومة إذ اعترف الجاثليق[١] الأرمني غريغوريوس بأن في المسيح طبيعتين في مجمع القدس سنة ١١٤٠. وقد أُقرّ هذا الاتحاد في مجمع طرسوس المنعقد سنة ١١٩٦ في عهد الحبر الأرمني الأكبر: نرسيس شانور هالي. لكنّ هذا الاتحاد لم يدم أكثر من ثلاثة قرون، إذ بدأ يضعف في أواسط القرن الرابع عشر في مقابل الحزب المعارض للاتحاد. ولما سقطت مملكة كيليكية الأرمنية سنة ١٣٧٥ في أيدي المماليك، قضي على هذا الاتحاد[٢]. وكان أسقف أكتمار، وهي جزيرة في بحيرة ڤان، قد استقل عن الكنيسة الأرمنيّة الأم وحمل لقب جاثليق، وفي العام ١٣١١، استقلّ أيضاً أسقف القدس وحمل لقب بطريرك.

لن يستقرّ تمزّق الكنيسة الأرمنية على هذا الحدّ، بل إنّ الحقبة العثمانية سوف تكون عهد الانفصالات والانقسامات في هذه الكنيسة.

ذلك أنّ الانقسامات داخل الكنيسة الأرمنية إبّان الحقبة العثمانية تجاوزت الثنائية التقليدية: الكاثوليكية والأورثوذكسية، بل إنّ الصف الاورثوذكسي قد انقسم على نفسه، ولم تستقر الجماعة الكاثوليكية وتثبت بشكل دائم وواحد قبل منتصف القرن الثامن عشر.

أبرز محطّات الانقسام هذه كان سنة ١٤٤١ عندما احتجّ عدد كبير من

١ - الجثليق والجاثليق، جمعها جثالقة: متقدم الاساقفة. يونانية الأصل.

٢ - يتيم، ص ٢٣٣

الأرمن على موقف جاثليقاً كيليكية الموالي للاتحاد مع رومة، فانفصلوا عنه، وأقاموا لأنفسهم جاثليق آخر في مدينة أشمازين بأرمينة الكبرى قرب القفقاز. ولما استولى محمد الفاتح على القسطنطينية أقام سنة ١٤٦١ بطريركاً أرمنياً في اسطنبول، وجعله مسؤولاً سياسياً عن جميع الأرمن القاطنين في دولته. إلاّ أن الكلمة العليا، من الناحية الدينية، قد أصبحت بذلك لجاثليق اشمازين لدى الفروع الأرمنية[1]. بيد أن القسطنطينية قد غدت مركز اجتذاب لعدد من الأرمن الذين جاؤوا ليقيموا فيها، ولينتظموا من ثم ضمن جماعة مزدهرة. هذا الواقع أدى إلى إفادة نظام الحكم العثماني منه، فراح يشجّع بطاركة القسطنطينية الأرمن غير الخلقيدونيين ضد الأرمن الكاثوليك. فحصلت اضطهادات مروعة في أواخر القرن السابع عشر في مدينة اندرينوبل Andrinople للأرمن الكاثوليك، ما لبثت ان اتخذت طابعاً عاماً إذا امتدت إلى جميع الامبراطورية العثمانية وتخوم سورية ولبنان ومصر[2].

في هذه الأثناء عانى الأرمن الكاثوليك كل المعاناة، إذ اصبحوا ممزّقين بين اللاتين من جهة والارمن غير الخلقيدونيين من جهة ثانية. فكانوا إذا ارتادوا كنائس الافرنج، اعتبرهم هؤلاء غرباء لأن صفة غير الخلقيدونيين كانت قد التصقت بصفة الانتماء الأرمني؛ وكانوا إذا ارتادوا الكنائس الأرمنية غير الخلقيدونية يخالفون، بارتيادهم هذا، السلطات الكنسية الكاثوليكية التي كانت تمنع الاتصال بغير الخلقيدونيين؛ فلم يبق أمامهم سوى ان يؤلفوا جماعة مستقلة تحت سلطة رئيس روحي كاثوليكي. في هذا السياق انتخب ثلاثة اساقفة أرمن كاثوليك بمشاركة أربعة عشر كاهناً، وبعض الأعيان الأرمن، في ٢٦ تشرين الثاني (نوڤمبر) ١٧٤٠ بطريركاً في حلب هو إبراهيم بطرس الأول اردزيڤيان (١٦٤٩ - ١٦٧٩). وبعد مرور سنتين على هذا الانتخاب تبنته رومة. وقد قام هذا البطريرك،

١ - المرجع السابق
٢ - ارناؤوطيان، المرجع ذاته

الذي بات يعرف بالكاثوليكوس، بزيارة رومة، حيث تلقّى الباليوم من يدي الحبر الأعظم بينيديكتوس الخامس عشر. وكي لا يتعرّض لمثل ما تعرّض له سواه من سائر رؤساء الطوائف الكاثوليكية، عاد هذا البطريرك من رومة، ليس إلى حلب، بل إلى كسروان لبنان، ليستقر في دير كان قد بناه الاخوة موراديان الحلبيو الأصل سنة ١٧٢٣، وهو الدير المعروف بدير المخلّص الكريم[1].

قصة هذا الدير انه في العام «١٧٠٨ قصد دير مار انطونيوس قزحيا شابان من طائفة الأرمن الكاثوليك هما: يعقوب ويوحنا، وأرادا ان يتعوّدا على الحياة النسكية والعيشة المشتركة، ويتعلّما السير الرهباني وتهذيبه الصادق، ليتيسر لهما أن ينشئا رهبانية لطائفتهما. مكث الشابان في دير قزحيا عشر سنوات، وفي ١٨١٨ انضمّ إليهما الأسقفان ميناس وأبراهام الحلبيان، فأسسوا رهبانية الأرمن الكاثوليك في دير المخلّص المعروف بالكريم، نسبة إلى كرم صغير بني في غوسطا، وتبعوا قوانين الرهبانية المارونية وفرائضها. وكان الشيخ صخر بن أبي قانصوه الخازن قد وقف سنة ١٧١٦ على الأرمن الدير المذكور[2]».

لم يكن مجيء الأخوين موراديان إلى لبنان فريداً من نوعه. فلقد كان سبق ذلك لجوء عائلات أرمنية إلى الجبال اللبنانية، على مراحل مختلفة، هرباً من الاضطهادات، سواء عندما استولى الأتراك السلاجقة سنة ١٠٦٤ على أرمينية وعاصمتها آني، أو عندما احتلّ الأتراك العثمانيون الامبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية سنة ١٤٥٣. وبعد ان استقرّت هذه العائلات في جبال لبنان ووهادها العصيّة، انتقل بعض منهم، مع الأيام، إلى طرابلس وبيروت وكسروان. وفي جوار زغرتا قرية صغيرة اسمها: بيت البايع، جميع أهلها من أصل

١ - ارناؤوطيان، المرجع ذاته
٢ - مفرّج، الموسوعة اللبنانية المصورة، ج ٣، ص ٢٦٣؛ الأب بطرس فهد، تاريخ الرهبانية المارونية بفرعيها الحلبي واللبناني، (جونيه - لبنان ١٩٦٨)

أرمني، ينتمون إلى أسرة بايان التي حُرِّف اسمها مع الأيام إلى: بايع. وفي هذه القرية كنيسة تحوي اثريات باللغة الأرمنية يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر[1].

بانتقال بطريرك الأرمن الكاثوليك إلى كسروان أخذت هذه الطائفة تنمو في لبنان. وبعد ان استقرّ البطريرك في دير الكريم الذي غدا مركزاً للكرسي الذي يعتلي، وقَف الشيخ شرف الخازن والشيخ انطون قبلان الخازن على طائفة الأرمن الكاثوليك مزرعة بزمّار برمتها، وهي مزرعة تقع بجوار غوسطا قرب حريصا. وكانت رهبانية القديس انطونيوس الأرمنية الكاثوليكية قد نمت نمواً سريعاً، وأصبحت توفد المرسلين عبر كيليكية. وقد تمكّن رهبان دير الكريم من تأسيس دير آخر في بيت خشبو قرب غزير في حوالى العام ١٨٢٠ وجعلوه على اسم القديس انطونيوس، فعُرف باسم دير ما انطونيوس خشبو. مع هذا النمو قام رجال الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية في لبنان ببناء دير كبير على أرض بزمّار التي أوقفت لهم. وفي سنة ١٨٦٥ باع الرهبان الأرمن دير الكريم إلى المطران يوحنا حبيب، مؤسس «المرسلين اللبنانيين» الموارنة، الذين أصبحت رهبانيتهم تُعرف بالكريميّة. وانتقل مقر البطريركية الأرمنية إلى دير بزمّار الذي أضحى مركزاً لبطريركهم ومعهداً لإكليروسهم[2] لعب دوراً هاماً في عهد المتصرفية في لبنان إذ كان بعض المتصرفين من طائفة الأرمن الكاثوليك. ولا يزال هذا الدير يشكّل المرجع الأول لطائفة الروم الكاثوليك ليس في لبنان وحده بل في العالم أجمع.

كانت المذابح التي تعرّض لها الأرمن في العهد العثماني من أفظع المجازر التي عرفتها البشرية في تاريخها. يبدأ تاريخ هذه الاضطهادات القاسية في خريف ١٨٩٥ في ديار بكر، حيث حرّض العثمانيون الأكراد والعشائر المسلمة ضدّ المسيحيين، وجلّهم من الأرمن، وزودوهم بالاسلحة، وأشاعوا لهم النهب واحتواء

---

١ - الأب إسحق كيشيشيان، الأرمن، الموسوعة المارونية (الكسليك ١٩٩٢)؛ سركيسيان، ص ٩٤ ـ ٩٥

٢ - مفرّج، الموسوعة اللبنانية المصوّرة، ج ٣، ص ٢٩، ٢٥١، ٢٦٢ ـ ٢٦٣؛ البطريرك بولس بطرس مسعد، الدر المنظوم، مطبعة الرهبان اللبنانيين (١٨٦٣)؛ بطرس فهد تاريخ الرهبانية؛ الحتوني، المقاطعة الكسروانية.

أموال المسيحيين. وفي ساعة الصفر المَعينة وفق مخطط مدروس انقضّ هؤلاء على المسيحيين ورموا بالنار كل من طالت اسلحتهم، وساروا إلى بيوتهم ومنازلهم وقتلوا من كان فيها ونهبوا ما طالت يدهم، وقبل غروب شمس ذلك اليوم القاتم، كان زيت النفط قد صُبّ على كل ما يملكه مسيحي وأضرمت فيه النار حتى أمست ديار بكر أتوناً. وجاء تدخّل السلطات فيما بعد ليطلق الحرية لمن شاء من المسيحيين أن يغادر ديار بكر، فتمكن بذلك الناجون من الهجرة بعد ان باعوا ممتلكاتهم بأبخس الأثمان[1].

في الوقت نفسه، لا بل في الساعة نفسها، حدث في قرى السعدية وميافرقين وقره باش وقطربل ما حدث في ديار بكر. كما جرى ذبح المسيحيين الأرمن في الرها داخل الكنائس. كذلك الأمر في قرية تل أرمن القريبة من ماردين. ولقد كان شهر تشرين الثاني (نوڤمبر) من سنة ١٨٩٥ شهر ذبح المسيحيين من أرمن، على مللهم، وسريان. وقد اجتاحت المذابح، إضافة إلى ما ذكرنا، قرى وبلدات: الكولية (القصور)، بنابيل شرقي ماردين، قلعة المرأة، دير الزعفران، المنصورية، نصيبين وطور عابدين، وايران شهر بيركه، إضافة إلى ماردين[2].

ومن تمكّن من النجاة من تلك المذابح الجماعية ولم يهاجر إلى خارج تلك المناطق وانتظر هدوء الموجة ليعود إلى بعض تلك القرى، كان نصيبه أو نصيب ابنائه أن يلاقي مصيراً مماثلاً لمصير أولئك الذين ذُبحوا بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ وتحديداً سنة ١٩١٥، خلال الحرب العالمية الأولى، حيث تمّ ذبح وتهجير مَن تبقّى من المسيحيين، وجلّهم من الأرمن في: ديار بكر وماردين وسائر قرى ما بين النهرين[3].

---

١ - الأب إسحق أرملة، القصارى في نكبات النصارى (١٩١٩) ص ٤٣ ـ ٤٩

٢ - المرجع السابق، ص ٤٩ ـ ٦٦

٣ - المرجع السابق

كان عدد الأرمن في تركية قبل الحرب العالمية الأولى حوالى مليون نسمة ونصف. ونتيجة المذابح والاضطهاد لم يبق منهم حالياً هناك إلاّ زهاء سبعين ألف نسمة من الأورثوذكس، معظمهم في القسطنطينية وليس لهم إلاّ أسقف واحد هو البطريرك القسطنطيني الخاضع لجاثليق اشمازين. وقد قُدِّر عدد الذين ذُبحوا بين ١٨٩٤ و ١٨٩٦ بحوالى مئة ألف أرمني. وقد ذُبح سنة ١٩٠٩ في أدنه وحدها بخلال أسبوعين أكثر من عشرين ألف أرمني. وقد قضى أكثر من مليون ونصف مليون نسمة من الأرمن الذين كانوا في الامبراطورية العثمانية، ذبحاً، في أفظع مجزرة بشرية عرفها التاريخ في أوائل هذا القرن[1]. وقد تشتّت الشعب الأرمني في مختلف أنحاء العالم: في الشرق الأوسط واليونان وفرنسة والهند وباكستان وأميركا الجنوبية والولايات المتحدة وأوروبة الشرقية والغربية. ولم ينجُ الأرمن، الذين كانوا يتوطّنون في الامبراطورية الروسية سابقاً والاتحاد السوفياتي لاحقاً، من المذابح. فلمّا نشبت الثورة في روسية سنة ١٩١٧ وقضت على حكم القياصرة، أعلن الأرمن استقلالهم داخل الجمهورية الأرمنية، وتسلّم زمام الحكم حزب الطاشناق. ولما انتصر الشيوعيون في روسية تحالفوا مع الاتراك، الذين احتلّوا قسماً كبيراً من أراضي الجمهورية الأرمنية الواقعة على الحدود التركية، وقضوا على سكانها الأرمن، واستولى الروس على القسم الباقي وفرضوا فيه الحكم الشيوعي نهاية ١٩٢٠، ودمجوه بالاتحاد السوفياتي، قبل أن ينفرط عقده مؤخراً ليعود الأرمن ويحاولوا استعادة استقلالهم. علماً بأن الشيوعيين كانوا قد قمعوا حرية الكنيسة، ولم يعد لجاثليق اشمازين امكانية الاتصال بسائر الأرمن قبل نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥، إذ راح يبثُّ الدعاية بين الأرمن المنتشرين في أنحاء العالم كي يعودوا إلى الجمهورية الأرمنية. وحاول جاثليق اشمازين بسط نفوذه وسلطته على جميع الأرمن، خاصّة على جثلقة سيس في سورية ولبنان.

١ - يتيم، ص ٣٣٦؛ سركيسيان، ص ٨٩

تكثّفت الهجرة الأرمنية إلى لبنان إبّان المذابح والاضطهادات التي تعرّض لها الأرمن حيث ما وجدوا. ولم تقتصر هذه الهجرة على الأرمن الكاثوليك، بل إنّ الأرمن الأورثوذوكس الذين قصدوا لبنان يزيد عدد أولئك أضعافاً. وقد بلغت هذه الهجرة ذروتها خلال الحرب العالمية الأولى، وخاصة منذ اشتداد المجازر في ١٩١٥. وفي ١٩٣٩ حصلت هجرة أرنية مباشرة إلى لبنان، إذ جاء حوالى العشرة آلاف أرمني واستوطنوا بلدة عنجر في البقاع. وكانت جماعات أخرى قد توزّعت على مخيمات سُمّيت بأسماء المدن الأرمنية، مثل مرعش، وأدنة، وسيس، وسواها ومن ثم توزّع الأرمن في مختلف المناطق اللبنانية، وخاصة في مُلتقى قضاء المتن ومدينة بيروت، حيث باتوا يعيشون بكثافة ناشطة. ويبلغ اليوم عدد الأرمن في لبنان حوالى ربع مليون نسمة[1].

كاثوليكوسية (بطريركية) الأرمن الأورثوذوكس المعروفة بكاثوليكوسية الأرمن لبيت كيليكية، كانت تستقرّ قبل المجازر في مدينة سيس جنوب تركية الآسيوية (كيليكية) التي جرت فيها رسامة القديس غريغوريوس المنوّر أسقفاً سنة ٢٦٧، فأصبحت ذات مكانة دينية لدى الأرمن. وتحتلّ عندهم كاثوليكوسيّة سيس بدورها مقاماً رفيعاً يرمز إلى الوحدة الأرمنية. وقد تمكّن هذا المقام عبر التاريخ من القيام بدور هام في تطوير حياة الشعب الأرمني من النواحي الدينية والثقافية والعلمية، ومن جمع شملهم من الناحية الوطنية. هذا الكرسي، نقله الأرمن المهاجرون إلى انطلياس من وسط الساحل اللبناني، وجعلوه مركزاً روحياً وقومياً، يغطّي جميع حاجات الكنيسة، ليس فقط في لبنان وسورية، بل وفي قبرص وإيران واليونان والولايات المتحدة الأميركية وكندا، حيث الابرشيات الأرمنية الأورثوذوكسية التابعة لهذا الكاثوليكوس[2]. وقد تعاقب على كاثوليكوسية الأرمن الأورثوذوكس في انطلياس خمسة بطاركة من سنة ١٩٣١، قاموا بدور طليعي في

١ - سركيسيان، ص ٩٥
٢ - المرجع السابق، ص ٩٨

مختلف الميادين، فأسّسوا المدارس والأكليريكيات والجمعيات الخيريّة وملاجئ الأيتام ودور العجزة والمستشفيات وسوى ذلك من الأعمال الإسكانية والتعليمية والاجتماعية على أنواعها.

أمّا الشعب الأرمني، فقد نشط في مسيرة استعادة حياته في لبنان، فتمكّن في وقت قصير من تحقيق مكانة ملحوظة وفاعلة له في المجتمع اللبناني المركّب، وبات يشارك في الحياة السياسية للدولة اللبنانية مشاركة حيويّة وعضويّة.

الموارنة

عندما فتح العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣، ومن ثمّ جعل الفاتحون بطريرك القسطنطينية ممثّل المسيحيين في الأمبراطورية تجاه الأمبراطور، كان على السدّة البطريركية المارونية في جبل لبنان البطريرك يعقوب الحدثي، الذي تلقى من رومة براءتين، بعد أن تمّ انتخابه إثر وفاة البطريرك يوحنا الجاجي سنة ١٤٤٥. وكان هذا الأخير قد انتُخب سنة ١٤٠٤، وأقام في بلدة ميفوق من أعالي بلاد جبيل. وفي العام ١٤٣٨ تلقى دعوة من البابا أوجين الرابع (١٤٣١ ـ ١٤٤٧) لحضور المجمع الفلورنسي، فأرسل «فراجوان» رئيس رهبان مار فرنسيس في بيروت، «ليعرب للحبر الأعظم عن استعداده لقبول كل ما يحدّده المجمع من عقائد وما يسنّه من قوانين، ويكرر طلب منحه براءة التثبيت[1]».

في ١٢ شباط (فبراير) ١٤٣٩ عُرضت في ذلك المجمع مراسلات البطريرك يوحنا و«أمّة الموارنة في لبنان والقدس وقبرص. وفي ١٠ حزيران (يونيو) من السنة نفسها تقرّر تثبيت البطريرك وايلاؤه كل الإنعامات التي تمتّع بها أسلافه. وأرسل إليه البابا مع الباليوم رسالة أبان له فيها كل ما بذله من جهود حتى توصّل

١ ـ الخور اسقف يوسف داغر، بطاركة الموارنة، المطبعة الكاثوليكية، سلسلة نصوص ودروس رقم ٤ (بيروت ١٩٥٧) ص ٤٠

إلى إقناع ملك الروم وبطريرك القسطنطينية بالرجوع إلى حضن الكنيسة وإزالة شقاق مضى عليه ٤٥٠ سنة، حتى شاهد العالم اساقفة الشرق والغرب على أتمّ وفاق في ما يتعلّق بالقضايا المختلف عليها سابقاً، أخصّها قضية رئاسة البابا ومسألة انبثاق الروح القدس من الآب والابن وعدم انفصام عقد الزواج... فتهلّل العالم أجمع وفرحت السماء بهذا اليوم الذي صنعه الرب[1]». غير أن «هذه البهجة» لن تدوم طويلاً، فبعد ثلاثة عشر عاماً، سوف تفضّل القسطنطينية «عمائم الشيوخ على تيجان الكرادلة[2]». وفي ١٤٧٢، سوف ينعقد في القسطنطينية مجمع يتقرّر فيه، تحت تأثير سياسة السلطان العثماني، العودة إلى الانفصال.

في هذه الأثناء، كان المماليك لا يزالون يسيطرون على لبنان. ولدى عودة القاصد الرسولي فراجوان إلى بيروت، قبض عليه الجند بأمر من سلطات بيروت، بحجّة أنه عميل للغرب، «وما أن درى السيد البطريرك بالأمر حتى دعا بعض الأعيان وكلّفهم السعي لإخلاء سبيل القاصد الرسولي، فشخصوا إلى المدينة وخاطبوا الحاكم في قضية الإفراج عن الموفد البابوي، فصرّح لهم بأنه لا يُطلق سراحه إلاّ لقاء كفالة شخصية يتعهدّ بالقيام بها كلّ أعضاء الوفد الحاضرين فقالوا: نحن كلّنا كفلاء. عندئذ صدر الأمر باخلاء سبيل القاصد، فشخص حالاً إلى ميفوق وسلّم البطريرك درع الرئاسة ثم توارى. وما أن عرف النائب بذلك حتى أمر باحضار الكفلاء وفرض عليهم غرامة مالية باهظة، فمن تمكّن من الدفع فاز بالنجاة ومن عجز كان نصيبه الشنق. ثم أمر الحاكم بمداهمة دير ميفوق والقبض على الرهبان، فأخذهم الجند إلى طرابلس بعد أن قتلوا بعضهم وأحرقوا البيوت والارزاق، أما البطريرك فلجأ إلى وادي قاديشا وسكن دير قنوبين[3]».

وقبل أن يتمّ الفتح العثماني لهذه المنطقة سنة ١٥١٦، كان المماليك قد

١ ـ المرجع السابق.
٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٣ ص ٣
٣ ـ داغر، بطاركة الموارنة، ص ٤١

حمّلوا صنوف المحن للموارنة، وقد اضطر البطريرك بطرس الحدثي (١٤٥٨ - ١٤٩٢) إلى أن يبيع آنية الكنائس وأن يتبرّع بمداخيل الكرسي البطريركي لدفع الضرائب التعجيزية المفروضة على الفقراء، وقد استغاث هذا البطريرك بروما التي بادرت إلى معونته بما خفّف كثيراً من الاثقال عن شعب لبنان.

قبل الفتح العثماني بسنة واحدة، ثبّتت رومة بطريركاً آخر على الموارنة هو شمعون الرابع الحدثي (١٤٩٢ - ١٥٢٤) الذي خلف الحدثي وقد جاء في براءة الباليوم التي أرسلها الحبر الأعظم إليه: «نشكره تعالى لأنه بعظيم حلمه شاء أن تكون الأمّة المارونية، وسط أهل الكفر وأصحاب البدع، مصونة كالوردة بين الاشواك، وذلك لتسبحة اسمه ولارتداد غير المؤمنين إلى الايمان[1]».

هذا البطريرك، هو الذي عاصر الفتح العثماني سنة ١٥١٦، وقد استثناه السلطان سليم الاول من بين بطاركة سائر الطوائف إذ لم يفرض عليه الفرمان السلطاني. وقد كان وراء ذلك عدّة أسباب سياسية، منها أن السلطان سليم اراد ان ينال تأييد تلك الاقلّيات التي طالما عانت من ظلم المماليك، وأن الامراء اللبنانيين غير التنوخيين قد ساندوا السلطان سليم في معركته الفاصلة بمرج دابق ضدّ المماليك، وقد كان من بين جنود اولئك الامراء مقاتلون موارنة. لذلك فعندما اقرّ الفاتح العثماني فخر الدين الأول وسائر الأمراء اللبنانيين على إقطاعهم، لمّا ذهب وفدهم إلى دمشق وأعلن له الولاء، فرض عليهم جزية طفيفة[2] في مقابل الضرائب الباهظة التي كان يجبيها المماليك، وأمرهم بأن يعدلوا بين الرعية. ولكنّ هذا الوضع الاستثنائي، أي حسن معاملة الحكّام العثمانيين للرعايا من غير المسلمين، لن يدوم طويلاً. فلم تكن تلك البادرة سوى مظهر دبلوماسي قضى به ظرف معين.

١ - المرجع السابق، ص ٤٣

٢ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨؛ حيدر الشهابي، الغرر الحسان في تاريخ حوادث الزمان، نشر نعوم مغبغب (القاهرة ١٩٠٠) ص ٥٦٤ - ٥٩٩؛ عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني (جونيه ١٩٣٤) ص ٩.

في هذه الحقبة الاستثنائية بلغت قوة المعنيين السياسية التي كان قد اسّسها فخر الدين الأول المتوفي سنة ١٥٤٤ «ذروتها في عهد حفيده فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠ - ١٦٣٥)... وكان بنو عسّاف من كسروان، يتولّون الحكم في شمالي لبنان وكانت بينهم منافسة. وكان بنو عسّاف من أصل تركماني قدموا كسروان سنة ١٣٠٦، وكانوا من جملة الامراء اللبنانيين الذين أرسلوا وفداً لتقديم الولاء إلى السلطان سليم، وقد أضيفت جبيل إلى ممتلكاتهم، التي كانت في عهد الامير منصور العسّافي (١٥٢٢ - ١٥٨٠) تمتدّ من ضواحي بيروت إلى عرقة شمالي طرابلس. وكان مركز الحكم العسّافي بلدة غزير. وفي أيام العسّافيين ازدهرت مناطق كسروان اقتصادياً كما لم تزدهر من قبل. فأتت جماعات من الشيعة من مناطق بعلبك وتوطّنوا في فاريا وحراجل. وجاء مسلمون سنّيون من البقاع واستوطنوا ساحل علما وفيطرون. وانتشر دروز المتن في قرى عديدة، وغادرت طرابلس جماعات من الموارنة ونزلوا في عرمون والكفور ومنطقة الفتوح[1]». وفي الحقبة نفسها أخذت العائلات المسيحية المارونية، التي هجرت القسم الجنوبي من جبل لبنان بسبب اجتياح المماليك له بين نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع، تعود إليه، وإن كان ذلك الجبل قد بقي خالياً من السكان أكثر من مئتي سنة[2] (١٣٠٧ - ١٥١٦).

وقد نشأ في هذه الحقبة، أو تطوّر، نظام لبنان الامارة، وقد كان نظاماً إقطاعيّاً. ومن ضمن هذا النظام أُقطعت المناطق المارونية إلى أسر كانت تمثّل العائلات المارونية أمام الأمير. ومن تلك الأسر المشايخ آل الخازن في كسروان وآل حبيش في فتوح كسروان الذين كانت العلاقة بينهم وبين الأمراء المعنيين، ومن بعدهم الشهابيين، علاقة ممتازة[3].

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٤٥٠ - ٤٥١؛ البطريرك اسطفانون الدويهي، تاريخ الازمنة، المطبعة الكاثوليكية (بيروت ١٩٥١) ص ٢٣٨ وما بعدها.

٢ - مفرّج، الموسوعة اللبنانية المصورة، ج ١ و ٢ و٣

٣ - راجع: طنوس الشدياق تاريخ الأعيان في جبل لبنان، ج ١ و ٢

قبل ذلك التاريخ كان أحد المقدمين الموارنة، وهو مقدم بشري عبد المنعم المتوفي سنة ١٤٩٥ «قد خرج عن دين جدوده، وأفسح في المجال لليعاقبة حتى استقدموا من القدس اسقفهم ديوسقورس واستولى على عدّة أديار في لبنان. مما دعا البطريرك شمعون الرابع الحدثي إلى: إيقاد نار الحمية في نفوس أبنائه، فنهض الاهدنيون وحملوا على الهراطقة حملة شتّتت شملهم. فغضب عبد المنعم واستنجد بأولاد الشيخ زعزوع المتاولة... فحشدوا جيشاً من رجال مقاطعة الضنية وقصدوا إهدن. حتى إذا وصلوا إلى محلة تولا انقضّ عليهم الاهدنيون وضربوهم الضربة القاضية. ولما رأى اليعاقبة ان لا قِبَل لهم بالاقامة بين الموارنة رحلوا عن لبنان مُكرهين[1]».

فقد كان في لبنان بعض أماكن يسكنها يعاقبة جاؤوا من الخارج، وأقدم هذه المواضع ثغر جونية[2]، كما كان لهم مركز في حردين[3]. وقد حدثت حروب طاحنة بين الموارنة واليعاقبة في مناطق لبنان الشمالي أدّت في النهاية إلى انقراض اليعقوبية من لبنان.

مع نهاية القرن الخامس عشر، ونهاية وجود الطائفة اليعقوبية في لبنان، ونهاية عبد المنعم مقدم بشري، كان وضع المقدمين الموارنة في الشمال قد تدهور بسبب طغيانهم وخروجهم على الدين أحياناً، وبرز الدور الفعّال للبطاركة ورجال الدين الموارنة في خدمة المجتمع الماروني، نظراً للصلة الوثيقة بين هؤلاء وعامّة الشعب[4]. وقد كان البطريرك شمعون الرابع الحدثي واضع هذا التحوّل من خلال قضائه على المقدم الخارج على الدين: عبد المنعم.

١ - يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٤٣؛ قابل: بطرس الجميل، زجليات جبرائيل ابن القلاعي، سلسلة أصول ومراجع تاريخية، دار لحد خاطر (بيروت ١٩٨٢) ص ٨٦ - ٨٧

٢ - الادريسي، فلسطين وسورية، ص ١٧ من النص العربي، نشر جيلدمايستر

٣ - الدويهي، تاريخ الازمنة، ص ٢١٩

٤ - محمد علي مكّي، لبنان ٦٣٥ - ١٥١٦ من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ط ٢، دار النهار (بيروت ١٩٧٩) ص ٢٧٩

خلف الحدثي البطريرك موسى العكّاري الذي انتخب في نهاية ١٥٢٤، يوم كانت المسألة الشرقية قد استعادت أهميتها وأعارها الكرسي الرسولي أهميّة خاصة. وفي عهد هذا البطريرك قصد رومة وفد من موارنة وملكيين ودروز مُبدياً الولاء لحبرها الأعظم، مما جعل هذا الأخير يعين ممثّلاً له تجاه هذه الطّوائف[1]. على أنه في هذه المرحلة كانت العلاقات قد بدأت تسوء بين الحكم العثماني والاقليات اللبنانية واكثريّتها الممثّلة بالموارنة، مما قرب بين الدروز والموارنة إلى درجة جعل الأولين يشاركون في ذلك الوفد الذي قصد رومة طالباً مساعدتها للتخلّص من الحكم العثماني. وقد كتب البطريرك العكّاري إلى الامبراطور «شارل كان» سنة ١٥٢٧، يدعوه لتحرير لبنان من أيدي العثمانيين، مُبدياً استعداده لأن يضع تحت تصرّفه خمسين ألف مقاتل ماروني مدرّبين أفضل تدريب مستعدّين لحرب الاستقلال[2]. وعندما لم يلاق هذا البطريرك أي استعداد من الغرب لحملة صليبية جديدة، كرمى لعين الموارنة، حاول طريقاً آخر لتخفيف الضّغط عن رعيته، فاختار قسّيساً مارونياً يُجيد اللغة التركية، هو الأب أنطون الحصروني، فأرسله إلى حلب لمقابلة السلطان التركي سليمان الملقب بالقانوني، وقد أُعجب السلطان العثماني بفصاحة الراهب الماروني وقوة برهانه، فأنفذ أمراً همايونياً إلى قاضي طرابلس يقضي بعدم التعرض للبطريرك المارونيّ من قبَل أيّ كان، وبالسهر على: «أن تبقى حقوق الطائفة المارونيّة مرعية بنوع خاص، وأن يعاقب بشدة كل من يتجاسر على مخالفة هذا الأمر[3]».

هذا البطريرك الداهية الذي أخذ على عاتقه المحافظة على الحقوق القديمة لطائفته، وعلى صيانة حرية أفرادها في أمور دينهم ودنياهم، بقي معفى من طلب الفرمان السلطاني. ولم تتوقّف اهتماماته عند هذا الحدّ، بل سعى لتحسين أوضاع

١ - يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٤٥

٢ - المرجع السابق، ص ٤٥ بالاستناد إلى: Rabbat, Documents... 2, 616

٣ - المرجع السابق، ص ٤٦

أبناء طائفته مُبدياً اهتماماً فريداً، في ذلك العصر، بأمور التعليم والثقافة. فقصد المدينة المقدّسة سنة ١٥٦١، حيث زار المرسلين الفرنسيسيين، حرّاس القبر المقدّس، طالباً من رئيسهم إرسال العلماء من رهبانيته لتدريس العلوم الفلسفية واللاهوتية في مدارس لبنان.

لا يمكن أن يكون من المصادفة تدفّق الأسر المارونية من شمالي لبنان إلى جباله الغربية الجنوبية في عهد ذلك البطريرك. فإنّ القرائن تدلّ على انه كان للبطريرك العكّاري اليد الطولى في التشجيع على ذلك الانتقال. وقد ورد في بعض المدونات ان العكّاري قد سعى لنقل سركيس الخازن من جاج إلى عجلتون، وأولاد الجميل من جاج إلى بكفيا، وبيت كميد إلى غزير. ونُسب إليه أنه كان وراء علاقة الصفاء والمودة التي قاربت بين الموارنة والدروز الذين عقدوا في عهده تحالفاً مكّنهم من الوقوف في وجه أهل الفساد وتجاه باشاوات الباب العالي، حتى جعلوا ولاية هؤلاء تقتصر على بعض المدن الساحلية.

حاول البطريرك مخايل الرزي، الذي خلف العكّاري إثر وفاة هذا الأخير سنة ١٥٦٧، أن يسير على خطى سلفه. وكان أهم نشاط له انه سعى إلى انشاء مدرسة للطائفة المارونية في رومة، وبدأ باعداد مجمع طائفي ماروني لن ينعقد إلاّ بعد وفاته سنة ١٥٨١. وقد خلفه شقيقه سركيس الرزي الذي نشأت في عهده المدرسة المارونية في رومة سنة ١٥٨٥ يوم كان البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢ - ١٥٨٥) على سدة رومة. وفي عهده عُقد أول مجمع طائفي ماروني سنة ١٥٩٦ قبل وفاته بسنة واحدة، ليخلفه ابن أخيه البطريرك يوسف الرزي الذي نقل الطائفة المارونية إلى اتّباع التقويم الغريغوري المنسوب إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر، فكانت ردّة فعل الروم على اتّباع الموارنة للتقويم الغربي بالغة المعارضة والاستنكار، إذ سارع بطريركهم إلى مراسلة حافظ مدينة دمشق، «بقوله ان الامة المارونية بلبلت جميع الطوائف الشرقية بتغييرها حساب السنين وزمن

الأعياد». فما كان من الباشا إلاّ أن أمر بإلقاء القبض على كهنة الموارنة وأعيانهم، وقد بذل البطريرك الرزي أقصى الجهوّد لفكّ أسرهم[1].

وفي آخر سني هذا البطريرك شهد جبل لبنان أزمة اقتصادية خانقة، بسبب رفع الضرائب من قبل السلطنة على أبناء الجبل انتقاماً من انتفاضة قام بها الشيخ علي جنبلاط، وهو من أتباع الأمير فخر الدين، فكان الانتقام يصل إلى جميع المناطق التي كانت تحت سلطة هذا الأخير. وقد سجّلت المدوّنات لهذا البطريرك انه: «احتمل من أتعاب الكفاح في سبيل إعادة السلم ما لا يمكن وصفه. فاعتلّت صحته وانتقل إلى جوار ربه في شهر آب أغسطس من سنة ١٦٠٨. وبقي الكرسي البطريركي شاغراً مدّة تسعة أشهر بسبب ذلك الاضطراب[2].

خلف البطريرك يوسف الرزي بطريرك إهدني هذه المرة، هو: يوحنا مخلوف المعروف بالاهدناني أو الاهدني. انتُخب سنة ١٦٠٩ واثبته البابا بولس الخامس في ١٦١٠. وقد كان هذا البطريرك الشفوق، كما وُصف، «مسموع الكلمة لدى الباب العالي، يأتمر بأمره الحكام». وقد تمكّن من استصدار أوامر العفو من الباب العالي عن محكومين قبيل اعدامهم بساعات. وقد اقتنى للكرسي البطريركي املاكاً واسعة. وفتح للطائفة مدرسة اكليريكية في حوقا، أعدت لمدرسة الطائفة في رومة طلاباً متفوقين، وقد أشرف شخصياً على اكليريكية حوقا، وكانت علاقته مع الطلاب مباشرة. وكان مخلوف أول من سام مطراناً متخرّجاً من مدرسة رومة. هذا المطران هو أسحق الشدراوي، وقد سيم على طرابلس، واشتهر ببراعته في العلوم الطبيعية والفلسفية واللاهوتية. وقد برز أسقف آخر من تلامذة رومة في هذه الحقبة هو يوحنا الحصروني، الذي ترجم بعض مؤلّفات القديس توما الأكويني إلى اللّغة العربية. ونادى بالحساب الغريغوري في حلب. وعندما استدعاه والي دمشق لمحاكمته إثر قيام القيامة عليه من قبل رؤساء الطوائف الشرقية، دافع هذا الأسقف

١ - المرجع السابق، ص ٤٩ - ٥٠

٢ - المرجع السابق، ص ٥٠؛ الدويهي تاريخ الأزمنة، ص ٢٩٨ - ٣٠٠

عن صحّة تقويم حساب السنين الحديث ببراهين أفحمت الحاضرين، وكان لها الأثر الفعّال في إدخال هذا التقويم إلى الشرق. بيدَ أن هذا الاسقف كان قصير العمر فتوفي سنة ١٦٢٨، وتبعه البطريرك مخلوف بعد خمس سنوات، وكان قد أدار شؤون البطريركية ربع قرن.

يُستفاد من هذه المستجدّات ان الطائفة المارونية كانت قد بدأت تحقّق، في الربع الاول من القرن السابع عشر، بعض التقدّم على دروب العلم والتحصيل. وقد كان لمدرسة رومة المارونية اعمّ الفضل في ذلك. وكانت هذه الحقبة زمن ازدهار نسبي بالنسبة لهذه الطائفة التي عمّرت كنائس عديدة. «وتحرر ابناؤها من شروط أهل الذمّة، فركبوا الخيل بسروج، ولفّوا شاشات بكرور، وحملوا البنادق المجوهرة». واستقبلوا الارساليات، وكان أوّلها الكبوشيين. وكان الأمير فخر الدين يرجع في أهم الأمور إلى البطريرك الماروني. وكان أكثر جنده ومستشاريه وكواخيه من المسيحيين، وخاصّة الموارنة. وفي هذه الحقبة حاول الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير توحيد الإمارة وتحصيل استقلالها، وتوسيع حدود البلاد. وقد عقد المحالفات مع أوروبة. حتى إنه طمع بالاستانة ذاتها. وقد برز في هذا الدور المطران جرجس عميره[1]، الذي أرسله البطريرك مخلوف سفيراً إلى رومة وتوسكانة للمفاوضة مع البابا ومع الغراندوق فردينان الأول أمير توسكانة، وسائر أمراء وملوك أوروبة لخلق حلف ضد تركية. وكان العلاّمة ابراهيم الحاقلي[2] صاحب مكانة خطيرة في الفاتيكان، فساعد كثيراً البطريرك والأمير على ما فيه خدمة الجبل اللبناني. وعندما حضر الأمير فخر الدين إلى أوروبة كلّف المطران جرجس عميره بوضع كتاب في الاستراتيجية الحربية يومذاك، يتناول هندسة الأبراج والحصون والقلاع.

---

١ ـ جرجس عميره: ولد في إهدن. تعلّم في رومة. سيصبح بطريركاً للموارنة (١٦٣٣ ـ ١٦٤٤) سعى في طبع كتاب القدّاس الماروني مع سركيس الرزي سنة ١٥٩٤

٢ ـ إبراهيم الحاقلي أو الحاقلاني (١٦٠٥؟ ـ ١٦٦٤): ولد في حاقل جبيل (لبنان) وتوفي في رومة. من مشاهير علماء الموارنة. تعلّم في رومة. عمل كاتباً في خدمة فخر الدين المعني الثاني. علّم اللغات السامية في رومة وبيزا وباريس. له: «مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب».

غير أنّ رياح الأقدار جرت بما لم تشتهِ سفينة فخر الدين. فكانت حرب الثلاثين سنة التي اشتدت وطأتها في أوروبة، وكان تفشّي وباء الطاعون في ايطالية مما شغل البابا والغراندوق عن الأمير والبطريرك، فاغتنمت السلطنة هذا الانشغال وجهّزت حملة قاضية على فخر الدين، الذي توقفت عنه الاعانات الغربية، فاضطر إلى الاستسلام، ونُقل مع انجاله إلى اسطنبول حيث غُدر بهم بعد وفاة البطريرك مخلوف بسنتين (١٦٣٥). وتلاشى حلُم[1].

بموت البطريرك يوحنا مخلوف سنة ١٦٣٣، وإعدام الأمير فخر الدين المعني الثاني سنة ١٦٣٥، خلف الأول بطريرك اهدني آخر هو جرجس عميره، وخلف الثاني ابن أخيه يونس: الأمير ملحم. وقد تعاون الخلفان مثلما تعاون السلفان. وقد سعى البطريرك عميره لدى الفاتيكان ليتوسّط مع فرنسة كي يقنع ملكُها حليفَه العاهل العثماني بأن يعترف بالأمير ملحم خلفاً لعمّه في الامارة، وقد تمّ ذلك بفضل وساطة البطريرك[2]. بيدَ أنّ عمر هذا البطريرك كان قصيراً فتوفي سنة ١٦٤٤، كما توفيّ الأمير سنة ١٦٥٨. وكان عمر خليفة الأوّل: البطريرك يوسف العاقوري أقصر من سلفه، فتوفّي سنة ١٦٤٦، بعد أن أشرف على عقد مجمعين مارونيين صدر عنهما قوانين كنسية هامة. ويُعزى إليه أنه كان المؤسس الروحي لطائفة السريان الكاثوليك. وقد انتقلت السدة البطريركية بعد وفاته إلى البطريرك يوحنا الصفراوي، وهو البطريرك الثاني عشر من البطاركة الذين أقاموا

---

١ ـ الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢، ٣١٠، ٣١٣، ٣٢٥ ـ ٣٣٣؛ بولس قرأ لي: فخر الدين المعني الثاني (حريصا ١٩٣٧) ص ١٣ ـ ١٤، ٣٧ ـ ٣٨؛ عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني (جونيه ١٩٣٤)؛ أحمد الخالدي الصفدي، تاريخ الامير فخر الدين، نشره أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني، (بيروت ١٩٣٦)؛ أنيس النصولي، رسائل الامير فخر الدين (بيروت ١٩٤٦)؛ Paolo carali, Faklr Ad-din IIe, la corte di., Toscana, (Rome 1936); Colonel churchill, mount Lebanon: A ten year's residense, (London, 1853); De lamartine, voy age en orient, (Paris, 1859); George Sandys, A relalion of a Journey, (London, 1621); Michel chebli, Farkhreddine II Maan, prince du Liban (Beirut, 1946).

٢ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٥٦

في قنوبين[١]. أصله من أسرة البوّاب، وقد نُسب إلى بلدة الصفره في فتوح كسروان حيث نشأت عائلته. وفي السنة التي انتُخب فيها البطريرك الصفراوي جدّد الملك الفرنسي لويس الرابع عشر عهد حماية فرنسة للموارنة عبر مرسوم جاء فيه:

> «ننهي إلى سفيرنا في الشرق وإلى الذين سيخلفونه أن يُسعفوا الموارنة لدى صديقنا المعظم (السلطان) لينجزوا أعمالهم ويتصرّفوا بمقتضيات مراتبهم الروحية بتمام الحرية. ونأمل من قناصل دولتنا في كل موانئ الشرق بأن يساعدوا السيد البطريرك وكل أبنائه الموارنة. ونطلب من السادة الكبار، باشاوات ومأموري الحضرة السلطانية العلية، أن يعاونوا البطريرك ورئيس أساقفة طرابلس وجميع الاكليروس الماروني وكل أبناء الطائفة المارونية[٢]».

بلغت مكانة البطريركية المارونية في هذه الحقبة أن أصبح البطريرك يعيِّن قناصلة فرنسة في لبنان. فلقد أرسل الصفراوي إلى فرنسة المطران اسحق الشدراوي ليطلب باسمه قنصلية فرنسة في مدينة بيروت للشيخ أبي نوفل الخازن فأُجيب إلى طلبه[٣].

من شأن رواية ما جرى للبطريرك المنتخب جرجس حبقوق البشعلاني الذي كان من المفروض أن يخلف يوحنا الصفراوي المتوفي سنة ١٦٥٦، أن تفيدنا عن مدى الزهد الذي كان يتحلّى به رجال الدين لتلك الطائفة في ذلك الزمان. علماً بأن القداسة تُنسب إلى صاحب السيرة السابق، البطريرك الصفراوي، الذي دُوّنت عنه شهادات تُفيد بأن نوراً سماوياً كان يسطع منه وحوله عندما كان ينفرد للصلاة ساعات وساعات.

في اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك الصفراوي اجتمع الأساقفة والمشايخ والأعيان وانتخبوا المطران جرجس حبقوق البشعلاني بطريركاً على الكرسي

١ ـ الدويهي، تاريخ الازمنة، ص ٣٤٦
٢ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٥٨
٣ ـ المرجع السابق

الماروني لانطاكية وسائر المشرق. أمّا المطران جرجس فقد خرج من المجمع واختبأ في صومعة أحد الرهبان، فخلع الشعب باب الصومعة وحملوه عنوة إلى دهليز الكنيسة، حيث قال: «دعوني استرح قليلاً وما ترغبون فيه سيكون». فتركوه ليأخذ بعض الراحة، غير أنّه تمكّن من الفرار واختفى في وادي قنوبين إلى ان تمّ انتخاب البطريرك البسبعلي[١]، وهو جرجس ابن الحاج رزق الله من قرية بسبعل من أعمال زاوية طرابلس، الذي عُرف عنه أنه أجاد جميع اللغات الشرقية وخاصة التركية، وقد كان بارعاً في علم الحقوق البيعية. وكان يخاطب حكام البلاد وأولياء الشأن في الآستانة، ويضع التقارير لاطلاع الباب العالي مباشرة على أحوال البلاد ولابلاغه شكاوى المظلومين[٢].

في هذه الأثناء كان شأن الامارة قد ضعف نسبة لما كان عليه في عهد فخر الدين. وقد توفي الأمير ملحم في السنة نفسها التي تمّ فيها انتخاب البطريرك جريس البسبعلي (١٦٥٧) لينتقل الحكم إلى ولده الأمير أحمد، آخر الأمراء المعنيين. أما شأن البطريركية المارونية فكان يزداد خطورة، خاصة إثر انتخاب اسطفانوس الدويهي بطريركاً خلفاً للبطريرك جرجس البسبعلي سنة ١٦٧٠.

وُلد اسطفانوس الدويهي (١٦٣٠ ـ ١٧٠٤) في إهدن من أعالي شمالي لبنان. تعلّم في رومة وعاد إلى بلاده يعظ ويعلم. عُيّن اسقفاً على قبرص قبل ان يُنتخب بطريركاً. له مؤلفات دينية وتاريخية أهمها: «منارة الأقداس» و«ردّ التّهم» و«تاريخ الأزمنة» و«تاريخ الطائفة المارونية». وكان قد أرسله البطريرك يوحنا الصفراوي إلى حلب حيث أقام خمس سنوات اقنع في خلالها عدداً غير قليل من روم ونساطرة ويعاقبة باتباع الايمان الكاثوليكي.

كان هذا البطريرك أول من سكن قريباً من مركز الامارة في الشوف، إذ

١ ـ الدويهي، تاريخ الازمنة، ص ٣٥٤
٢ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٦٠ بالاستناد إلى: De la Roque

جعل له مقراً مؤقتاً في قرية مجدل معوش، لينتقل فيما بعد إلى كرسي قنوبين. وعلى الرغم من أن مطاحنات أهلية كثيرة جرت في أيامه فقد احتمل مشقّات ومظالم عديدة، واضطّر في أحيان كثيرة إلى ان يلجأ إلى أماكن نائية ليجتهد في تصنيف مؤلّفاته. وقد بلغ تحمّله لشظف العيش أقصى الحدود، فهو لم يأكل لحماً طيلة حياته إلاّ عند اعتلال صحّته وبناءً على إشارة طبيب.

ركّز الدويهي على إصلاح شؤون طائفته من النواحي الايمانية والتنظيمية. فطاف في كل الابرشيات واختار كهنة ذوي علم وتقوى، وتفحّص الكتب البيعية، وأصلح ما أوقعه فيها النساخ من اغلاط، وردّ القواعد إلى أصولها، وغربل مصاحف المؤرخين، ومصنّفات الآباء القديسين من شرقيين وغربيين، وزادت مؤلفاته على الثلاثين كتاباً جلّها محفوظ في مكتبة الفاتيكان.

وبفضل عناية هذا البطريرك الفذ نشأت حوالى سنة ١٦٩٤ رهبانية القديس انطونيوس المارونية، التي ازدهرت بتدريبه وتوجيهاته، فصار إثباتها من قبله أولاً ثم من قبل الحبر الأعظم.

وعندما تعرّض مسيحيو لبنان للحيف من قبل السلطات العثمانية تدخّل في سنة ١٧٠٠ مع ملك فرنسة، فكان له ما أراد بفضل تدخّل السفير الفرنسي لدى الباب العالي. وعندما طلبت السلطنة إليه أن يقدّم إلها طلباً لتثبيته من قبل الباب العالي بطريركاً عبر فرمان سلطاني، اعتصم البطريرك الدويهي بامتيازات طائفته وحماية فرنسة رافضاً الخضوع للباب العالي.

وبعد أربع وثلاثين سنة قضاها اسطفانوس الدويهي جاداً ساعياً دون أن يذوق طعم الراحة، توفي سنة ١٧٠٤، وقد أصبح ضريحه مزاراً لمؤمنين كثيرين ذكروا أنهم نالوا بشفاعته منحاً ونعماً غزيرة[1].

١ - يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٦٠ - ٦٢

خلف الدويهي بطريرك آخر لم يعش سوى سنة واحدة. هذا البطريرك هو جبرائيل البلوزاني، الذي انتخب في دير مار شليطا مقبس في كسروان. وللدلالة على مكانة البطريرك الماروني في بداية القرن الثامن عشر، تفيد المراجع انه لمّا تقرّر موعد انتقاله إلى كرسيه في قنوبين، أعدّ له استقبال حافل على مستوى وطني، إذ أرسل الشيخ عيسى حمادة الشيعي، متولي مقاطعة الجبة، احد أنجاله على رأس أربعين خيّالاً لمواكبته. وأرسل باشا طرابلس الفرقة الموسيقية الرسمية مع عدد من الموظفين ليشتركوا في استقباله مع المشايخ والأعيان وجمهور الشعب.

غير أنّ مكانة هذه البطريركيّة قد تزعزعت في بداية القرن الثامن عشر اثر انتخاب يعقوب عواد بطريركاً سنة ١٧٠٥ وتثبيته من قبل رومة سنة ١٧٠٦. فقد حصلت ضجّة داخل الكنيسة اثر رواج إشاعات حول سلوكه، اعتقد صحتها المطران جرجس يمين الإهدني، الذي استدعى الأساقفة إلى اجتماع طلبوا بخلاله محاكمة البطريرك الذي لم يتأخر عن الحضور، وقد صدر الحكم بعزله، وأُقيم مكانه السيد يوسف مبارك الريفوني. وعندما وصل الخبر إلى رومة سارع البابا كليمانص الحادي عشر (١٧٠٠ - ١٧٢١) إلى توجيه حارس القبر المقدس إلى جبل لبنان ليحقّق في الأمر. وبعد أن نظر المجمع المقدّس في تقرير الموفد البابوي سنة ١٧١١، تأكدت له براءة البطريرك، فأمر بإرجاعه إلى منصبه وبمعاقبة المطران يمين بفرض الأقامة الجبرية عليه في رومة ومنعه من الرجوع إلى لبنان، وعاد البطريرك إلى كرسيه بعد أن رضخ جميع خصومه لحكم رومة، وبقي يدير شؤون البطريركية بعد ذلك مدّة اثنتين وعشرين سنة انتهت بوفاته سنة ١٧٣٣، ليخلفه البطريرك يوسف ضرغام الخازن، الذي عُقد في عهده المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦ في دير اللويزه من أعمال كسروان. وبخلال هذا المجمع فضّت الخلافات على يد البابا بينيديكتوس الرابع عشر (١٧٤٠ - ١٧٥٨). وكان أبرز من وضع مقررات ذلك المجمع الشهير، أحد عظماء علماء الموارنة في الشؤون الشرقية، وهو يوسف سمعان السمعاني (١٦٨٧ - ١٧٦٨) المولود في طرابلس والمتوفى في رومة

والمعروف بالسمعاني الكبير لتمييزه عن يوسف لويس السمعاني (١٧١٠ - ١٧٨٢)، المولود في حصرون لبنان والمتوفى هو الآخر في رومة، وهو ابن اخت السمعاني الكبير الذي ألفّ مجموعة نصوص طقسية. ولتمييزه أيضاً عن اسطفان عوّاد السمعاني (١٧١١ - ١٧٨٢)، أمين المكتبة الفاتيكانية. وعن أنطون السمعاني (١٧٧٥ - ١٨١٨) الذي اشتغل في مكتبة الفاتيكان. وأيضاً عن سمعان السمعاني (١٧٥٢ - ١٨٢١) الذي ولد في حصرون وتوفي في بادوَا حيث علّم اللغات الشرقية.

أما السمعاني الكبير فقد تعلّم في رومة، وعمل أحد أمناء المكتبة الفاتيكانية قبل أن يعيّن موفداً باباوياً للمجمع اللبناني سنة ١٧٣٦. له: «المكتبة الشرقية الكليمانتينة الفاتيكانية» باللاتينية، وصف فيها المخطوطات السريانية والعربية والفارسية والتركية والعبرية والسامرية والأرمنية والحبشية واليونانية والمصرية والاندلسية والمالابارية التي تحويها هذه المكتبة وجغرافية وتاريخ الشرق.

رغم أن المجمع اللبناني قد حلّ جميع الشؤون العالقة داخل الطائفة المارونية، فإنّ عملية انتخاب بطريرك ليخلف البطريرك يوسف الخازن المتوفى سنة ١٧٤٢، قد أدّت إلى حصول انقسامات. ذلك أن المقام البطريركي، كان قد أضحى رمز القيادة الدينية والسياسية على السواء عند الطائفة المارونية، ولم يكن هناك مركز آخر مماثل أو قريب منه مكانة. فأضحى التنافس على هذا المركز تنافساً سياسياً في أحد وجوهه، لعبت فيه العائلية والاقليمية دوراً ملموساً. واذا لم يكن ذلك التنافس بين المرشّحين على البطريركية انفسهم، فقد كان بين القريبين منهم بصلة الدم أو بصلة الاقليمية. وكانت بوادر هذا الصراع قد بدأت في عهد البطريرك اسطفانوس الدويهي. ويمكن القول إن الطائفة المارونية كانت دوماً، ولا تزال، تتّحد عندما تتعرّض للخطر من الخارج، وتتفرّغ للتصارع على القيادة والزعامة عندما يتراءى لها، ولو خطأً، أن لا خطر عليها من الخارج. تجدر الاشارة إلى أن أعيان الطائفة المارونية وأسرها الاقطاعية كانوا يشتركون في انتخاب البطريرك.

وسط هذه المعطيات، عندما انتُخب الأسقف سمعان عوّاد بطريركاً ليخلف البطريرك يوسف ضرغام الخازن اثر وفاة هذا الأخير ربيع ١٧٤٢، وإذ رفض عوّاد قبول هذا المقام السامي زهداً وتعففاً، صار انتخاب الأسقف الياس محاسب بطريركاً. وكان أحد أبناء الأسرة الخازنية الاقطاعية المارونية، المطران طوبيا، غائباً، فادّعى أنه لم يبلّغ الدعوة إلى مجمع الانتخاب واعترض على قانونيّته، واتّفق مع اثنين من المطارنة على سيامة اسقفين جديدين انضما إلى مريديه، ضامناً بذلك الأكثرية اللازمة لانتخابه، وعقد مريدوه مجمعاً أقاموه فيه بطريركاً. وكانت النتيجة أن أصبح للطائفة المارونية، لأول مرة في تاريخها، بطريركان. ثم رفع كل من المنتخبَين أمره إلى رومة التي سارعت إلى الحكم ببطلان الانتخابين، وأقدم البابا بينيديكتوس الرابع عشر، أيضاً لأول مرّة في تاريخ الطائفة، وتفادياً للخلاف والبلبلة، على تعيين الاسقف سمعان عوّاد بطريركاً، وهو الذي كان قد رفض قبول هذا المقام عند انتخابه. وقد رأت رومة في ذلك أنها لم تقدم على تعيين بطريرك للطائفة المارونية إنما هي فرضت على البطريرك المنتخب شرعياً القبول بمنصبه.

أقام هذا البطريرك في ناحية الشوف لتسهُل عليه المراجعات مع أمير لبنان. وقد اختار محلاً لسكنه في إقليم جزّين، قرب صيدا، حيث بنى ديراً للرهبان اللبنانيين يُعرف بدير مشموشه. غير أن البطريرك طوبيا الخازن، الذي خلف عواد بعد وفاته سنة ١٧٥٦، وهو أحد البطريركين المنتخبين واللذين أبطلت رومة انتخابهما، قد نقل الكرسي إلى مسقط رأسه عجلتون. وترأس هذا البطريرك السدة مدّة عشر سنوات، ليخلفه سنة ١٧٦٦ البطريرك يوسف اسطفان[1].

يبدو واضحاً، من خلال مراجعة سيرة هذا البطريرك، ان الصراعات السياسة كانت لا تزال دارجة على السدة البطريركية، إذ كانت هذه الاخيرة لا تزال تشكّل المركز القيادي الروحي والزمني الأوحد لدى الطائفة المارونية. كان هذا

١ - المرجع السابق ص ٥٥ - ٧٢

البطريرك صلب العود لا يهادن في الحق ولا يداور ولا يعرف مرونة أو ليناً[1]، ومن أبرز انجازاته أنه، بناء على الحاح الشيخ غندور بن سعد الخوري[2]، قد حوّل دير عين ورقة، الذي كان موقوفاً لأسرة البطريرك، إلى مدرسة اكليريكية عامة، فتحت عبرها الطائفة المارونية تاريخ التربية في لبنان. إذ مثّلت عين ورقة، أمّ المعاهد في لبنان، دوراً خطيراً في الحقول الدينية والوطنية والثقافية، فخرّجت للطائفة المارونية خمسة بطاركة وثلاثين مطراناً وعدداً كبيراً من الكهنة، إضافة إلى معظم مؤسسي المعاهد اللاحقة. وقد تخرّج منها عدد كبير من رجال العلم والسياسة، كالمعلمين من آل البستاني وشدياق ودحداح وغيرهم ممن ذاعت أسماؤهم في الشرق[3].

ويبدو ان الطموحين من خصوم هذا البطريرك لم ييأسوا من إيجاد مسألة يحاربونه من خلالها، فأوجدوا مشكلة بدأت صغيرة ولكنّها ما لبثت أن تعاظمت فعُرفت بقضية هندية. وهندية هي راهبة مارونية اسم مولدها حنة عجمي (١٧٢٠ - ١٧٩٨). وُلدت في حلب وجاءت إلى لبنان سنة ١٧٥١ حيث أنشأت جمعيّة للراهبات، وزعمت أنها تتمتّع بمواهب روحيّة فائقة، فأنشأت الأديار، ومنها دير بكركي الذي سيتحوّل فيما بعد مركزاً رئيسيّاً للبطريركيّة المارونيّة. وقد أضحى ذلك الدير في عهد هندية مركزاً ممتازاً للنقل والترجمة والتأليف.

ناصر هندية البعض وقاومها آخرون. وكان على رأس من دعموا تلك الراهبة، البطريرك سمعان عوّاد، وهو البطريرك الأسبق قبل البطريرك يوسف

١ - انطوان عقيقي، ثورة وفتنة في لبنان (بيروت ١٩٢٨)
٢ - الشيخ غندور السعد (١٧٥٧ - ١٧٩٠): من أعيان الموارنة اللبنانيين في القرن التاسع عشر. ولد في رشميا (قضاء عاليه - لبنان) خلف والده كمدير للأمير يوسف الشهابي. عُيّن قنصلاً لفرنسة في بيروت سنة ١٧٨٧ بناء على طلب من البطريرك الماروني يوسف اسطفان إلى الملك لويس السادس عشر. لحق بالأمير يوسف إلى عكة حيث قتل بأمر الجزّار.
٣ - لمزيد من المعلومات حول معهد عين ورقة راجع: مفرّج، الموسوعة اللبنانية المصورة، ج ٣، ص ٢٥٧ - ٢٦٢؛ الحتوني، المقاطعة الكسروانية؛ الأب مخايل غبريل الشبابي، كشف النقاب عن بقعة بيت شباب؛ عيسى اسكندر المعلوف، دواني القطوف في تاريخ بين المعلوف، المطبعة العثمانية (بعبدا ١٩٠٧ - ١٩٠٨)؛ لحد خاطر، آل السعد في تاريخ لبنان، مطبعة الرهبانية المارونية اللبنانية (بيروت ١٩٧٠)

اسطفان. وقد رفع الخصوم الشكاوى ضد هندية إلى رومة التي وجّهت سنة ١٧٥٣ أحد مبعوثيها ليحقق في أمر الراهبة، فكان تقريره مبرئاً لها من أي اتّهام.

في عهد بطريركية طوبيا الخازن، الذي استمر عشر سنوات، نامت مسألة هندية، كون البطريرك الخازني قد أحسن علاقة الكرسي البطريركي مع جميع الأطراف، فلم تحرَّك ضد الأمّ هندية ايّة مسألة. وبوصول يوسف اسطفان إلى السدة البطريركية، واختلافه مع فريق من الأساقفة جرّاء قيامه بالاصلاحات في أبرشيّاتهم، ألّف هؤلاء حزباً ضدّه ضمّ فريقاً من الأعيان، وانضمّ جميع هؤلاء إلى خصوم هندية السابقين، وراحوا يناصبون البطريرك العداء، مما دفعه إلى انزال التأديبات الكنسية بهم دون هوادة. فاحتدم النزاع حتى أجمع خصوم البطريرك على تنظيم عرائض ورفعها إلى الكرسي الرسولي وإلى الأمير يوسف شهاب، مضمِّنين محتواها شتّى الاتّهامات ضد البطريرك وهندية. فما كان من رومة إلاّ أن أرسلت قاصداً جديداً إلى لبنان أواخر سنة ١٧٧٨ لاعادة النظر في موضوع الراهبة هندية. فكانت توصية القاصد الرسولي هذه المرة تقضي بحلّ رهبنة هندية للشك في صحة ايمانها بموضوع اللاهوت والناسوت، وصدر الأمر الفاتيكاني بنفي تلك الراهبة التي ماتت في العذاب والشقاء. وكان قد شارك في مخاصمة البطريرك الأمير يوسف شهاب الذي كان يطمع بثروة الدير[1]، إلاّ أن البطريرك اسطفان قد أكمل ولايته حتى توفاه الله في نيسان (إپريل) ١٧٩٣ فخلفه البطريرك مخايل فاضل الذي لم يعش سوى سنة ونيف. جاء بعده البطريرك فيليپوس الجميّل الذي عاش عشرة أشهر فقط.

في هذا الوقت كان حكم الامارة قد انتقل من المعنيين، بوفاة آخر أمير منهم سنة ١٦٩٧، وهو الأمير ملحم، إلى الامراء الشهابيين الذين تسنّموا كرسي الامارة

١ - لمزيد من المعلومات حول الراهبة هندية راجع: مفرّج: الموسوعة اللبنانية المصورة، ج ٣، ص ٤٤ - ٤٦؛ الحتوني، المقاطعة الكسروانية؛ خاطر، آل السعد في تاريخ لبنان؛ داغر، بطاركة الموارنة.

إثر اجتماع قومي عام عقده وجهاء لبنان سنة ١٦٩٧ في السمقانية بالقرب من بعقلين في منطقة الشوف، حيث أجمعوا على انتخاب الأمير بشير الشهابي من راشيا حاكماً على لبنان. وكان هذا الأمير ابناً لأخت الأمير أحمد، آخر الأمراء المعنيين. ولما أُرسل قرار اجتماع السمقانية إلى اسطنبول، أصرّ الباب العالي على أن حيدر الشهابي من حاصبيا ابن بنت الأمير أحمد المعني، آخر المعنيين، هو أحقّ بالولاية من بشير الشهابي إبن أخت أحمد. و إذ كان حيدر ابن اثنتي عشرة سنة، أعلن الباب العالي أن بشيراً يتولى الحكم بالنيابة عن حيدر إلى أن يبلغ هذا الأخير أشده. وقد احتفظ الأمير بشير الأول بولايته حتى ١٧٠٧ لما توفيَ مسموماً. وقد اتّهم من كانوا يتولون أمر وصيه بدس السمّ له. وقد حكم حيدر حتى سنة ١٧٣٢، وقضى على الحزب اليمني المناوئ للامارة في معركة عين دارة سنة ١٧٢١، وأعاد التقسيم الإقطاعي لصالح القيسيّين. وكان مشايخ الاقطاع الماروني من الحزب الأخير، بحيث أنّ التوافق الذي نشأ بين الإمارة والبطريركية في عهد المعنيين، قد استمرّ مبدئياً في بداية عهد الشهابيين. وسوف يستمر الشهابيون في الحكم قرابة قرن ونصف (١٦٩٧ - ١٨٤١)، وقد عملوا خلال هذه المدّة من أجل المحافظة على نوع من التوازن السياسي بين الموارنة والدروز بتحريض حزب على حزب، أو إثارة شيخ ضد شيخ آخر[١].

كان قد خلف ثاني الأمراء الشهابيين الأمير حيدر موسى شهاب (أمير ١٧٠٦ - ١٧٣٢) الأمير الثالث ولده ملحم شهاب (أمير ١٧٣٢ - ١٧٥٣) الذي تمكّن من اسقاط ثلثي الضرائب التي كان يتقاضاها السلطان من لبنان. وأقرّ سيادته على البقاع واتّخذ بيروت مرفأ لامارته. وفي سنة ١٧٥٤ تنازل الأمير ملحم عن الامارة وانقطع إلى حياة تديّن وزهد وأقام في بيروت. علماً بأن الشهابيين لم يكونوا يوماً دروزاً بل كانوا من المسلمين السنة. وقد انعكف الأمير

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٤٧١ - ٤٧٢

ملحم بعد تزهّده على درس الفقه، ومعاشرة علماء الاسلام. أما ولداه فقد اعتنقا المسيحية، ثم تبعهما اقاربهما من الأمراء الدروز اللمعيين. وأما أخواه: الأمير منصور، الذي كان يميل إلى الحزب الجنبلاطي، والأمير أحمد الذي كان يميل إلى الحزب اليزبكي، فقد اختصما وتحاربا في سبيل الحصول على الامارة.

في خضمّ الصراع على السلطة، وبعد الحروب الحزبية القيسية اليمنية، استمرّت الاضطرابات الاهلية في الجبل اللبناني إلى أن نودي بالأمير يوسف شهاب، ابن الأمير ملحم، أميراً على لبنان في مؤتمر الباروك سنة ١٧٧٠ بعد تنازل عمّه الأمير منصور. وقد أقر يوسف الأمن في جرود جبيل والشمال بعد أن شهدت هذه المناطق نزاعات بين الموارنة والشيعة. وكان الوصي على الأمير يوسف مارونياً من رشميا اسمه سعد الخوري[١]. هو والد غندور سعد الخوري الذي سبقت الاشارة إلى ان البطريرك يوسف اسطفان عمل على تعيينه من قبل فرنسة قنصلاً لها في لبنان. ويمكن اعتبار الأمير يوسف شهاب (١٧٧٠ - ١٧٨٨) أول أمير مسيحي يتمتّع بالسلطة التّامة من السلطنة العثمانية[٢]. ومع نهاية القرن الثامن عشر إنتقلت الامارة الشهابية إلى الأمير بشير الثاني الكبير، بعد أن أمر والي عكة، أحمد باشا الجزّار[٣] سنة ١٧٨٨ وجهاء لبنان بأن ينتخبوا بشيراً، وهو أحد أقارب يوسف الذي قتله الجزار في سجن عكة، وكان بشير في الحادية والعشرين من عمره. ولن يطول الزمن حتى يدرك الجزار «ان الامير بشير لم يكن بالحاكم

١ - راجع: حيدر شهاب، الغرر الحسان، ص ٧٨٣

٢ - Churchill. Vol. III, P. 109

٣ - أحمد باشا الجزار (بين ١٧٢٠ - ١٧٣٥ - ١٨٠٤): ولد في البوسنة مسيحياً. في السادسة عشرة من عمره اعتدى على امرأة أخيه وهرب إلى اسطنبول وباع نفسه الى تاجر رقيق يهودي. استقرّ مباعاً كعبد إلى علي بك في القاهرة، الذي أقامه جلاداً. بعد ان اعتقه سيده انتقل إلى دمشق حيث التحق بالجيش السوري. جزاءً لخدماته في الجيش أعطي ولاية صيدا. وسرعان ما استولى على بيروت ثم جرّد لبنان من أقسامه الداخلية فأحكم قبضته على الجبل. لقّب بالجزار بعد المجزرة التي أوقعها بالبدو في مصر فذهب ضحيتها نحو سبعين ألفاً منهم. حصّن عكة وقاوم فيها حصار بونابرت بمساعدة الاسطول الانكليزي سنة ١٧٩٩.

الذي يتلقى التعليمات، ويدرك المشايخ والمقاطعجية والوجهاء ان سلطتهم ستزول عندما يتسلّم أميرهم الجديد سلطاته كحاكم على لبنان[1]». وإذ كان بطاركة الطائفة المارونية جهة من الجهات التي كانت تفرض، بشكل أو بآخر، بعض المواقف على الأمير، فبعد استلام بشير الثاني الحكم لن يكون للبطريركية المارونية من سلطة، بعد بداية القرن التاسع عشر، كما كان لها من قبل.

صادفت نهاية القرن الثامن عشر عملية زحف القائد الفرنسي نابوليون بونابرت على المنطقة اوائل سنة ١٧٩٩. وقد وجّه نابوليون إلى الأمير بشير منشوراً شهيراً قال فيه: «قد افتتحت مصر وقطعت التيه ودخلت سورية وهزمت جيش الجزار وحصرته في عكّة فأطلب أن توافوني لنسحق العدو المشترك» ولمّا كان الأمير مدركاً قوة عكة الدفاعية التزم الحياد، ناوياً الانضمام إلى الجيش الفرنسي إذا ما سقطت قلعتها.

في هذا الوقت كان قد انتُخب الاسقف يوسف التيان بطريركاً على الطائفة المارونية سنة ١٧٩٦. فأوعز إلى ابنائه بأن يتطوّعوا في الجيش الفرنسي، وإلى الشيخ يوسف حمزه حبيش الماروني بأن يقود المتطوّعين إلى ساحات القتال. وأمر بارسال المؤن والذخائر إلى الجيش الفرنسي مع وفد من أعيان البلاد. ولكن حملة نابوليون قد فشلت أمام هجوم الجزار في ربيع ١٧٩٩. وبذلك قوي مركز الأمير وضعف موقع البطريرك.

هنا بدأ الصراع واضحاً بين الأمير الطامح إلى الاستفراد بالحكم، والبطريرك الماروني الذي أراد أن يحافظ على موقع كرسيه. وإثر خلافات مبدئية، أقدم الأمير على رفع قيمة الضرائب ستة أضعاف، فعارضه البطريرك دون جدوى إلى أن هدّده بالحرم إن لم يتراجع عن قراره. فما كان من الأمير إلاّ أن استدعى القاصد الرسولي إلى قصره في بيت الدين ونقل إليه أنه من المستحيل عليه التفاهم مع هذا

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٠٠

البطريرك، وانه لم يعد بامكانه الصبر. فنقل السفير تهديد الأمير إلى البطريرك في دير مار شليّطا مقبس في كسروان. وكان ردّ البطريرك أنه بذل كل ما بوسعه لأجل الاتفاق مع هذا الأمير الذي أناء الشعب تحت وطأة الضرائب والفتن، فكانت نتائج سياسته حروباً ومداهمات، خصّ منها بالذكر الثورة المعروفة بـ «عامية لحفد» التي ذهب ضحيتها أبرياء. وتدخّل في الشؤون الروحية فأحدث تشويشاً في إدارة الكنيسة. وأنهى البطريرك كلامه إلى القاصد الرسولي بتسليمه نص استقالة كان قد أعدّها لتنقل إلى الحبر الأعظم. وقد أصرّ هذا البطريرك على استقالته رغم مبادرة الأساقفة الموارنة إلى مطالبة الأب الأقدس بعدم قبولها. وعندما أدركت رومة أن البطريرك التيان قد أراد من خلال تنحّيه عن الكرسي البطريركي خير البلاد، ورد جواب من المجمع المقدّس يثني على فضيلة هذا البطريرك وتواضعه وتنازله، وسرعان ما دعا القاصد الرسولي الاساقفة إلى انتخاب بطريرك في دير مار يوسف عينطورة كسروان فانتخبوا المطران الحلو في ٨ حزيران (يونيو) ١٨٠٩.

لقد سجّلت الامارة عبر هذا الحدث انتصاراً على البطريركية. ونجد البطريرك الذي خلف البطريرك المستقيل، ينصرف إلى إعادة ترميم دير قنوبين البعيد عن مركز الامارة. وفي عهده عُقد مجمع اللويزة سنة ١٧٣٦ تحت إشراف القاصد الرسولي، وقد قرّر هذا المجمع فصل الرهبان عن الراهبات في الأديار المختلطة، وتعيين كرسي ثابت لكل مطران ضمن أبرشيته. فانتقل بذلك اهتمام الكنيسة المارونية إلى الشأن الرعوي، وبقي البطريرك ينظر في الاحوال الشخصية لأبناء طائفته. إلاّ أن البطريرك الذي خلف الحلو بعد وفاته سنة ١٨٢٣، وهو البطريرك يوسف حبيش، قد حاول استعادة مكانة البطريركية المارونية، فانتهز مناسبة تحالف الأمير بشير مع المصريين ضد العثمانيين، وغضب الأستانة عليه، ونقمة اللبنانيين على الحكم المصري الذي جاء إلى لبنان نتيجة تحالفه مع الأمير بشير، ودعا إلى اجتماع صار عقده في انطلياس بحضور عدد من الاكليروس والمشايخ

والأعيان من دروز ونصارى، يتقدّمهم الأمير حيدر اللمعي، صديق البطريرك. وفي هذا الاجتماع الذي عُرف بعامِّيَّة إنطلياس، تعاهد الدروز والنصارى على طرد المصريين وإسقاط الأمير بشير. وقد انتهت ثورتهم بتحقيق أهدافهم. ونُفي الأمير بشير إلى مالطة في ١٠ تشرين الأول (أوكتوبر) من سنة ١٨٤٠. وكانت ردّة فعل الباب العالي على موقف البطريرك «تقديراً»، فأهدى السلطان العثماني البطريرك حبيش الوسام العثماني المرصّع. واستجاب السلطان لطلب البطريرك تعيين الياس الحلبي وكيلاً عنه في الاستانة، ليكون همزة الوصل مع الباب العالي مباشرة دون المرور بوزارة الخارجية. ثم طلب تخفيض الضرائب عن لبنان فأُسقطت إلى ربع ما كان يُدفع في أيام المصريين.

غير ان ما حققه البطريرك حبيش من تعزيز لكرسيه ولطائفته بالتالي، لن يذهب من دون ثمن غال. فقد عينّت الدولة العثمانية الأمير بشير قاسم ملحم عساف الشهابي المعروف ببشير ابو طحين خلفاً لبشير الثاني. ولا يدري أحد ما الذي حصل بعد هذا التعيين لينقضّ دروز الشوف على موارنة دير القمر وجزّين وباقي القرى المارونية بمساعدة المتسلّم التركي. ثم هاجم المدينة المسيحية البقاعية: زحله، ستة آلاف مقاتل درزي سلّحهم والي الشام، ولكنّ القوى المارونية التي جمعها البطريرك قد تمكّنت، مع الزحليين، من صد الهجوم وإيقاف المذبحة عند حدّها.

ان ما جرى في جبل لبنان قبل نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر لم يكن سوى محاولة فاشلة شبيهة بعملية إفناء المسيحيين وتهجيرهم التي ستجري فيما بعد، بعد حوالى أربعين سنة، في مناطق عراقية وتركية. ومثلما استعمل العثمانيون الدروز هنا استعملوا الأكراد هناك. ولكن البطريرك الماروني سارع إلى الصراخ، فاحتجّ لدى الباب العالي كما احتجّ لدى الدول الغربية. فرأى الباب العالي الفرصة مناسبة لضم لبنان إلى الولايات العثمانية. فأوفد إلى بيروت مصطفى باشا نوري الذي جمع أعيان البلاد وطلب إليهم أن يوقّعوا على عريضة يلتمسون فيها

من الباب العالي تعيين حاكم عثماني على لبنان، سرعان ما أوعز البطريرك إلى أمراء الطائفة ومشايخها بالامتناع عن توقيعها، فامتنعوا. على أنّ اسطنبول لم تبال بهذه الممانعة، وعيّنت سنة ١٨٤٢ عمر باشا النمساوي حاكماً على لبنان. وقد كان هذا مسيحياً فأسلم وتسلّم فرقة من الجيش العثماني لمحاربة المصريين. فأخذ هذا الحاكم يحاول استرضاء البطريرك، فعيّن أبا سمرا غانم[1] قائداً للجيش، ويوسف الشنتيري مساعداً له، والشيخ فرنسيس الخازن حاكماً على كسروان. وكان هؤلاء الثلاثة من الموارنة الأشدّاء الذين يناصرون البطريرك. وضيّق الحاكم العثماني على الدروز الذين نقموا عليه وحاولوا الاتفاق مع الموارنة فلم يرضَ البطريرك بذلك.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى أحدث العثمانيون فتنة بين المشايخ الدحادحة الموارنة وأندادهم المشايخ الحبيشيين الذين قُتل ثلاثة منهم. وكالعادة تحجج الوالي العثماني بهذه الفتنة ليرسل فرقتين عسكريتين إلى القرى المارونية في شمالي لبنان حيث أُحرقت الكنائس وعبثت بالقرى. وبدت ملامح ثورة مارونية عارمة اضطر على أثرها الوالي التركي إلى زيارة البطريرك، حيث أكثر له من الوعود ليقبل به حاكماً على لبنان. فأجابه:

«أنت من الأشخاص الأكفاء لتولي الحكم، إنما عيبك الوحيد هو أنك أجنبي ونحن لا نقبل أجنبياً[2]».

إثر هذا الاجتماع الذي لم يحقّق منه مصطفى باشا أهدافه، إذ لم يتمكن من إقناع البطريرك بقبول حاكم عثماني، لجأ إلى تزوير أختام بعض الأعيان وإلى

١ ـ ابو سمرا غانم (نحو ١٨٠٢ ـ ١٨٩٥): ولد في بكاسين (لبنان الجنوبي) وتوفي فيها. بطل لبناني. انخرط في خدمة الامير بشير الثاني ١٨٢٥. اشترك في الثورة على ابراهيم باشا ١٨٤٠. وثورة جبل الاكراد ١٨٤٧. قاد جزءاً من المقاومة الزحلية سنة ١٨٤٠. عيّن شيخاً على شمالي لبنان ثم تقلّب في المناصب الإدارية والعسكرية.

٢ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٨٨

اغتصاب تواقيع قسم من المسيحيين في الجنوب، ونظّم عريضة تطالب بعمر باشا حاكماً على لبنان. غير أن البطريرك أوفد إلى اسطنبول مبعوثاً من قبله لينقل إلى سفراء الدول مطالبته بايقاف المحاولة العثمانية للقضاء على الحكم الذاتي في جبل لبنان، ورغبته بإعادة الأمير بشير الثاني إلى حكم لبنان لأنه وحده القادر على ضبط أموره. وكان هذا الأمير، قد اقتنع بمشورة البطريرك، بعد أن زال النفور من بينهما، وانتقل إلى اسطنبول مع أسرته ساعياً لاسترضاء الباب العالي.

«نجح الموفد البطريركي في حمل سفراء الدول على تأييد رغبة البطريرك. وقد جابه الصدر الأعظم هؤلاء السفراء بالعريضة المزعومة التي يطالب فيها اللبنانيون بحاكم عثماني، فأبانوا له أن تلك العريضة مزوّرة. فاعترض السلطان على إعادة الأمير بشير إلى الحكم بحجة انه خان الدولة وحارب إلى جانب المصريين، وبأن الدروز لا يقبلون حاكماً نصرانياً. وقد رأى السفير البريطاني الفرصة ملائمة لعرض اقتراحه بشطر لبنان إلى قائمقاميتين، يتولّى أمير درزي القائمقامية الجنوبية الآهلة بأكثرية درزية، ويحكم الشطر الآخر، حيث الأكثرية المسيحية، أمير ماروني. وسرعان ما أيّد سفير النمسة هذا الاقتراح، وجرّ وراءه باقي السفراء ما عدا سفير فرنسة الذي قبله بصورة مؤقتة على سبيل التجربة. ورأى الباب العالي أن من شأن هذا التقسيم أن يزيد شقّة الخلاف ويفسح في المجال للقضاء نهائياً على استقلال لبنان فسرّ به، وعزل مصطفى باشا وعمر باشا فوراً وأرسل يسأل البطريرك الماروني عمّن يريده حاكماً على القائمقامية المسيحية. وإذ لم يجد البطريرك مناصاً من القبول بهذا الحلّ، اختار الأمير حيدر اللمعي لهذا المنصب، وهو يتحدّر من أسرة درزية كانت قد تنصرّت منذ عهد قريب، كان قد تولّى اقطاع جدوده في منطقة المتن من جبل لبنان. وقد بقي هذا الأمير من سنة ١٨٤١ إلى يوم وفاته في ١١ أيار (مايو) من سنة ١٨٥٤ يدير شؤون القائمقامية المسيحية، مع رجال أكفّاء بينهم كهنة كانوا يتولّون القضاء. وكان يحكم مع مجلس مؤلّف من اثني عشر عضواً، وكانت بكفيا عاصمة حكمه.

وكان حجم القائمقامية المسيحية، الذي يمكن تسميتها بالإمارة المارونية، يشكّل ثلثي لبنان آنذاك. وإذ أدرك الباب العالي أنّ من شأن هذه المساحة أن تزيد في مكانة تلك الإمارة، سلخ عنها مقاطعات جبيل والبترون والكوره والجبة، وضمّها إلى ولاية طرابلس، وعيّن لها حاكماً عثمانياً، وفرض عليها جزية إضافية. فسارع البطريرك من جديد إلى إرسال مندوبه إلى باريس ليقدّم لحكومتها تقريراً يبيّن الاجحاف اللاحق بالطائفة المارونية جراء هذا التدبير، لأن لبنان الشمالي هو مهد المارونية وقلبها ومركز بطريركها. تلقّت الحكومة الفرنسية هذا التقرير بمزيد من الاهتمام، وأوعزت إلى سفيرها في الاستانة فاحتجّ على ذلك الاقتطاع الجائر، واقتنع الباب العالي بإرجاع المقاطعات المسلوخة، فبقي موضوع القرى المارونية الواقعة في حكم القائمقام الدرزي، وقد اطلع البطريرك سفراء الدول على ما في وضع الموارنة تحت رحمة خصومهم من خطر، فألحّوا على الباب العالي حتى رضي بتعيين وكيل ماروني في كل من تلك القرى، يرجع إليه بنو ملّته في جميع مشاكلهم، وهو يتعاطى حلّها مع القائمقام[1]». وقد توفي هذا البطريرك القدير مع بداية أحداث ١٨٤٥ التي سوف تقضي على نظام القائمقاميتين وعلى كل من القائمقاميتين المسيحية والدرزية، وستمهّد لأحداث أكثر منها خطورة، هي أحداث ١٨٦٠ التي ستؤدي إلى نشوء المتصرفية.

عندما صار انتخاب المطران يوسف الخازن بطريركاً على الطائفة المارونية في ١٨ آب (أغسطس) سنة ١٨٤٥ ليخلف البطريرك يوسف حبيش، كانت «الغيوم المكفهرّة المتلبّدة في الأفق السياسي تنذر بشر مستطير. فبعد أن أحرق الموارنة أربع عشرة قرية درزية زحفوا على المختارة مقرّ الجنبلاطيين[2] حيث كان بانتظارهم

---

١ ـ المرجع السابق، ص ٨٨ ـ ٩٠؛ راجع: سجل بكركي III، ص ٤٧٧ وما يليها؛ الشدياق، تاريخ الاعيان، ج ١، ص ٩٩ وما يليها

٢ ـ من أُسر لبنان الدرزية. تنتسب إلى جان بولاد الكردي. استقلت بحكم كلس قرب حلب في بداية القرن السابع عشر. هاجرت إلى لبنان ١٦٣٠ بدعوة من فخر الدين ٢ المعني، فأصبح مشايخها من زعماء الإقطاع في لبنان.

فيلق تركي أصلاهم ناراً حامية. وفي حادثة عبيه[1] انحاز الأتراك أيضاً إلى جانب الدروز. وامتدّت نار الفتنة إلى جزّين[2] ودير القمر[3] وإلى أماكن أخرى[4]». فسارعت اسطنبول إلى ارسال وزير خارجيتها شكيب افندي في صيف تلك السنة ومعه مطلَق الصلاحيات، معزّزاً بقوة عسكرية لنزع السلاح من جميع السكان (مبدئياً). وإذ سارع الوزير إلى البدء في تنفيذ مهمّته لاقى مقاومة مارونية في شمالي لبنان حيث نشبت معركة بين المقاومين وعسكر السلطان، تدخل البطريرك الخازن لإيقافها بعد أن مالت كفّة الحسم لمصلحة العثمانيين. وراح شكيب أفندي، الذي وضع نظاماً مؤقتاً ساد لبنان إلى سنة ١٨٦١ وعُرف بنظام شكيب أفندي، يسعى للحدّ من سلطة الأمراء والوجهاء مما سيؤدي في النهاية إلى الانفجار العنيف: حركة ١٨٦٠.

أبقى شكيب أفندي لبنان مقسوماً إلى قائمقاميتين، على الرغم من كل ما بُذل من مساعٍ لإعادة الامارة إلى الشهابيين. وأنشأ مجلساً إدارياً في كل من

---

١ - عبيه، أو أعبيه: بلدة في جبل لبنان (قضاء عاليه). مقر أمراء الغرب التنوخيين الدروز (القرن ١٤). والامراء الشهابيين (القرن ١٧). فيها قبر الامير عبد الله التنوخي المتوفي سنة ١٤٩٧. والتنوخيون (بنو تنوخ): قبيلة عربية مسيحية الأصل من شعوب مملكة الحيرة في العراق. انتقلت إلى بلاد حلب واعتنقت الاسلام في عهد المهدي العباسي (خليفة ٧٧٥ ـ ٧٨٥). استوطنت جماعة منهم جبل لبنان، فتحدّر من سلالتهم الامراء التنوخيون الذين عُرفوا بأمراء الغرب، وهم البحتريون أو بنو بحتر الذين استولوا على بيروت بعد نزوح الصليبيين منها سنة ١٢٩٤ (راجع: الدروز، من هذه الموسوعة).

٢ - جزّين: بلدة في جبل لبنان الجنوبي. مركز قضاء جزّين متصلة بالشوف. بالقرب منها المغارة التي لجأ اليها فخر الدين. سكانها مسيحيون جلّهم من الموارنة.

٣ - دير القمر: بلدة في جبل لبنان (قضاء الشوف). عاصمة الثقل الماروني فيه. عاصمة الامراء المعنيين والشهابيين. تحفظ آثاراً من عهد الامارة: سرايا فخر الدين، ودور لبنانية من عهد الأمير بشير ٢. معبد سيدة التلّة الماروني الشهير.

٤ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٢٩؛ اسكندر ابكاريوس، نوادر الزمان في ملاحم جبل لبنان (مخطوطة) ص ٢٢، ٢٣؛ Churcill, Druzes, PP. 91- 92; Correspondance relative to the affairs of Syria, PT. I, 1843, 1844, 1845, (London 1844) PP. 106 Seq.

ميخائيل مشاقه، مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان، نشر ملحم عبده واندراوس شاختيري (القاهرة ١٩٠٨) ص ٥٢ ـ ٥٣

القائمقاميتين يمثّل الطوائف جميعاً، ونظّم القضاء والادارة والضرائب، وأوجد هيئات إدارية أشرك فيها جميع السكان على اختلاف طبقاتهم ومللهم، وبقي القائمقامان موظّفَين يختارهما والي صيدا. وكان كل قائمقام يرئس مجلس الادارة في قائمقاميته، ويراقب أعماله، دون أن يكون له حق مخالفة رأي المجلس، الذي كان يتّخذ قراراته بالأكثرية، إلاّ أن القائمقام كان مسؤولاً عن تنفيذ القرارات.

بالرغم من أن نظام شكيب أفندي قد أضعف الاستقلال الاداري لجبل لبنان، فقد وافقت الدول الأوروبية عليه إذ كانت ترغب في إنهاء المشكلة بأي ثمن. كما كان اللبنانيون بحاجة ماسة إلى الراحة والاستقرار، للانصراف إلى أعمالهم المنتجة، بعد أن انهكتهم القلاقل وأفسدت عليهم حياتهم.

أضعف هذا النظام نفوذ الاقطاعيين في الحقلين القضائي والاداري، بل وتعداهما إلى الحقل المالي، إذ أوجب أن تكون الضرائب عامّة ومتناسبة مع الملكية. وقد اتّضح أنه كان لذلك النظام ميّزة رئيسية هي إضعاف النظام الاقطاعي بشكل كبير، خاصة وأنه أوجب المساواة أمام القانون في دفع الضرائب، وفتح باب التوظيف وعضوية المجلس الاداري أمام جميع اللبنانيين دون تفرقة في الطبقات. كما يتّضح من خلال مراجعة سيرة البطريرك يوسف الخازن انه رغم تحدره من أسرة اقطاعية، ورغم أنّ نظام شكيب أفندي، بإضعافه نفوذ الاقطاعيين قد، أضعف نفوذ المقامات الروحية وخاصة البطريرك الماروني، فإنّ هذا البطريرك قد أصدر جملة مراسيم، وأوجب وضعها موضع التنفيذ، استهدف بعضها امتيازات الاقطاعيين، منها مرسومه الذي شدّد فيه على عدم سماع الاعترافات خارج منبر التوبة. ولمّا كان من عادات المشايخ استدعاء الكاهن إلى بيوتهم لسماع اعترافاتهم، تهدد البطريرك بالحرم كل كاهن يسمع اعتزافاً في بيت أي كان من مشايخ أو غيرهم إلاّ في حالات المرض الشديد. ومن مراسيمه تلك التي منعت النساء من الدخول إلى الكنائس كاشفات الرأس وبلباس غير لائق. ولا شكّ في أنه قد استهدف منهن نساء المشايخ لأنّهن الوحيدات اللائي كنّ يقدمن على مثل

هذه الجرأة. وكثيراً ما كان هذا البطريرك ينذر بسوء العاقبة بعض أقاربه من جراء ما كانوا يأتونه من تصرفات غير لائقة[1].

عندما انتُخب بولس مسعد بطريركاً للطائفة المارونية بعد عشرة أيام من وفاة البطريرك يوسف الخازن في ٢ تشرين الثاني (نوڤمبر) سنة ١٨٥٤، كان نظام شكيب أفندي في منتصف عمره! وكان بولس مسعد من عائلة مارونية كسروانية من بلدة عشقوت[2]، وهو من خرّيجي مدرسة رومة المارونية. وقد اشتهر ببراعته في العلوم الدينية والتاريخية، وبتقواه، وبحكمته. وشهدت المدوّنات على أنه عالج بفطنة نادرة الأحداث التاريخية التي عايشها[3]. وقد انصرف بشكل أساسي إلى تنظيم الشؤون الكنسية فعقد بأمر من البابا بيوس التاسع مجمعاً مارونياً في بكركي من ١١ إلى ١٣ نيسان (إپريل) ١٨٥٦، وُصف بأنه أطول وأفضل مجامع الطائفة بعد المجمع اللبناني. أمّا الأحداث والقلاقل التي حصلت في الحقبة التي تولّى فيها مسعد البطريركية المارونية فأهمّها: ثورة الفلاحين على المشايخ الخوازنة في كسروان، والحرب الأهلية التي عُرفت بحركة ١٨٦٠ والتي أدّت إلى تدويل الجبل اللبناني ووضع «نظامه الأساسي» سنة ١٨٦١، ونشوء المتصرفية. وفي هذه الحقبة كان قائمقام النصارى الأمير بشير أحمد اللمعي.

سنة ١٨٥٨ كثرت القلاقل والفتن في المجتمع الماروني، وقد بدأت بغزو

١ - يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٩٥ _ ٩٦

٢ - عشقوت بلدة في وسط قضاء كسروان. اسمها سرياني الاصل: «عسقوته» ومعناها: «الوعرة والعاصية»، علماً بأن كسروان نفسه كان يعرف بالعاصية. سكنها الشيعة بعد ان خرب المماليك المنطقة في القرن الرابع عشر قبل أن يعود الموارنة إليها في أوائل القرن السابع عشر. وأصل أسرة مسعد من بني المشروقي الذين منهم أسر عواد والشدياق والسمعاني. راجع: مفرّج: الموسوعة اللبنانية المصورة، ج ٣، ص ٢٠٦ _ ٢٠٨؛ الاب ميخايل غبريل الشبابي، كشف النقاب عن بقعة بيت شباب؛ المحامي ابراهيم عواد، ابرشية قبرص المارونية، (بيروت ١٩٥٠)؛ الدكتور انيس فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، الجامعة الاميركية في بيروت (١٩٥٦)؛ الختوني، المقاطعة الكسروانية

٣ - راجع: منجد الاعلام، المنجد في اللغة والاعلام، دار المشرق، الطبعة ٢٢ (بيروت ١٩٧٥) ص ٦٦١.

الحماديّين الشيعة بلدة قرطبا في أعالي بلاد جبيل، ثم وقعت فتنة بين المتزعّمين في زحلة وفي المتن وفي العاقورة، ونشأ خلاف بين مدينتين مارونيتين تعدان من أهمّ البلدات المارونية في شمالي لبنان هما: إهدن وبشرّي. كذلك اقتتل فلاحو بلدة غزير مع مشايخها من الحبيشيين. وإذ كان للقائمقام خصوم يتزعمهم الشيخ إبراهيم الخازن، قرّر القائمقام محاولة القضاء على الاقطاع في كسروان أولاً، ثم في سائر المقاطعات. ذلك أنّ الحزب الذي كان يخاصم القائمقام، جلّه من الاقطاعيين.

«كان أكبر معاوني القائمقام على اثارة هذه الفتنة الهوجاء رجل من طائفة الروم الكاثوليك من ذوق مكايل يُدعى الياس المنيّر، نشر فكرة الثورة في قرى كسروان الجنوبية، وأقام في كل قرية وكيلاً لبثّ الدعاية، ووكيلاً عاماً اسمه صالح صفير العجلتوني، وكان القائمقام يرسل الأوامر من بيروت إلى الذوق، وهذا في دوره يرسلها إلى العجلتوني الوكيل العام، وأخذ المشايخ يستعدّون للمقاومة، ولمّا أدرك غوائل الثورة استقال من الوكالة العامة فعُيّن مكانه طانيوس شاهين الريفوني، فهجم الشعب بقيادته على دور المشايخ بإطلاق الرصاص، فهرب المشايخ بنسائهم وأولادهم إلى جهات جبيل والبترون وقاطع بيت شباب. ونهب الفلاحون بيوتهم ووضعوا أيديهم على المواسم، وقتلوا عدداً من النساء والرجال والأولاد[1]».

هكذا رأى بعض مؤرّخي الطائفة المارونية ما عُرف بحركة طانيوس شاهين. غير أن بعض المؤرخين الأكثر شمولية واستقلالية رأى أنه «سنة ١٨٥٨ قد نشبت ثورة مارونية قام بها الفلاحون بزعامة رجل من العامة: طانيوس شاهين من ريفون، الذي كان بيطاراً يعمل في دير للعازاريين هناك[2]. فطردوا آل الخازن وجماعة أخرى من أعيان الموارنة من اقطاعاتهم واستولوا عليها ووزّعوها على

١ - يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٩٨

٢ - "Comte de Paris", Damas et le Liban (Paris 1861) P. 102

الفلاحين. وفي السنة التالية أعلن شاهين قيام حكومة فلاحين ونصّب نفسه حاكماً مطلقاً[١] . أمّا البطريرك الماروني، بحسب هذا النص، فقد تجاهل الأمر. وأمّا الخوارنة والقسس الذين كانوا من عامة الناس فقد شجّعوا الناس على الثورة هذه وأيّدوها. لأن سلطة الاكليروس الماروني ونفوذه كان قد تضاءل (كذا) كثيراً إزاء نفوذ الاقطاعيين الموارنة وسلطتهم الواسعة. أما موظّفو الأتراك فإنهم وقفوا يترقّبون أن تنتهي الحوادث الجارية إلى ما فيه صلالِحهم ونفعهم. وفي هذه الأثناء كانت حياة المسيحيّين وممتلكاتهم في المناطق الدرزية على كفّ عفريت. فإنه في غضون عشر سنوات قُتل منهم ما يربو على سبعمئة قتيل بدون أن يعاقَب قاتل واحد وبدون أن يجري أي تحقيق قضائي[٢] ».

بيدَ أن مؤرّخي البطريركية المارونية يبيّنون أن البطريرك بولس مسعد قد قام بجهود كبرى بخلال هذه الفتنة، خلافاً للرأي السابق، إذ «استدعى وكلاء القرى وكبار المشايخ وأشار بعقد اجتماع لانتخاب أحد المشايخ حاكماً للمقاطعة الكسروانية. وقبِل الوكلاء بهذا الحلّ. أمّا المشايخ فلم يرضوا بأن يشترك معهم الفلاحون بهذا الانتخاب، وكانوا يأملون بأنّ خورشيد باشا[٣] سينجز وعده بإرجاع الأهالي إلى طاعتهم. عندئذ ازداد طانيوس شاهين اندفاعاً في شن الغارات. وكرّر المشايخ عرائضهم إلى الباشا الذي أتى بعسكره إلى المديرج ليدخل كسروان من الجهة الغربية، فاحتج البطريرك على دخول العسكر النظامي إلى لبنان بدون إنهاء (إنباء!) مجلسه، فرجع الوزير بجيشه إلى بيت مري، وطلب رأي ديوان قائمقامية النصارى فأشار بتنبيه الأهالي ونصحهم بالإخلاد إلى السكينة قبل اللجوء إلى القوة العسكرية، وكلّف الشيخ عيد حاتم القيام بهذه المهمة فقام بها خير قيام وهدأت

---

١ - انطوان العقيقي، ثورة وفتنة في لبنان (بيروت ١٩٣٨) ص ٨٢ - ٩٠

٢ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٣٠

٣ - خورشيد باشا، والي بيروت وصيدا العثماني (١٨٥٧ - ١٨٦٠). كانت له اليد الطولى في اشعال الفتن في لبنان. حُكم عليه بالنفي المؤبّد.

العاصفة... وأقام المشايخ ثلاثة وكلاء في بيروت للمطالبة بحقوقهم فلم ينالوا سوى وعود فارغة. وظلّ البطريرك المرجع الوحيد، وتوصّل بحكمته وطول اناته إلى كبح جماح الثائرين[١] ».

في الوقت الذي كان الموارنة يقتتلون في عرينهم، كان الدروز يداً واحدة بزعامة أعيانهم. وما كاد الاقتتال الماروني ينتهي إلى ما انتهى إليه حتى جاءت سنة الشؤم في تاريخ لبنان: سنة ١٨٦٠ التي عرفت أحداثها بـ «مذابح الستين» أو «حركة الستين» كما تعرفها العامة، وهي الحرب الأهلية التي وقعت بين الدروز والموارنة، والتي لم يكن هنالك من أسباب مباشرة لنشوبها. «بل كان هنالك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنها كانت فتنة مدبّرة. بدأت الفتنة في شهر نيسان (إپريل) وظلّت نيرانها تستعر حتى آخر شهر تموز (يوليو) من تلك السنة المشؤومة. كانت الحوادث التي أدّت إلى نشوب الفتنة قد بدأت في صيف السنة السابقة عندما تشاجر صبيّان، ماروني ودرزي، كما يتشاجر الصبيان. ولكن هذا الحادث أدّى إلى قتال بين دروز القرية والنصارى فيها واسفر عن مقتل عدد من الدروز أكبر من عدد القتلى من النصارى. وقد حدثت مناوشات متقطّعة بين الدروز والنصارى في المناطق التي يقطنها من الفريقين. ثم حلّ الشتاء، وكان شتاءً بارداً قاسياً، فخُيّل للناس ان هذه الفترة من الهدوء النسبي كانت فترة تهيؤ واستعداد لأمر لا مفرّ منه. وكان مشايخ الدروز يتّصلون علناً بخورشيد باشا في بيروت ويجرون معه مفاوضات. ويقال إنهم تسلّموا أسلحة بواسطته. ولما نشبت الثورة شعر كل مسيحي قاطن في المنطقة الدرزية ان حياته في خطر شديد. وفي خلال أسابيع قليلة أُحرق أكثر من ستين قرية من قرى المتن والشوف. أمّا الجيش التركي النظامي (باش بزق) فإنه لم يحاول ان يوقف القتال، بل كان موقفه على نقيض هذا، فإنه أساء معاملة (المسيحيين) الهاربين اللاجئين إلى بيروت ودمشق ونهب ما يحملونه

---

١ - يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ٩٨

من ثياب وأموال. أما كسروان ومنطقة شمالي لبنان فلم يصبها أذى من هذه الفتنة. ولم يكن لها من أثر حاسم في القتال. فقد جاءت قوتان رمزيتان من تلك المناطق لمساعدة إخوانهم في (جبل) لبنان الجنوبي وفي المتن. وكان على رأس أحداهما يوسف بك كرم[١] من إهدن، وكان زعيماً وطنياً في منطقته، وطانيوس شاهين من ريفون، وقد سبقت الاشارة اليه. غير أن الموظفين الأتراك حاولوا بالوعد والوعيد أن يمنعوا اتصال هذين الزعيمين بإخوانهم في الجنوب. وكذلك كان لتدخل فرنسة في الامر يد في وقف هذه المساعدة. أما رجال الدين من الموارنة فكانوا يهاجمون العدو بسيل من الاحتجاجات والشتائم ويشجّعون أتباعهم على متابعة القتال بشتّى الوسائل والوعود. وكان الاكليروس في هذه الفتنة أقرب إلى الضرر منه إلى النفع. أما المعسكر الثاني، المعسكر الدرزي، فقد انهالت عليه المساعدات العسكرية من حوران، إذ جاءته نجدة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة اسماعيل الأطرش. وأما قائد الثورة في لبنان فقد كان سعيد جنبلاط يعاونه خطّار العماد وعلي حماده (دروز). ثم جاء دور المدن. وقد كانت أساليب الثورة في المدن الأساليب ذاتها في الأرياف: كان قائد الحامية التركية في المدينة يعرض حمايته للنصارى مقابل تسليم الأسلحة، ثم يقف يتفرج عليهم يُذبحون. هكذا كان مصير دير القمر حيث قُتل ٢٦٠٠ نسمة. وفي جزّين وجوارها قُتل ١٥٠٠ نسمة. وفي حاصبيّا[٢] قُتل من الروم الاورثوذكس ١٠٠٠ نسمة، وبصورة بربرية من أصل مجموع سكانها الاورثوذكس البالغ ستة آلاف. وفي راشيّا[٣] هلك ثماني

١ ـ يوسف بك كرم: (١٨٢٢ ـ ١٨٨٩)، ولد في إهدن من أعالي لبنان الشمالي زعيم ماروني اشتهر بفضائله وبسالته في مقاومة العثمانيين.

٢ ـ حاصبيّا: بلدة في لبنان الجنوبي. قاعدة قضاء حاصبيا (وادي التيم سابقاً) بالقرب منها خلوة البياضة للدروز، وهي المقام الديني الأعظم لدروز لبنان وفيه مجلس شوراهم.

٣ ـ راشيّا أو راشيّا الوادي: بلدة في البقاع الغربي من لبنان فيها قلعة للأمراء الشهابيين. عندها قاتل الزعيم الدرزي شبلي العريان جيش ابراهيم باشا (١٨٤٠). وعندها سوف تقع المعركة بين الفرقة الأجنبية الفرنسية وبين فرسان الدروز (١٩٢٥). وإليها سوف تنفى حكومة الاستقلال ١١ ـ ٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤٣.

مئة نسمة[١]. وكانت أوامر قيادة الثورة (الدرزية) المتعلقة بحاصبيا ألاّ يبقى على ذكر من سن السابعة إلى السبعين. وقد وقف الثوّار القساة يمتّعون أبصارهم بأشلاء الأجساد المختلطة كباراً وصغاراً، في صحن الدار في قصر الشهابيين في حاصبيا. أما زحلة أكبر المدن في داخلية لبنان، وكان عدد سكانها آنذاك ١٢ ألف نسمة، فقد صمدت في بادئ الأمر بشجاعة إلى أن غُلبت على أمرها في وجه هجمات جماعات كبيرة من الحوارنة ومن بدو الصحراء. هذه المدينة، القابعة في وادي (نهر) البردوني المنساب سلسبيلاً من سفح صنين لم ينجُ بيت واحد فيها من الحريق... وقد ازدحمت الطرقات المؤدية من القرى إلى مدن الساحل بالهاربين الذين لم ينجوا من تعدّيات الجند التركي. فقتل مسلمو صيدا نحواً من ثلاث مئة لاجئ. وقد كان عدد الضحايا الذين سقطوا خلال أشهر ثلاثة وفي بقعة قطرها بضعة أميال اثني عشر ألف قتيل. وكانت الخسارة في الأملاك تُقدّر بأربعة ملايين ليرة انكليزية ذهبية. وقد وقعت الفتنة في موسم تربية دود الحرير. ذلك الموسم الرئيسي في حياة الناس الاقتصادية. ولم يقتصر الخراب والحريق على البيوت بل شمل الكنائس والاديرة[٢]». وعندما لم يعاقب المجرمون في لبنان وقد تواطأ الموظفون الأتراك معهم، تشجع أهل دمشق المسلمون على مهاجمة المسيحيين فأحرقوا الحي المسيحي في المدينة وقتلوا عشرة آلاف نسمة. وفي العام ١٩٢٦ طوّب البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢ ـ ١٩٣٩) ثلاثة إخوة من أسرة مسابكي

١ ـ راجع: Further, papers relating to the disturbances in Syria, June 1860 (London, 1860) PP. 40 - 46

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٣٠ ـ ٥٣٢؛ اسكندر ابكاريوس، نوادر الزمان، ص ٤٢ وما يليها؛ مشاقة، ص ١٥٨ ـ ١٦٨؛ حسين ابو شقرا، الحركات في لبنان، نشره عارف ابو شقرا (بيروت ١٩٥٢) ص ١١٣ ـ ١٣١؛ للاطّلاع على الوثائق الرسمية: Correspondence relating to the affairs of Syria 1860 - 61 (London 1861); Edward Driault, la question d'orient, 8e ed. (Paris, 1921) PP. 194 - 5; Souvenirs de Syrie, (Paris 1903) PP. 32 - 89; F. Charles-Roux, France et Chrétiens d'orient (Paris 1939) PP. 183 - 6; I. de testa, Recueil des traités de la porte ottomane, Vol. VI, PP. 67 - 101; Isaac. Riley Syrian Home - life (New York 1874) PP. 250

المارونية كانوا قد استشهدوا عند مذبح الكنيسة الفرنسيسكانية في دمشق حيث كانوا لجأوا يومذاك هرباً من القتل[١].

كان أكثر ضحايا أحداث سنة ١٨٦٠ من الموارنة. وقد هزّت تلك المذابح الضمير العالمي. فعُقد مؤتمر دولي دعت إليه فرنسة ضم بريطانية والنمسة وبروسية وروسية وتركية تقرّر فيه التدخل لإيقاف المذابح، وإيفاد قوة إلى الجبل اللبناني قوامها اثنا عشر ألفاً. غير ان فرنسة وحدها نفّذت القرار وأرسلت جيشاً مؤلفاً من سبعة آلاف جندي. وقد قال الامبراطور الفرنسي نابوليون الثالث (١٨٠٨ - ١٨٧٣؛ امبراطور: ١٨٥٢ - ١٨٧٠) في مجال شرحه لذلك: «إذا كنت قد اقترحت إرسال بعثة عسكرية إلى لبنان وسورية فلأني اشعر كالشعب الذي انتخبني رئيساً عليه، ولأن أنباء سورية ولبنان أثارت مزيد استيائي. أنا أتمنى أن لا أضطّر إلى ارسال هذه البعثة لأسباب عديدة، إنما يتعذّر علي مقاومة الرأي العام في بلادي[٢]». ومنذ ذلك الحين أصبح موارنة لبنان يرون في فرنسة السند القوي، وأصبح تقليدهم يطلق عليها اسم: «الأم الحنون».

كان على رأس الحملة العسكرية الفرنسية الجنرال بوفور دوتيول. وكان قد اشترك في حروب سورية لـمّا كان ضابطاً في أركان جيش الكولونيل سيف (Seve). وقبل أن تصل الفرقة العسكرية إلى لبنان منتصف صيف ١٨٦٠ كانت السلطنة العثمانية قد أرسلت جيشاً على رأسه وزير الخارجية فؤاد باشا الذي راح يعاقب الموظفين الأتراك الذين تواطأوا مع المجرمين، متشدّداً في ملاحقة القتلة، وقد أعدم أكثر من مئة جندي تركي رمياً بالرصاص وشنق بعض الأهالي. ولـمّا كان الأمير المغربي اللاجئ إلى سورية هرباً من الفرنسيين في الجزائر، قد حمى في دمشق أكثر من ألف مسيحي من القتل، فقد قلّده وزير الخارجية التركي وساماً

١ - Acta Apostolicae sedis, Vol. XVIII (1926) PP. 411 - 415

٢ - يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ١٠٠

رفيعاً لعمله الشريف. ثم شكّل فؤاد باشا لجنة دولية مهمّتها اكتشاف المسؤولين عن الفتنة، والمجرمين الذين اشتركوا في أعمال القتل، وتعيين التعويضات الواجب اداؤها للمتضررين، ودرس الأنظمة التي من شأنها أن تمنع حدوث مثل هذه الكوارث، ورفْع تقرير إلى حكومات تلك الدول لاجراء المقتضى. وكان فؤاد باشا رئيساً لهذه اللجنة فسيّرها بدهائه وتحايله على هواه. وراح يماطل مدّعياً بأن الخلافات بين أعضاء اللجنة هي التي تؤخر الوصول إلى اتّفاق[١]. «وكذلك استطاع اللورد دوفرل الانكليزي بدهائه ان يتفوّق على موفد نابوليون الثالث ويضعف من شأنه. وكان دوفرل يقف إلى جانب فؤاد ويدافع عن سيادة تركية وسلامتها. وطالب بشدة أن تُخفّف الاحكام الصادرة بحقّ الدروز. وكان يماشيه في سياسته هذه ممثلا النمسة وبروسية. أما فرنسة فكانت تدافع عن وجهة نظر المسيحيين وتحاول ان تدعم قضيتهم، وكانت روسية تقف إلى جانبها وقفة المتردد. وقد تسلّمت اللجنة قائمة بأسماء ٤٦٠٠ متّهم درزي. فحكمت على ٤٨ بالإعدام، وعلى ١١ بالسجن المؤبد، وعلى ١٣ بالحبس ٦ سنوات، وعلى ٢٤٩ بالحجر أو بالنفي المؤقت[٢]. وإنّ حكْم الاعدام الصادر بحق سعيد جنبلاط استُبدل، وهرب كثيرون من أتباع خطار العماد إلى حوران، ونُفي حوالى ١٢٠ شخصاً إلى طرابلس الغرب. ونجا خورشيد باشا من الموت. ولكن والي دمشق أُعدم، كما أُعدم قائد حامية حاصبيا، ونُفي بعض الموظفين الأتراك من ذوي المناصب الدنيا إلى قبرص ومالطة واسطنبول. وفي دمشق حُكم على ثلاث مئة رجل بالاشغال الشاقة مدى الحياة. وقد أُحضروا مكبّلين إلى بيروت سيراً على الاقدام، ومنها نُقلوا إلى اسطنبول... ولكن بعد غياب ستة أشهر، عادوا يظهرون في أسواق بيروت وهم في طريقهم إلى دمشق[٣]. وقد قُدّرت مبالغ التعويضات التي كانت ستدفع

١ - Souvenirs de Syrie, PP. 274 - 276

٢ - للاطّلاع على هذه اللوائح وعلى أسماء المتّهمين: Correspondance Relating to the affairs of Syria, 1860 - 61 (London 1861), P. 509; Souvenirs, PP. 238 Seq., 270 seq.; Churchill Druzes, P. 222; Edward Driault, PP. 403 - 410

٣ - Riley, PP. 87 - 88

للمتضرِّرين بمليون ومئتين وخمسين ألف ليرة انكليزية. وقد اقتُرح في اللجنة أن يقوم الدروز بدفع هذه التعويضات. غير أن فؤاد باشا اعترض قائلاً إنّ الدولة العليّة ستدفعها من خزينتها. ولكن الخزينة العثمانية دفعت قسطاً ضئيلاً منها ثم امتنعت بعد ذلك عن الدفع واعتبرت الامر منتهيا[1] ».

بينما سارع الباب العالي بعد وقت قصير إلى إعلان العفو عن المجرمين، كانت حالة المسيحيين الهاربين والمهجّرين من بيوتهم وأرزاقهم إلى بعض المدن والبلدات تسوء كثيراً، فأصيبوا بالمجاعة والأمراض الفتّاكة. فمات منهم كثيرون، وباعت نساء أولادهن بيع العبيد، وأُخذت كثيرات عنوة إلى حريم الرجال الذين سبوهن[2].

إنّ أحداث ١٨٦٠ التي دفع الموارنة بشكل خاص، والمسيحيون بشكل عام في لبنان، وفي دمشق، ثمناً باهظاً جرّاءها، أدّت إلى خلق نظام جديد لجبل لبنان مضمونٍ من الدول الست الكبرى في ذلك الوقت، ضمن استقلال لبنان من قبل الدول الاوروبية، وكان بمثابة خاتمة عهد من الفوضى والعنف. وقد وقّع على ذلك النظام في اسطنبول في التاسع من شهر حزيران (يونيو) ١٨٦١، كل من فرنسة وبريطانية والنمسة وبروسية وروسية وتركية، وانضمّت إلى مجموعة هذه الدول سنة ١٨٦٧ ايطالية. وقد عُرف هذا النظام رسمياً بنظام المتصرفيَّة، وبنظام لبنان الاساسي. وكان عدد بنوده سبعة عشر، مندرجة في صفحتين. وفي السادس من أيلول سپتمبر ١٨٦٤ جرت تعديلات طفيفة على ذلك النظام مددت ولاية المتصرِّف إلى خمس سنوات، مع إمكانيَّة تجديد ولايته. ونصّ النظام على أن يكون المتصرف مسيحياً أجنبياً تُوافق عليه الدول الموقِّعة عليه. وقد اعترض بطريرك الموارنة بولس مسعد على بعض ما جاء في نظام المتصرفية خاصة لجهة الأحكام

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥
٢ ـ The world (Newyork) April 23, 1861

الشرعية، فطالب بتأليف هيئة تشريعية وطنية، غير أن المتصرف اتَّخذ لنفسه السلطة التشريعية. فوقع الخلاف بين البطريرك والمتصرِّف رستم باشا (١٨٧٣ـ ١٨٨٣)، وهو المتصرِّف الثالث الذي حكم جبل لبنان. أمّا مجلس الادارة فقد تألّف من اثني عشر عضواً منتخباً بواسطة مشايخ الصلح. وكان الهيئة الوحيدة التي تمثِّل الشعب اللبناني في الحكم، إلاّ أن سلطته كانت استشاريه وقراراته لا تلزم المتصرِّف التقيُّد بها[1].

إنّ لبنان المتصرفية لم يكن، لا لبنان الامارة التي سبقتها، ولا لبنان الدولة التي لحقتها، بل كانت مسلوخة عنه مناطق البقاع، ووادي التَّيم، وبيروت وصيدا وطرابلس وعكار. فلقد كان لبنان المتصرفية الجزء الجبلي من لبنان الامارة فقط.

قُسِّم لبنان المتصرفية إلى سبعة أقضية، على رأس كل قضاء قائمقام من الطائفة التي تمثِّل الأكثرية في القضاء. وعلى هذا كان للموارنة ثلاثة قائمقامين، بينما كان الاربعة الباقون: درزياً ومسلماً واورثوذكسياً وكاثوليكياً.

رغم ان هذا النظام قد أعطى الموارنة حجمهم من خلال إعطائهم ثلاثة قائمقامين من أصل سبعة، فانهم قد شعروا بكثير من فقدان الاستقلالية وخفض للشأن عندما تسلّم داود باشا[2] الحكم في ٩ حزيران (يونيو) ١٨٦١، فسرت فيهم حركة نفور ظهرت بوادرها في أوساط يوسف بك كرم الذي ثار القوم بقيادته على داود باشا مثلما ثار آباؤهم على عمر باشا سنة ١٨٤٢.

كان يوسف من مشايخ إهدن وتعلّم في مدرسة الآباء اليسوعيين في عينطورة كسروان. فأحسن الفرنسية ومال بجوارحه إلى ثقافتها وحضارتها. وكان

١ ـ للاطّلاع على النص الكامل لنظام المتصرفية وتعديلاته: British and Foreign State papers, 1860 1861, Vol. LI. (London, 1868) PP. 288 - 292; Thomas E. Holland, the European Concert in the eastern question, (Oxford, 1885) PP. 212 - 218
٢ ـ داود باشا (١٨١٨ ـ ١٨٧٣): أول متصرف على جبل لبنان (١٨٦١ ـ ١٨٦٨). سياسي عثماني. ولد في الآستانة. عدّل النظام الاساسي وطبّقه. أنشأ جريدة رسمية.

أبوه يستضيف السيَّاح الفرنسيين وهم في طريقهم إلى زيارة الأَرز. وكان يوسف بك شاباً وسيماً شجاعاً دَمِث الخلق وقور الشخصية محبوباً بين قومه وعشيرته. وكان الجنرال الفرنسي ديكرو، وهو الجنرال الثاني في قيادة الجيش الفرنسي في لبنان، قد سمَّى يوسف بك كرم، الذي ولاه فؤاد باشا قائمقامية النصارى في نهاية أحداث ١٨٦٠، ليكون متصرفاً على لبنان. وقد ايَّدت روسية اقتراح فرنسة بدون حماس، وقاومته السلطنة العثمانية مقاومة عنيفة وكذلك فعل البريطانيون. وقد ظلّ يوسف بك كرم يتطلّع إلى منصب المتصرفية، لذلك رفض قائمقامية جزين عندما عرضها عليه المتصرف الأول. ووجَّه كتاباً مفتوحاً إلى كل من الڤاتيكان وباريس يحتجّ فيه على كون الحاكم غير لبناني، وعلى صلاحياته المطلقة، وعلى تحديد بعض الأقضية المسيحية، وعلى الفصل في القضايا التجارية في محاكم خارج لبنان (في بيروت)، وعلى سدّ العجز في ميزانية لبنان من مال الخزينة العثمانية مما يجعل لبنان خاضعاً لسلطة الباب العالي[1].

أعلن يوسف بك كرم العصيان ورفع لواء الثورة وخاض بعض المناوشات الدامية. ولكنه لم يكن بحجم الدولة العثمانية، فتمكّن المتصرف من إلقاء القبض عليه وارساله إلى اسطنبول، حيث بقي هناك حتى سنة ١٨٦٤ قبيل نهاية ولاية المتصرف، آملاً في أن يعيَّن متصرّفاً. وكانت عودته خلسة، وقد استقرّ في شمالي لبنان. غير أنَّ الولاية الثانية كانت من نصيب المتصرف الأول الذي جُددَّت له، فراح كرم على مدى ثلاث سنوات يطوف البلاد داعياً إلى محاربة الحاكم الأجنبي، فتألّب حوله محازبون سار بهم سنة ١٨٦٧ زاحفاً إلى بيت الدين، مقر المتصرف. ولدى وصوله إلى بلدة بكفيا الواقعة في منطقة وسط قضاء المتن، منتصف المسافة بين الشمال وبيت الدين، نشب القتال بينه وبين العسكر النظامي. وفيما كان العراك على أشده وصل شيخ خازني ليبلغ كرم طلب قنصل فرنسة بأن يكفّ عن

١ - بطرس كرم: قلائد المرجان في تاريخ جبل لبنان، (بيروت ١٩٣٢) ج١، ص ١٩١ - ١٩٢

القتال، وبأن ينتقل إلى ملاقاته في بكركي. ففهم كرم أن الذين كان يعتمد عليهم قد تخلّوا عنه، فسار في درب منفاه: إلى الجزائر أولاً، ثم إلى باريس، وأخيراً إلى ناپولي إيطالية حيث توفي وهو في الثالثة والستين من عمره سنة ١٨٨٨[1]، ونُقل جثمانه إلى مسقط رأسه اهدن ووضع في كنيستها ليُعرض على الناس. وما زال بعض موارنة تلك المنطقة من شمالي لبنان يقولون بقداسة هذا الرجل الذي أقيم له نصب على مقبرة الكنيسة، ويروون أن جثمانه الذي لم يبلَ، غير محنّط.

ختم عهد المتصرفية العهد العثماني بالنسبة إلى لبنان، موئل الموارنة في الشرق. وكانت ثورة يوسف بك كرم آخر ثورة مارونية في ذلك العهد الذي ستكون خاتمة ويلاته عليهم سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) التي علّق العثمانيون بخلالها نظام المتصرِّفية، ودخلوا لبنان، وحاصروا السكان، فدفع الموارنة من أرواحهم وكراماتهم وأرزاقهم، هذه المرة أيضاً، الثمن الباهظ. ومثلما أدَّت أحداث ١٨٦٠ إلى ما يشبه الكيان لهم في نظام المتصرفيَّة، فإنَّ معاناة الحرب العالمية الأولى سوف توصلهم إلى ترؤس جمهورية لبنان الكبير، فيتوهمون بأن كياناً متيناً قد تحقَّق لهم هذه المرَّة تشاركهم فيه طوائف متعدِّدة أخرى.

مثلما قضى نظام المتصرفية على نفوذ الاقطاعيين ومكانتهم، كذلك هو انتزع، أو أنه ألغى دور البطريركية المارونية كممثلة للموارنة تجاه السلطان. ومنذ ذلك التاريخ لم يعد للبطريرك ذلك التأثير الذي كان له في شؤون السياسة والمجتمع. إلاّ أن الجبل اللبناني قد بقي، في الحقبة الفاصلة بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين، ملجأ للطوائف المسيحية الكاثوليكية التي اضطُهدت في الجوار (راجع بداية الفصل). وبقي للبطريركية المارونية وللاكليروس الماروني ذلك الدور الذي وصفه الكاردينال لودوكفسكي رئيس مجمع نشر الإيمان المقدس بأنّه

١ - راجع: اسطفان البشعلاني، لبنان ويوسف بك كرم، (بيروت ١٩٢٥)، ص ٣١٢ - ٦٤٤؛ نسيم نوفل، بطل لبنان، (الاسكندرية)، ص ٢٢٤ - ٢٤٨؛ المطران يوسف الدبس، تاريخ سورية، الجزء الثامن، ص ٧٢٦ - ٧٣٣.

قد «حمى وحفظ في الشرق على مدى الأجيال الإيمان الكاثوليكي... ولم يألُ جهداً عن العمل في هداية قسم معتبر من الطوائف الشرقية المنفصلة إلى الايمان القـــويم[1]». وجاءت هذه الرسالة بمناسبة براءة التثبيت الفاتيكاني سنة ١٨٩٠ للبطريرك يوحنا الحاج الذي انتُخب خلفاً للبطريرك بولس مسعد المتوفى في ١٨ نيسان (إپريل) من تلك السنة. وقد كان هذا البطريرك، قبل انتخابه، قد شغل منصب قاضٍ في عهد القائمقامية، وفي ديوان الأمير بشير أحمد، كما تقلّد وظيفة كاتب سرّ للقصادة الرسولية في لبنان. وكان ذا بعد نظر سياسي، وهو أول من نصح المشايخ الخوازنة بإعادة النظر في سياستهم تداركاً لسوء العاقبة قبل ثورة طانيوس شاهين. وكان بخلال أحداث ١٨٦٠ قد انتقل خلسة إلى فرنسة حيث راح ينشر التقارير في الصحف حول المذابح التي كان يتعرَّض لها شعبه في لبنان، مما جعل الرأي العام الفرنسي يتحرَّك بفعالية. كان المسؤول الوحيد الذي رفض توقيع الاتفاق الذي نصَّته اللجنة الدولية لعدم إنصافه. ومن أجلّ أعماله أنه رطّب الأجواء بين المشايخ الخوازنة والعامة الذين ثاروا عليهم، فعاد الأولون وتسلَّموا أرزاقهم التي كان رجال الثورة قد استولوا عليها. وكان البطريرك بولس مسعد قد سام الخوري يوحنا الحاج مطراناً لأبرشية بعلبك بناء على طلب أهل الأبرشية.

حاول السلطان العثماني أن يسلب البطريرك الماروني آخر امتيازاته، فأرسل إلى المتصرف يطلب إليه إبلاغ البطريرك المنتخب حديثاً ان عليه طلب الفرمان من السلطان والاّ اعتُبرت ولايته غير شرعية. فكان ردّ يوحنا الحاج: «نحن الموارنة أبناء لا غرباء، والأبناء ليسوا بحاجة لأن يُعترف بحقوقهم».

جعل يوحنا الحاج للبطريركية المارونية صرحاً شتوياً في بكركي حيث شيَّد بناء فخماً فسيح الأرجاء على أنقاض الدير القديم، لا يزال قائماً حتى اليوم شاهداً على أنه كان أهمّ صرح عرفه لبنان يومذاك. وقد تمكَّن من ضم أملاك واسعة إلى

---

١ ـ يوسف داغر، بطاركة الموارنة، ص ١٠٥

البطريركية، كما رصد أموالاً كثيرة لتجديد المدرسة المارونية في رومة التي كانت قد أُقفلت مدَّة قرن بسبب الأحوال الاقتصادية، وأنشأ وكالتين بطريركيتين مارونيتين في كل من أورشليم وباريس. ومن أهم مراسيمه أنه حرم تعاطي الميسر وحضور مجالسه. وكان هذا البطريرك آخر بطاركة القرن التاسع عشر إذ توفي نهاية سنة ١٨٩٨، ليلة الميلاد، فخلفه أول بطاركة القرن العشرين: الياس الحويِّك، الذي انتُخب بداية سنة ١٨٩٩، فاستهلَّ منشوره الأول بقوله إنَّه سيبذل جهده لتعزيز الطائفة، ثمّ إنّ اسم هذا البطريرك قد اقترن بـ«لبنان الكبير». فلقد كان من أهم الدّاعين إلى توسيع نطاق جبل لبنان إلى ما كان معروفاً به من التخوم تاريخياً وجغرافياً، ذلك أنَّ ممثِّلي الشعب اللبناني قد انتدبوه إلى مؤتمر الصلح في باريس بعد الحرب العالمية الاولى، للمطالبة باستقلالهم واسترجاع الاراضي المسلوخة من لبنان. وقد قام بمهمته بحماس وإخلاص، واثقاً من أن قيام دولة حديثة مركّبة من شأنه أن يبعد عن طائفته مخاطر المستقبل، وقد اعتقد أن من شأن هذا الاتحاد أن يزيل الأحقاد من قلوب المتخاصمين. غير أن المستقبل لن يكون عند حسن ظن هذا البطريرك. وسوف تعود ظروف الشؤم لتعيد الاقتتال بعد أكثر من مئة عام كانت قد مرَّت على أحداث بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

***

عرفت الطائفة المارونية بخلال حكم المتصرفية هجرة كبيرة بدأت في سبعينات القرن التاسع عشر ونشطت بين نهايته وبداية القرن العشرين. وقد كانت الاسباب الرئيسية لهذه الهجرة رداءة الحالة الاقتصادية التي خلَّفتها الحروب الأهلية، وساعد على استفحالها ضيق رقعة الجبل اللبناني المنفصل عن المدن الساحلية الكبرى وعن السهول الزراعية في البقاع وعكار. وكانت هجرة هؤلاء إلى الاميركتين حيث نشأت لهم جاليات أصبحت، مع المتحدِّرين من أولئك الروَّاد الأوَّلين، تعدّ أعداداً مضاعفة لأولئك الذين لا يزالون في لبنان. ولكنّ أكثر أبناء

تلك الجاليات قد تخلّى عن مارونيته وامتزج في الطوائف المحلية حيث أقام. ويقتصر وجود الموارنة على لبنان بأكثرية ساحقة. ومنهم بضعة آلاف في سورية وفي قبرص، إضافة إلى آلاف أخرى من المهاجرين والمغتربين، بشكل دائم أو مؤقّت، في مختلف بلدان العالم.

عزّز الاكليروس الماروني في القرن التاسع عشر أدياره العائدة إلى الرهبان والراهبات، ونشأت فيها وحولها مدارس حديثة نسبياً إتّبع بعضها نظام المدارس الفرنسيّة، حتى بات لهذه الطائفة سلسلة من المدارس الكبرى التّابعة لعدد من الرهبانيات، يفوق عددها تلك التي للإرساليات الأجنبية مجتمعة. كما نشأت لهذه الطائفة مؤخّراً جامعات ثلاث، يتبع كل منها لأحدى رهبانيات الطائفة: اللبنانية (البلدية)، والمريمية (الحلبية) والانطونية.

الكنيسة القبطية

عندما دخل السلطان العثماني سليم الأول مصر فاتحاً سنة ١٥١٧، كان مسيحيو مصر، وجلّهم من الأقباط «قد وصلوا إلى انحلال كبير» بسبب المعاناة الرهيبة التي تحمّلوها طوال مدة حكم المماليك الذين جعلوهم «في وضع ذليل ملؤه الخزي والاهانة والتغريم لحدّ يفوق الوصف[1]». وكان جلّ كنائسهم قد هُدم، ولم يبقَ، قبيل الفتح العثماني، كنيسة واحدة في مصر لم يلحق بها ضرر[2]. وإن المراجع التي تصف دخول السلطان العثماني إلى أرض النيل وصفاً شائقاً ومفصلاً[3]، لا تذكر الاقباط إلاّ مرة واحدة في مجرى الحديث عن: «انتقال بعض الصناع الذين انتقاهم السلطان للسفر إلى الآستانة». وما جاء عن الاقباط لم يأت أكثر منه عن سائر الطوائف المسيحية في مصر.

١ - السنحاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، (طبقة بولاق) ص ٣٦
٢ - د. جاك تاجر، أقباط ومسلمون، (نيوجرسي ١٩٨٤) ص ١٩٤
٣ - ابن أياس، تاريخ مصر، (طبعة بولاق ١٣١١ هـ.) ج٣، ص ١٤٩

من شأن هذا أن يدل على أن الاقباط والمسيحيين عامة في مصر، كانوا قد أُقصوا عن تعاطي السياسة والشؤون العامة في البلاد، بعد أن أدّت التدابير المذلّة إلى اعتناق بعضهم الاسلام هرباً من هذا الاذلال. فانتقلوا من جحيمه إلى نعيم الاجلال والاكرام... وقد بلغ اليأس ببعضهم الآخر أن افتعلوا الاستشهاد افتعالاً. من تلك الحوادث أن مسيحياً من مواليد مدينة الطور، كان كاتباً في أحد الدواوين، قصد القاهرة ووقف يخطب جهراً ضد الديانة الاسلامية. فلمّا أُرسل إلى القاضي مكبّلاً، قال المسيحيّ: «إنّ هدفي الحصول على شرف الاستشهاد». كذلك قدم القاهرة جماعة من الرجال والنساء وأعلنوا على الملأ خروجهم عن الاسلام وعزمهم على العودة إلى حظيرة المسيحية، وقالوا: «لقد جئنا لكي نغتفر الخطايا التي اقترفناها، فنقدّم حياتنا على مذبح التضحية لننال نعم سيدنا المسيح»، فقُطعت رؤوسهم جميعاً. وقد قام أربعة من الرهبان وتحدّوا علانية فقهاء الاسلام، وتكلّموا بأسلوب ملؤه الاحتقار، فحُكم عليهم بالحرق أحياء[1].

وتذكر المدوّنات عن أحداث جرت بعد الفتح العثماني مباشرة، تدلّ على أن الامور لم تتغير كثيراً، بالنسبة إلى المسيحيين، رغم أن هؤلاء قد رأوا في ذلك الفتح ما يمكن أن يكون إنقاذاً لهم من ظلم المماليك. فإثر الفتح مباشرة قبض جنود الانكشارية على بعض المسيحيين بتهمة أنهم قد شربوا الخمرة وأفحشوا في السباب. وقام هؤلاء الجنود بتقطيع أجساد هؤلاء المسيحيين بالفؤوس، ثم اجتمع السواد الأعظم من العوام «وأخذوا رم النصارى وأطلقوا فيها النار وأخذوا السقائف التي تقع على الدكاكين ووضعوها عليهم وأشعلوها بالنار، فاحترقوا وصاروا كالرماد[2]». وقد جرت أحداث مماثلة بعد أربع سنوات من الفتح (١٥٢١)، فاضطر بعض المحكومين إلى أن يعتنقوا الاسلام لينجوا من الموت[3].

١ - Quatremere E., Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte et sur quelques contrées voisines. (Paris, 1811), II, PP. 251 - 257
٢ - ابن أياس، ج٣، ص ٢٦٨ - ٢٦٩
٣ - المرجع السابق، ص ٣١٥

أمّا الحدث التاريخي البارز في تاريخ الأقباط أبّان العصر العثماني فهو محاولة اليعاقبة الأقباط اعتناق المذهب الكاثوليكي. وكانت قد جرت محاولة من قبل الكنيسة الكاثوليكية لمصالحة الاقباط اليعاقبة والكاثوليك في العصر الأيوبي، عهد البطريرك القبطي كيريللوس الثالث، ولكنها باءت بالفشل. وفي عام ١٤٣٩ كانت الكنيسة القبطية قد تمثّلت في مَجمع فلورنسة الذي دعت إليه رومة والذي أُعلن بخلاله عن اتحاد الكنيسة الجامعة، بيدَ أن ذلك لم يؤدّ عملياً إلى اتحاد الكنيسة القبطية مع الكنيسة الجامعة.

سنة ١٥٦٠ زار رومة قسّيسان قبطيان يحملان عريضة تشهد برغبة رؤساء الاقباط وشعبهم بأسره في العودة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية والخضوع لسلطة البابا نائب المسيح.

لقد وجد الأقباط أنفسهم مهملين متروكين مستفردين في بداية العهد العثماني. ذلك أن العثمانيين قد جعلوا البطريرك القسطنطيني مرجعية مسيحية أولى في الشرق. ثم إن علاقاتهم الدولية فرضت عليهم مسايرة رومة التي كانت تحافظ على مصالح الكنائس الكاثوليكية في الشرق. وكان الأقباط خارج المرجعيتين. وبالنظر للخصومات المتأصّلة بينهم وبين كنيسة بيزنطية، وإلى أن بعضهم قد اعتنق الكثلكة منذ زمن بعيد، فقد رأوا أن من شأن الالتحاق بالكنيسة الكاثوليكية أن يخلّصهم من ذلك الاستفراد، إذ أملوا بدعم رومة وسائر دول الغرب التي تتأثر بها، لتحسين أوضاعهم وللتخفيف من معاناتهم ومن جور الحكم العثماني.

عندما قصد القسّيسان القبطيان رومة كان على السدّة البابوية بيوس الرابع (١٥٥٩ ـ ١٥٦٥)، الذي استجاب لطلب الأقباط، وسارع إلى إرسال راهبين يسوعيين إلى مصر ليحادثا البطريرك القبطي في الموضوع، وليتأكدا من صدق نواياه. فسافر اليسوعيان «وجرت محادثات بينهما وبين عضوين من الطائفة

القبطية عيّنهما البطريرك جبرائيل للقيام بهذه المهمّة. ولكن اليسوعيّين لم يتوصّلا إلى ما كانا يتوخيان، إذ اعترف محدثاهما القبطيان بأن الأقباط لقّبوا البابا في الكتاب المرسل إليه بلقب: «أب الآباء» و «راعي الرعاة» و «رئيس جميع الكنائس»، إلاّ ان هذه الالقاب لم يقصد منها سوى الإكرام، وقد جرت العادة أن تحرر الخطابات إلى الأصدقاء بهذا الاسلوب. غير أنهما اعتبرا أن كل بطريرك له السلطة التامة على كنيسته، وذلك منذ مجمع كلسيدونية الذي عيّن عدة بطاركة مستقلّين عن بعضهم بعضاً»[1].

وبعد مضي عشرين سنة على تلك المحاولة الفاشلة، عاود اليعاقبة مسعاهم لدى الكرسي الرسولي سنة ١٥٨٢، وطلبوا أن يزور الأب جان باتيست إليانو مصر، وكان يومها في سورية، ليتحقق بنفسه من صدق نيّاتهم، وليعطوه البرهان الملموس على إيمانهم وخضوعهم. فاستجاب هذه المرة أيضاً الأب الأقدس إلى طلبهم، وكان على كرسي رومة يومذاك البابا غريغوريوس الثالث عشر الذي طلب من الأب إليانو أن ينتقل إلى القاهرة ويجتمع بأركان الطائفة القبطية بحضور البطريرك. وكاد أن يتمّ الاتفاق لو لم يتوفَّ البطريرك فجأة. ويزعم الكاثوليك أنه مات مسموماً. على أي حال فإنّ المجلس انفضّ بعد وفاة البطريرك وأُلقي القبض على مندوب البابا باعتباره جاسوساً أجنبياً. وقد اضطّر البابا إلى دفع فدية قدرها خمسة آلاف دينار لاطلاق سراح ممثله وتمكينه من العودة إلى بلاده.

ومرّ سبع عشرة سنة، فأوفد البطريرك القبطي جبرائيل الثامن هذه المرة مبعوثَين إلى رومة يحملان إقراراً بالايمان عليه توقيعه. وقد ذكر في هذا الاقرار المؤرخ في سنة ١٥٩٧ أنه «يؤمن ايماناً ثابتاً بقوانين مجمع نيقية وبقانون مجمع القسطنطينية، ويعترف بأن أحداً من الذين خارج الكنيسة الكاثوليكية لن يستطيع أن ينال الحياة الأبدية». ولم يأت هذا التصريح على قرارات مجمع

---

١ ـ راجع: تاجر، أقباط ومسلمون، ص ١٩٧ ـ ١٩٨

كلسيدونية (خلقيدونية). وبينما كان المندوبان القبطيان في رومة، أرسل إليهما البطريرك القبطي معلومات تقول: «لا تدعوا أحداً يخدمكم من المترجمين إلاّ من كتّاب جبل لبنان الموارنة. فإنهم من أقاربنا ويعرفون بلساننا. ثم إنكم تُقبّلوا لنا أيادي السيد البابا وتسألوا من تفضلاته وإحسانه بأن ينعم علينا ويتصدق في كل سنة بترتيب جامكية (عطية) فإننا في غاية الضيق والشدّة. وما تحتاجه كنائسنا وأديرتنا والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام الذين بالسجون والحديد لسبب الجوالي وغيرهم... وأنتم يا أولادي تعرفوا ذلك أكثر مني، ومن عملكم «أن» تعرّفوا السيد البابا عن ذلك. فإنّ السيد المسيح أعطاه السلطة على سائر المسيحيين، وهو أبوهم وأبونا نحن أيضاً، وحيث ما هو أبونا، فيساعدنا في ضيقنا الذي نحن فيه». وقد أرسل البابا كليمانص الثامن (١٥٩٢ ـ ١٦٠٥) بعض المساعدات إليهم[1].

لا شكّ في أن هذه الرسالة التي بعث بها بطريرك الأقباط إلى رومة نهاية القرن السادس عشر، تكشف عن أن وضع الأقباط في مصر كان في تلك الحقبة صعباً للغاية. ولا عجب في أن يحاول المسؤول الأول عن الأمة القبطية أن يستنجد برومة من أجل حاجات أبناء كنيسته، وإن كان ثمنُ ذلك الرضوخَ لسلطة البابا. على أي حال، فإن رومة قد استجابت لذلك الطلب، واعتبرت الأقباط كاثوليكاً، كما بقي الأقباط في حال اتحاد مع رومة زهاء قرن ونصف. على أنه مثلما دعت الحاجة الأقباط إلى الاتحاد برومة، فاتحدوا، فهم سوف ينفصلون عنها متى دعتهم الحاجة إلى اكتساب تأييد الباشاوات الأتراك، وهذا ما حصل فعلاً[2].

إذا كان الإنسان المعاصر يعتبر أن مثل ذلك التقلّب في الولاء وفي الانتماء

١ ـ الأب انطون رباط، البابا اكليماندوس الثامن وبطريرك الأقباط جبرائيل، مجموعة مجلّة المشرق، (١٩٠٧ ـ ١٩١٤)

٢ ـ Renaudot (Abbé E.), Historia patriarcharum Alexandrinorum Jacobitarum, (Paris 1713) PP. 601 - 602

مُشين لصاحبه، فيكون من الظلم وصم الأقباط بمثل هذه الصفة، بالنظر إلى واقع حالهم في ذلك العصر من الزمان. بيدَ أن أبناء هذه الطائفة المنسيَّة من قبل عمالقة القيادة المسيحية في العالم، قد عانوا معاناة فيها من الظلم والاضطهاد، ومن غياب إمكانية الصمود والدفاع، ما أجبر مثلُه شعوباً على الهجرة أو إلى التنازل عن الدين. إلاّ أن أبناء هذه الطائفة الذين تمسَّكوا بأرضهم ودينهم، بعد أن تنازل بعضهم عن دينه أو عن أرضه، لا يُلامون إذا استنجدوا تارة برومة وطوراً بباشاوات الأتراك. وللدلالة على بعض ما عانته تلك الطائفة في نصف الألف العثماني، لا بدّ من الاستشهاد ببعض ما سجلته المدونات.

سنة ١٧٨٥ قدم إلى مصر القبطان التركي حسن باشا ليؤكد سيادة الباب العالي عليها. وقد استفاد هذا القبطان من المناسبة، فقرَّر أن يملأ جعبته الخاصة قبل أن يغادر أرض النيل. ومن اجراءاته التعسُّفية التي قام بها ضدّ المسيحيين بهدف تحقيق غايته، أنه أمر «بالمناداة على طائفة النصارى بأن لا يركبوا الدواب ولا يستخدموا المسلمين ولا يشتروا الجواري والعبيد، ومن كان عنده شيء من ذلك باعه أو أعتقه، وأن يلزموا زيّهم الأصلي من شدّ الزنار والزنوط. وأرسل حسن باشا إلى القاضي ليأمره بالكشف عن جميع ما أُوقف على الديور والكنائس من أطيان ورزق وأملاك... وبالمناداة أيضاً على النصارى واليهود بأن يغيّروا أسماءهم التي على أسماء الأنبياء كابراهيم وموسى وعيسى ويوسف واسحق، وأن يحضروا جميع ما عندهم من الجواري والعبيد، وإن لم يفعلوا، وقع التفتيش على ذلك في دورهم وأماكنهم. فصالحوا على ذلك بمال، فحصل العفو وأذنوا لهم في أن يبيعوا ما عندهم من الجواري والعبيد، ويقبضوا أثمانها لأنفسهم ولا يستخدموا المسلمين، فأخرجوا ما عندهم وباعوا بعضه وأودعوه عند معارفهم من المسلمين[1]». وبعد يومين «نودي على النصارى بإحضار ما عندهم من الجواري والعبيد ساعة تاريخه،

١ ـ تاريخ الجبرتي (طبعة بولاق) ج٢، ص ١١٥

ثم نزلت العساكر وهجمت على بيوت النصارى لإحضار ما فيها، فكان شيئاً كثيراً، وأحضروهم إلى القبطان، فأخرجوهم إلى المزاد وباعوهم، واشترى غالبهم العسكر، وصاروا يبيعونهم على الناس بالمرابحة. وقرَّر على بيوت النصارى الذين خرجوا بصحبة الأمراء المصرية مبلغ دراهم مجموع متفرِّقها خمسة وسبعون ألف ريال. وأمر أيضاً بإحصاء بيوت جميع النصارى ودورهم وما هو في ملكهم، وأن يُكتب جميع ذلك في قوائم، ويقرر عليها أجرة مثلها في العام، وأن يكشف في السجل على ما هو جار في أملاكهم. ثم قرَّر أيضاً خمسمائة كيس، فوزَّعوها على أفرادهم، فحصل لفقرائهم الضرر الزائد. وقرَّر أيضاً على كل شخص ديناراً جزية، العال كالدون (دون استثناء) وذلك خارج عن الجزية الديوانية المقررة. وقبض قبطان باشا أيضاً على راهب من رهبان النصارى واستخلص منه صندوقاً من ودائع النصارى. وقبض القبطان على المعلم واصف وحبسه وضربه وطالبه بالأموال، وواصف هذا أحد الكتاب المُبشرين المشهورين، ويعرف الايراد والمصاريف وعنده نسخ من دفاتر الروزنامة ويحفظ الكليَّات والجزئيات، ولا يخفى عن ذهنه شيء من ذلك... وقبض على بعض نساء المعلم ابراهيم الجوهري من بيت حسن آغا كتخده علي بك، أمين احتساب سابقاً، فأقرت على خبايا، أخرجوا منها أمتعة وأواني ذهباً وفضة وسروجاً وغيرها[1]».

لم يتوقَّف هذا الظلم بعد رحيل القبطان باشا مالئاً جعبته من أموال مسيحيي مصر، فقد استذوق المسؤولون الأتراك هذا المال الحرام واستمرأوه، فراحوا يستعملون أساليب ذلك الزائر الطامع، ومنها أن عبدي باشا أمر بهدم حارة النصارى في القاهرة وبالمناداة عليهم من ركوب الحمير، «فسعوا في المصالحة وتمَّت على خمسة وثلاثين ألف ريال[2]».

١ ـ المرجع السابق، ص ١١٧ ـ ١٢٠

٢ ـ المرجع السابق، ص ١٥٤

عندما يُطالع الإنسان المعاصر عن مثل هذه الأساليب في افقار الشعوب ظلماً وعدواناً، لا يعود بوسعه أن يلوم المظلومين كيفما تصرَّفوا. ولم يكن ما ورد سوى عيِّنات قليلة من نهج حياة دائم ومستمر، عاشه الأقباط دون أن تقطعه بعض الحقبات الضيقة، مما كاد أن يفنيهم من الوجود. ففي احصائية مسيحية جرت عند الفتح الاسلامي كان هنالك ستماية ألف قبطي يدفعون رسماً للبطريرك. وبعد عشرة قرون على ذلك الاحصاء (١٦٧١) نقص هذا العدد إلى عشرة آلاف[1]! وبينما كان عدد الأساقفة في مصر عند الفتح الاسلامي سبعين مطراناً، فقد انخفض عددهم بعد حوالى ألف ومئة عام إلى اثني عشر أسقفاً[2].

لم يقتصر تأثير اضطهاد المسيحية في مصر على التقليل من عدد أتباعها، بعد أن مات جلُّهم مذبوحاً أو جائعاً، وأسلم بعضهم هرباً من الموت والمذلَّة، وهاجر البعض القليل إلى خارج مصر، بل تعدَّى ذلك التأثير العدد إلى النوعية. فبعد أن كان أقباط مصر أسياد العلم والتقنية النسبية والمعرفة، أضحوا قلَّة استبدّ بأبنائها الجهل إلى حدّ كان يصعب معه انتخاب بطريرك من بين قساوستهم، الذين أضحى جميعهم متزوِّجين، يهتمون بحاجاتهم المادية أكثر من اهتمامهم بواجباتهم الدينية. وعلى ما كانوا عليه من إيمان وتقوى، كانوا يعتقدون أن الدين ليس سوى مجرَّد تلاوة الصلوات وتعيين تواريخ الاعياد وأيام الصوم. وكان عدد الرهبان قد أضحى على شيء كبير من الصغر، وقد توزَّعوا بين أربعة أو خمسة أديرة كانت قد أصبحت في حالة يرثى لها[3].

كان الأقباط في عهد المماليك حاجة لا بدّ منها لهؤلاء الأخيرين، نظراً لما كان يتمتَّع به أبناء الطائفة القبطية من علم ومعرفة واختصاص في شؤون الادارة،

١ ـ Vansleb, Nouvelle relation d'un voyage fait en Egypte en 1672 - 73 (Paris, 1677), PP. 298 - 299

٢ ـ Niebuhr, Voyage en Arabie et en d'autres pays de l'Orient, (Suisse, 1780)

٣ ـ Thevenot, Relation d'un voyage fait au levant, (Paris 1665), P. 501

ذلك الاختصاص الذي حصّلوه بالممارسة الطويلة وتوارثوه. إلاّ أنهم في الزمن العثماني كانوا قد فقدوا تلك الميزة «ولم يعد من بينهم من يستطيع أن يكون موضع احترام الأتراك لعلمه، أو موضع خوفهم لسطوته. فكان الاتراك يعتبرونهم حثالة القوم وأقلّ منزلة من اليهود، فكانوا يسيئون معاملتهم عندما يحلو لهم ذلك، ويغلقون لهم أبواب كنائسهم ومنازلهم حين يروق لهم الأمر ولأتفه الأسباب وأبعدها عن العدل لكي يغتصبوا منهم بعض المال[١]».

اذا كان الأقباط الذين عاصروا الأتراك في مدن مصر الرئيسية، كالقاهرة والاسكندرية وأسيوط، قد عانوا المذلّة لتمييزهم عن المسلمين، فإنهم في المناطق البعيدة قد عاشوا، بمنأى عن ظلم العثمانيين، متساوين مع المسلمين، ولكن تلك المساواة... كانت مساواة في الفقر والعوز. أما في المدن، فإنّ القلة الضئيلة منهم التي تمكّنت من تحصيل بعض العلم، قد أصبح أفرادها لا يهتمون إلاّ بتحصيل بعض المال، فعُرفوا بالبخل وببعدهم عن العلوم والفنون، وفقدوا الميل إلى النبوغ[٢]. هذا ما جناه الظلم عليهم.

تجاه هذا الواقع المرير كان من الطبيعي أن يرحّب الأقباط المصريون بالحملة الفرنسية على مصر التي قادها نابوليون الأول سنة ١٧٩٨. فإنّ تلك الحملة كانت أول محاولة لغزو وادي النيل قامت بها دولة مسيحية منذ الحروب الصليبية. وكانت نتيجتها أن حكمت مصر، لأول مرة منذ الفتح الاسلامي، دولة مسيحية. ولأول مرة منذ ظهور الاسلام حاول بعض مسيحيي أوروبة، عبر الحملة الفرنسية، التعاون مع... مسلمي مصر.

ما أن وصل الأسطول الفرنسي إلى مياه الاسكندرية حتى حاول مسلمو المدن المصرية الانقضاض على المسيحيين لإبادتهم، الاّ أن السلطات قد منعت

---

١ - Vansleb, Nouvelle relation, P. 298 - 299

٢ - Description de l'Egypte (Par les savants de l'Expédition), 2e edit. XIV, P. 299

العامة من تنفيذ رغبتها خوفاً من ردّة الفعل الفرنسية. لكن أعمال الدهم والتفتيش طالت بيوت المسيحيين من أقباط وغير أقباط[١]. وقد بقي الاقباط حذرين للغاية من ردّة فعل المسلمين إذا ما هم تظاهروا بفرحتهم لقدوم الفرنسيين. وهكذا، فعندما دخلت الجيوش الفرنسية الظافرة إلى العاصمة المصرية لم ترحّب بها أية جماعة، ولم تلاقَ بأي مظهر من مظاهر التأييد[٢]. ولكن عندما أرسل نابوليون في طلب المعلم جرجس الجوهري رئيس المباشرين[٣]، قدّم هذا الأخير إلى الجنرال الفرنسي أعيان الأقباط الذين قدّموا فروض الطاعة والولاء للقائد الفرنسي. وممّا يحمل الكثير من المعاني أن أعيان الأقباط قد قصدوا الفاتح الفرنسي وهم «يرتدون الأكسية ذات الأكمام المذهّبة المزدانة بالوريدات الذهبية وعلى رؤوسهم عمائم الكشمير[٤]». وقد اعتبر مؤرخو المسلمين أن «الأقباط والسوريين واليونانيين واليهود أصبحوا لا يُحتملون لأنهم يركبون الخيل ويحملون السلاح!» وذكروا: «أن هؤلاء تطاولوا على المسلمين بالسبّ والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ولم يبقوا للصلح مكاناً، وصرّحوا بانقضاء ملّة المسلمين وأيام الموحدين... وأمر الفرنسيون بجمع البغال ومنعوا المسلمين من ركوبها[٥]».

في الواقع حاول نابوليون، في سعيه للحصول على تأييد المسلمين، الاستغناء عن خدمات الأقباط في جباية الضرائب، وهي إحدى الوظائف الهامّة التي كانوا يمارسونها في المجتمع المصري. فعندما ترك مصر أرسل إلى الجنرال كليبر الذي خلفه في مصر كتاباً جاء فيه: «كنت مزمعاً، إن سارت الأمور سيرها الطبيعي، أن أضع نظاماً جديداً للضرائب يجعلنا نستغني عن خدمات الأقباط». وقد صار

---

١ - الجبرتي، ج ٤، ص ٧

٢ - Richardot, Nouveaux mémoires sur l'armée française en Egypte et en Syrie, ou: La vérité mise à jour. (Paris 1848), PP. 59 - 60

٣ - المباشر: وظيفة حكومية. جابي الضرائب

٤ - Homsy G. le général Jacob et l'Expédition de Bonaparte en Egypte, P. 42

٥ - الجبرتي، ج٣، ص ١١٣

الأقباط في عهد بونابرت من خيبة أمل إلى خيبة أمل. وكان الفاتح الفرنسي يصف الأقباط بأنهم «لصوص مكروهون في البلاد غير أنه يجب مراعاتهم لأنهم يعرفون الأصول العامة لادارة البلاد دون سواهم[1]». وقد كتب نابوليون إلى قادته في مناسبات عدة يقول: «مهما فعلتم، تأكدوا من أن النصارى في صفّكم، فلا تتردّدوا إذن في تفضيل المسلمين على النصارى». ولما انتصر على القوات العثمانية في أبي قير وأراد أن يطمئن الأعيان والعلماء عن نياته، صرح علانية: «نعم، اني أكره النصارى. لقد سحقت ديانتهم وحطمت هياكلهم وقتلت قساوستهم وهشمت صلبانهم ونكرت ايمانهم. وعلى الرغم من ذلك فإني أراهم يفرحون لفرحي ويتألمون لألمي. فهل من المعقول أن أعتنق من جديد الدين المسيحي؟ وما هي الفائدة التي سأجنيها من هذا العمل؟».

وكان نابوليون عندما اقترب من أسوار الاسكندرية تقدم على أنه حامي الاسلام بل بطل من أبطاله فقال: «لسنا كفّار العصور الهمجية الذين يأتون إليكم لمحاربة إيمانكم. إنّنا نعترف بأن ايمانكم رفيع القدر. وسوف نعتنق دينكم إذا حلّت الساعة التي يصبح فيها الفرنسيون الراشدون مؤمنين حقيقيّين[2]»... وفي تصريح وجّهه إلى الشعب المصري، كان نابوليون أكثر وضوحاً، إذ كشف فيه عن نواياه الحقيقية، وعن السياسة التي سوف ينتهجها إزاءهم طوال مدة إقامته بينهم، فقال: «أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلاد، قولوا لأمتكم أن الفرنسيين هم أيضاً مسلمون مخلصون. وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومة الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الفرسان، الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين». ولما احتل القائد الفرنسي البلاد، لم يتأخر عن تنفيذ ما وعد به قبل أن ينقضي شهر على نزوله الاسكندرية، حيث أمر بالاحتفال بذكرى

١ - تاجر، ص ٢١٣
٢ - راجع: تاجر، ص ٢٠٨

المولد النبوي احتفالاً عظيماً كان بونابرت يرتدي فيه زياً شرقياً جميلاً، ويتعمم بعمامة وينتعل بابوجاً، وقد صحبه جميع ضبّاطه وقوّاده إلى المجلس الرئيسي حيث كان مجتمعاً حوالى المائة شيخ، فجلس بونابرت بينهم على وسادات منثورة على الأرض، ثم شبك ذراعيه وأخذ يتلو معهم تواشيح تقصّ حياة النبيّ منذ مولده إلى وفاته، ويكوّر مثلهم أعلى جسده ويحرك رأسه، مما لفت أنظار رجال الدين الذين أُعجبوا بتقواه[1]».

تعدّدت الآراء حول الدوافع الحقيقية لمثل هذه المواقف التي اتّخذها نابوليون من الاسلام. فإنّ الثورة الفرنسية التي كانت قد أبعدت الفرنسيين عن التدين، جعلت بعضهم يعتبر أن القائد الفرنسي كان صادقاً في مواقفه تلك، خاصة وأنه قد كتب إلى مفتي المسلمين في القاهرة يقول: «أرجو ألاّ يتأخر الوقت الذي أستطيع فيه جمع العناصر الحكيمة والمثقّفة في البلاد، ووضع نظام ثابت يرتكز على مبادئ القرآن الحقة الوحيدة التي تستطيع إسعاد البشر دون سواها». غير أن بعضهم الآخر قد رأى في مواقف نابوليون ما أملته عليه الاعتبارات السياسية. فلقد غرق الأسطول الفرنسي في أبي قير ولم يبقَ لدى القائد العام سوى بضعة آلاف من الجند. ولما قُطع خط المواصلات بينه وبين فرنسة، وفقد كل أمل في وصول النجدات، لم يستطع، وحوله شعب يكن له العداء، إلاّ أن يأمل، وإن كان هذا الأمل ضعيفاً، في قدرته على كسب عطف هذا الشعب الذي تدين غالبيته بالاسلام. ومما يفيد عن امكانية صحة هذا التصوُّر، محاولة بونابرت القيام بأكبر دعاية ممكنة حول مواقفه الاسلامية تلك، منها أنه كتب إلى أحد جنرالاته في ٢٨ آب (أغسطس) ١٧٩٨ يقول: «قابل من طرفي الشيخ المسيري وقل له فيما تقوله كيف احتفلنا بالمولد النبوي، قل له إني في القاهرة أجتمع برؤساء القضاء وكبار القوم... وإني أكثر الناس اقتناعاً بصفوة الديانة الاسلامية وقداستها...». على أنّ الرأي الأقرب إلى المنطق يقول بأنه: «لمّا كان بونابرت لا يعتنق ديناً، ولا يعترف

١ - Rhyme A., l'Egypte française, Col. "l'univ. pittoresque". P. 64

بوجود الله، فلم يكن من المنتظر أن يثير اعتناقه الاسلام أي قلق في نفسه،إذا كان إسلامه يخدمه في مراميه السياسة. ولكن قواده سَّخفوا الفكرة ثم اعترضوا عليها صريحاً[1] ». والثابت على أي حال هو أن بونابرت «على الرغم من أنه أراد أن يظهر ميله إلى الاسلام أمام المسلمين، فإنَّه لم يتقاعس عن حماية العقائد المختلفة[2] ». وها هو يردّ في كتاب إلى ممثل الأقباط، الذي كتب يطلب الغاء القيود التي فرضها المماليك على شعائرهم الدينية، فيجيب بخطاب مؤرخ في ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٩٨: «استلمت الكتاب الذي أرسلته الأمّة القبطية. وانه من دواعي سروري حماية هذه الأمّة التي لن تكون من الآن فصاعداً موضع الاحتقار، وعندما تتيح الظروف، وهذا ما لا أراه بعيداً، قد أسمح لها بأن تقيم شعائرها الدينية علانية كما هي الحال في أوروبة حيث يتابع كل إنسان عقيدته... وسأعاقب بشدة القرى التي قُتل فيها الأقباط أثناء الثورة التي نشبت. وبوسعك من الآن أن تخبر أبناء طائفتك بأني أسمح لهم بأن يحملوا السلاح ويركبوا البغال والخيول ويضعوا العمامات على رؤوسهم ويتزيوا بما يشاؤون».

على أي حال، فإن المستندات الموثوقة والتي لا يزال جلُّها محفوظاً، من شأنها أن تدلّ على حقيقة أن بونابرت الذي حاول بأقواله وأعماله كسب عطف المسلمين، لم يذهب، لارضائهم، إلى حد اضطهاد المسيحيين، وإن لم يُبدِ لهؤلاء ما من شأنه أن يدلّ على عطفه نحوهم.

ولكن بونابرت، بسياسته هذه، لم يوفق إلى إزالة البغضاء من قلوب المسلمين، ولا إلى الحظوة بولاء الأقباط وسائر المسيحيين له ولاء عميقاً ومخلصاً، وإن كان الأخيرون قد انتهزوا وجود الفرنسيين في مصر ليحاولوا استعادة مكاناتهم الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية.

١ ـ تاجر، ص ٢١٠ ـ ٢١١

٢ ـ Thibaudeau A. G., Histoire de la campagne d'Egypte sous le règne de Napoléon le grand, Huzard, (Paris 1839) II, P. 71

ذلك أن المسلمين قد شنوا عليه ثورة أولى في القاهرة دعا إليها أحد المشايخ الصغار. وقد أخذ الثوار الفرنسيين على غرَّة وهم يطوفون الشوارع بدون أسلحة، وقتلوا جميع الذين تعاونوا مع الفرنسيين من مسيحيين ومسلمين. وعندما انتصر نابوليون على العثمانيين في أبي قير وعاد إلى القاهرة، اضطّر الأعيان والعلماء المسلمون، مرغمين، إلى أن يتوجهوا نحو داره ليقدّموا له فروض التهاني، ولكنَ الحزن والخيبة كانا باديين على وجوههم، فلامهم بقوله أنه يتعجب من حزنهم لانتصاره، مع أنه كرر لهم أنه مسلم وأنه مؤمن بأن لا اله إلاّ الله وأنه أجلّ النبيّ وأحب المسلمين. عند هذا الحد لا بد لنابوليون من أن يكون قد شعر بفشله في اقناع المسلمين بحسن نواياه. وسوف تبرز مضاعفات هذه القناعة بعد أن تسلم الحكم الفرنسي في مصر معاونو الفاتح الفرنسي. فلمّا طلب ثوار القاهرة الأمان، لم يرَ القائد الفرنسي كليبر مانعاً من منحهم اياه، ولكنه أثقل الضرائب على البلاد، ثم أرسل في طلب العلماء والأعيان وألقى فيهم خطبة ملؤها التهديد والوعيد، وصفهم فيها بالأشرار الجاحدين، وأعلن عن فرض ضريبة استثنائية على جميع السكان، ما عدا النصارى الذميّين[1].

بعد انتصار كليبر في سهول عين شمس وقضائه على الثورة الداخلية، تشجّع المسيحيون، وشعروا بأن الفرنسيين قد ثبّتوا أقدامهم في مصر، فراحوا ينتقمون من المسلمين بالسباب والضرب والاعتداء. بيدَ أن اغتيال الجنرال كليبر قد أوقف تلك الروح العدائية لدى المسيحيين المستقوين بالفرنسيّين، لأن خليفة كليبر، وهو الجنرال مينو، كان أقل ثقة بالأقباط من سلفه «فصار الفرنسيون يعاقبون بقسوة المباشرين الأقباط الذين اختلسوا الأموال، ويتربَّصون الفرصة للاستغناء عن هؤلاء الموظفين غير المخلصين، وقد أمر مينو بالقبض على بعض هؤلاء وبمعاقبتهم[2] ». وفي

١ ـ مذكرات نقولا ترك، ص ٨٩ ـ ٩٠

٢ ـ Rigault G., le général Abdallah Menou et la dernière phase de l'expédition d'Egypte (1799 - 1801) Paris plon, (1911) XX, 403 PP. 118

النهاية اتّهم الأقباط الفرنسيين بأنهم يريدون التخلّص منهم كي يختلسوا مال الخزينة العامة. على أن هناك نقطة لا تزال غامضة، ألا وهي تعاون الأقباط العسكري مع الفرنسيين من خلال الفرقة القبطية التي كان يقودها قبطي، مُنح رتبة جنرال في الجيش الفرنسي هو الجنرال يعقوب[1].

«كان يعقوب يشغل وظيفة مباشر قبل أن ينضم إلى صفوف ابراهيم بك ومراد بك في المعركة الكبرى التي دارت بين جيوش المماليك وجيوش القبطان باشا العثماني، وقد اغدق البكوان عليه النعم حتى أصبح وجيهاً ثرياً بين أبناء قومه. وعندما جاء الفرنسيون أعلن يعقوب عن ولائه التام لهم والتحق بجيشهم وبرهن عن مهارة في الفنون الحربية بخلال مواجهة الثورات المصرية، مما جعل الفرنسيين يستجيبون لطلبه تجنيد فرقة من الأقباط يتولى قيادتها، وقد بلغ عدد أفرادها ثمانمئة رجل. إلاّ أن تلك الفرقة لم تشترك في أيّة معارك، بل بقيت معسكرة في القاهرة، وقد ركن جندها إلى الفرار أو الاختباء عندما رحل الفرنسيون ومعهم يعقوب الذي توفي على ظهر الباخرة، فألقيت جثته في عرض البحر».

كان لرحيل الفرنسيين عن مصر ردّة فعل متوقّعة ضد المسيحيين، رغم أن الاتفاقية التي وُقّعت قضت بأن لا يُضطهد الذين يقطنون مصر، مهما كانت دياناتهم، في أشخاصهم أو في ممتلكاتهم بسبب علاقاتهم مع الفرنسيين أثناء احتلالهم لمصر، على أن يتبع هؤلاء قوانين البلاد. إلاّ أن تلك النصوص لم تمنع الشعب المسلم من توجيه غضبه إلى المسيحيين بعد انسحاب الفرنسيين. وهكذا فقد عملت الظروف مرة جديدة لكي يدفع الأقباط، من أرواحهم وأموالهم، ثمناً لفشل مستعمر، ولسوء اهتمام العالم المسيحي بهم من جهة، ولسوء معاملة العالم الاسلامي لهم من جهة أخرى.

---

١ - راجع: جورج ودوان، الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ (القاهرة ١٩٣٢).

إذا كان نابوليون بونابرت، وعظمته الفرنسية، قد فشل في السيطرة على مصر واستعمارها وحكمها، فمن سخرية الاقدار أنّ ضابطاً ألبانياً كان قد قدم البلاد حديثاً، واشترك ضد الفرنسيين في معركة أبي قير وأبلى فيها بلاء لافتاً، فعيّنه العثمانيون والياً على مصر، سوف يتمكّن، ليس من مجابهة السلطنة العثمانية وحسب، بل ومن تأسيس عائلة مالكة لوادي النيل، سوف يرثها أحفاده عن أبنائه بعد أن رضخت له البلاد المصرية بجميع طوائفها رضوخ المطيع، دون أيّة محاولة تمرّد أو تململ.

كافالاّ Kavalla، أو قولَه: مرفأ في شمالي شرقي اليونان، على بحر ايجه، وُلد فيها محمّد عليّ سنة ١٧٦٩ وعُرف بالألباني. ويلتقي المدونون مع هذا الرجل مقاتلاً إلى جانب العثمانيين في معركة أبي قيرِ سنة ١٧٩٩. ثم عندما عُيّن والياً على مصر سنة ١٨٠٥. ويصبح منذ ذلك التاريخ ملازماً للأحداث، فينتصر على الجيوش البريطانية بقيادة فريزر سنة ١٨٠٧، ويشترك مع الأتراك في مواجهة الوهابيين المنطلقين من نجد فينجح في قهرهم، ويدعم الباب العالي في ميدان القتال اليوناني حيث ثار الشعب مناضلاً من أجل استقلاله، ويوجّه حملة إلى الجزيرة العربية بين ١٨١١ و ١٨١٩، ويفتح السودان بين ١٨٢١ و ١٨٢٣. وإذ لم يقدِّر له الأتراك خدماته ويلحقوا، سورية على الأقل، بإمارته، بدأ محمّد عليّ سنة ١٨٣١ بغزو فلسطين وسورية وهدفه الأبعد تركية بالذات. وقد قاد ابنه ابراهيم باشا[1] تلك الحملة التي استمرت سنتين. أتبعها بحملة ثانية (١٨٣٩ - ١٨٤٠) بلغ فيها الأناضول، ولم يوقفه إلاّ التدخل الأوروبي من خلال اتفاقية كوتاهية سنة ١٨٣٣ بالنسبة للحملة الأولى، ومعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ بالنسبة لحملة الثانية. وإذا كان محمّد عليّ لم يضع يده على الباب العالي، انما هو ضمن لنفسه الحكم الوراثي على مصر، فنهض بها ونماها وطورها علمياً وثقافياً وزراعياً. وإنّ ما حققه

---

١ - راجع: أسد رستم، ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا (القاهرة ١٩٤٨) ص ١١٣ - ١١٩

هذا الرجل الفذ لمصر، كان ينوي تحقيقه لسائر البلاد العربية. وقد كان أشدّ الدول حماساً لتراجعه: بريطانية، التي كانت تخشى، في حال زوال تركية كقوة في الشرق الأدنى، أن تتعرض طريق الهند إلى المخاطر، وأن يتعرض مركزها في الهند إلى السوء. وهكذا قُضي على الحلم الذي حلم به محمّد عليّ بإنشاء دولة عربية يرئسها. كما أن الشعب العربي لم يتحمس للفكرة، ولم تكن نزعة الاستقلال قد اختمرت في العقول بعد[1]. وقد جاء في تداوين بعض المستشرقين ما يشبه النبوءة إذ قال: «إن مصير مصر كان يتوقف على رجلين اثنين: محمّد عليّ وابنه ابراهيم... وانت إذا قيّض لك أن تزيل هذين الرجلين عن المسرح فلا يبقى من مصر شيء ولا يبقى من حلم الامبراطورية العربية شيء[2]».

أدخل محمّد عليّ في مصر، كما أدخل ابنه ابراهيم باشا، اصلاحات جذرية: فقد سمح للمسيحيين بأن يتبوأوا مراكز حكومية عالية، وأن يركبوا الخيل، ويتعمّموا العمامة البيضاء. بمعنى آخر فإنهما ألغيا التدابير الذميّة. وأخذ المسيحيون في مصر وسورية يمارسون طقوسهم الدينية بحريّة، فيخرجون في المواكب والزياحات. ولم يفرّق محمّد عليّ في مصر بين القبطي والمسلم، بل راح يوقّع التصاريح للأقباط ببناء الكنائس وترميمها[3]. ولأول مرة منذ أمد بعيد أوصى محمّد عليّ عمّاله في فلسطين «بالقبط الذين يريدون الحج إلى القدس وأن لا يُدع لأحد مجالاً في التدخل في شؤونهم[4]». وقد تكرّرت هذه التوصيات في الوثائق، خلال الأعوام اللاحقة. وكان محمّد عليّ، وابنه ابراهيم باشا، أول الحكام المسلمين الذين منحوا الموظفين الأقباط في مصر، وسائر المسيحيين في سورية،

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥١٢
٢ - De Lamartine, voyage en orient (Paris 1859) Vol.I.P. 42
٣ - محفوظات عابدين، سجل ٧٢٨ «تركي»، ديوان الخديوي، بتاريخ ٧ محرم ١٢٣٥ هـ. (١٨١٩)؛ محفوظات عابدين، أمر عالي بتاريخ ١٨ رمضان ٢١٧١ هـ. (١٨٥٤) سجل ١٨٨٢ ص ٤٢٦
٤ - محفوظات عابدين سجل ١٩ «معية تركي» بتاريخ ١٢ شعبان ١٢٤١هـ. (١٨٢٥)

رتبة البكوّية، واتخذوا لهم مستشارين من النصارى[1]. وعندما كان المسيحيون في مصر يتعرَّضون للاعتداءات، كان محمّد عليّ «يمدّهم بالبارود وآلات الحرب دون المسلمين. حتى إنهم استأذنوا السلطات في سد بعض الحارات النافذة التي يخشون وقوع الضرر منها، فحصل ذلك[2]». وكان يعاقب حكّامه المسلمين الذين كانوا يظلمون الأقباط وسائر المسيحيين[3]. وقد أبدى محمّد عليّ احتراماً، لا بل إيماناً بالمسيحية، فقد أمر سنة ١٨١٠ بأن تقام الصلوات لترتفع مياه النيل، «فخرج النصارى الأقباط يستسقون أيضاً، واجتمعوا بالروضة، وصحِبتُهم القساوسة والرهبان، وهم راكبون الخيول والرهوانات والبغال والحمير في تجمل زائد، وصحبتهم طائفة من أتباع الباشا بالعصي المفضضة[4]».

قد يبدو من ذلك أن محمّد عليّ لم يكن مسلماً حقيقياً، بينما الوقائع تؤكد العكس، فهو كان يكافئ الذين يعتنقون الاسلام منحاً نقدية، ويعيّنهم في الوظائف الحكومية[5]، ولم يتردَّد في معاقبة المسلمين المرتدين علانية، وقد حكم بالموت إغراقاً على امرأة ارتدت عن الاسلام وتزوّجت مسيحياً[6]. وقد حثّ محمّد عليّ الكولونيل الفرنسي سيف Sève، الملقب بسليمان باشا، على اعتناق الاسلام قبل أن يسلمه قيادة الجيش حيث لا يجوز لغير المسلم أن يتولاها. لذلك لا يمكن القول، رغم الفارق بين هذا الحكم والأحكام السابقة، بأن المسيحيين في مصر قد تساووا مع المسلمين في هذا العهد. ولا شك في أن محمّد عليّ كان يحسب للرأي

١ - رستم، ذكرى الفاتح ابراهيم باشا، ص ١١٣ - ١١٤
٢ - الجبرتي، ج ٤، ص ٢٢٦
٣ - Paton Andrew Archibald, A history of the egyptian revolution from the period of the mamelukes to the death of Mohammed Ali (London, 1870), Vol II, PP. 236 - 237
٤ - الجبرتي، ج ٤، ص ١٢١ - ١٢٢
٥ - محفوظات عابدين، سجل ٥٧ «معية سمية تركي» ص ٣٤؛ محفوظات عابدين، سجل ٢١ «معية تركي» ص ٨٤، تاريخ ٧ ذي القعدة.
٦ - Laine E.W., An account of the manners and customs of the modern egyptian, (London 1871) P. 126

العام المسلم حسابا، فلم يتمكن من المبالغة في تلك المساواة، وها هو في معرض مديحه لأحد المباشرين النصارى، واسمه عبود، يقول: «إنه يحبه ويثق به ولولا الملامة لقلده الدفترداريّة[1]».

سار خلفاء محمّد عليّ، من الأسرة المالكة التي أسّسها، على خطاه. فإنّ حفيده عبّاس حلمي الأول، ابن ولده طوسون (١٧٩٣ ـ ١٨١٦) الذي كان يكنّ العداء للأوروبيين فاستغنى عن عدد كبير من الموظّفين الفرنسيين، قد عيّن وزيرين للخارجية من أصل أرمني، ولم يفكّر في التخلّص من المباشرين الأقباط، ولم يصدر عنه أيّ أمر عدائي ضدّ الطوائف المسيحية[2]. وكان عبّاس خديوياً على مصر بين ١٨٤٨ و ١٨٥٤. خلفه عمه سعيد باشا (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) ابن محمّد عليّ الذي منح فردينان دي ليسيبس الرخصة لفتح ترعة السويس. وقد بُني في أيامه مدينة بور سعيد المنسوبة اليه، والقلعة السعيدية عند القناطر الخيرية. وإليه يعود الفضل في إدخال المسيحيين، وخاصة الأقباط، في صلب الأمة المصرية، إذ قرّر قبولهم في الجيش وتطبيق قانون الخدمة العسكرية عليهم[3]. بيدَ أن الأقباط قد خافوا هذا القرار، ووسّطوا البريطانيين مع الخديوي لاعفائهم من الخدمة العسكرية، فكانت ردّة فعل سعيد أن أقال عدداً كبيراً من الموظفين الأقباط. أما بطريركهم، الذي كان قد ضغط على الارساليات البروتستانتية لتضغط على الوالي كي يعفى الأقباط من الخدمة العسكرية، فقد مات بعد ذلك بقليل مسموماً[4]. غير أن ذلك لم يمنع من أن ينتظم الأقباط في سلك الجيش في عهد الخديوي إسماعيل، حفيد محمّد عليّ من ابنه ابراهيم، الذي تولّى الحكم سنة ١٨٦٣، فدشّن قناة السويس سنة ١٨٦٩، وأبدل بالمحاكم القنصلية المحاكمَ المختلطة. وقام بالمشاريع العمرانية وفتح

١ ـ الجبرتي، ج ٤، ص ٣٠٣
٢ ـ تاجر، ص ٢٣٥
٣ ـ محفوظات عابدين، سجل ٥٠٥ «معية سنية تركي» رقم ٢١
٤ ـ Butcher E. L., the story of the church of Egypt. (London 1897). Fowler M., Christian Egypt: Past present and futur, (London 1901), XIV

المدارس. لكنه بالغ في إسراف المال فوقعت مصر في عجز وازداد دَين الأجانب عليها، مما أدّى إلى تدخُّل الدول الأجنبية، وإلى ثورة عرابي باشا وعزل إسماعيل سنة ١٨٧٩ الذي لجأ إلى الاستانة حيث توفي سنة ١٨٩٥. وكان هذا الخديوي قد تلقّى علومه في ڤيينة ثم في باريس مما أوجد في نفسيته تلك الروح العلمانية. ولأول مرة في التاريخ المدوّن نطالع مثل الحادثة التالية:

«عند تولى إسماعيل باشا السلطة وجّه إليه أحد كبار الموظفين سؤالاً حول موقفه من موضوع أحد الأقباط، ويدعى خليل عوض الحاوي، الذي يريد اعتناق الاسلام، فأجاب: إن خليل عوض الحاوي من أهالي السلمية ومن طائفة الأقباط، قدم عرضاً يطلب فيه الخروج عن الدين المسيحي، برغبته وبدون إجبار، واعتناقه الدين الاسلامي. فإنه يجب استحضار كم قسيساً من قسس الأقباط، وكم عمدة من عمد الأقباط، لأجل إقرار خليل عوض الحاوي أمامهم بأنه راغب اعتناق دين الاسلام، من غير أن يجبره أحد في ذلك، لأجل إلاّ تكون هذه المسألة وسيلة فيما بعد للتشكي، وبعد اقراره أمامهم يصير التَّصديق منهم على الإقرار ويُحفظ بالمديرية[1]». وعندما أُريد تنظيم أحد شوارع مصر الذي فرض التخطيط، لتقويمه، أن يمر بكنيسة الأقباط، عرض الخديوي الأمر على الأنبا ديمتريوس البطريرك آنئذ، عارضاً «أن تبنى له كنيسة أفخر من هذه الكنيسة، وكذا داراً للبطريركية أفخر من دارها الحالية، كل ذلك على نفقة الحكومة في نظير مرور الشارع معتدلاً. فأجاب البطريرك قائلاً: إني أتشاءم من هدم معبد ديني ليكون طريقاً. كما إنني لا أرضى للجناب الخديوي أن يوافق على هذا العمل. ولما عُرض الأمر على الخديوي قال: لتكن إرادة البطريرك وليبقَ المعبد قائماً كما هو[2]».

أكثر من ذلك، ولأول مرة في تاريخ مصر، طلب هذا الخديوي منح المدارس

١ ـ محفوظات عابدين، سجل ٥٣٠ «معية سنية تركي» بتاريخ ٢٠ محرم ١٢٧٠ هـ. (١٨٧٠)
٢ ـ تاجر، ص ٢٣٩

القبطية الأورثوذكسية إعانات مالية. حتى إنه وضع مركباً بخارياً تحت أمرة البطريرك القبطي ليطوف برعيته ويحثّها على البقاء في كنف الكنيسة القبطية. وأخيراً قرَّر إسماعيل جعل المساواة رسمية بين الاقباط والمسلمين عندما أَفسح في المجال لترشيح الاقباط لانتخابات أعضاء مجلس الشورى، ثم لتعيين قضاة من الأقباط في المحاكم. وقد نص قانون، سنة ١٨٦٦ الخاص بانشاء مجلس الشورى في مادته الثانية، على أن «كل شخص بلغ من عمره الخامسة والعشرين يمكن ترشيحه شرط أن يكون أميناً مخلصاً وأن تتأكد الحكومة من أنه وُلد في البلاد». وفي عهده أجمع النواب بمناسبة مناقشة سياسة الحكومة التعليمية، على أنه يجب على المدارس الأميرية أن تقبل أولاد النصارى والمسلمين بدون تفرقة. وكان إسماعيل أول حاكم في مصر المسلمة قد طلب رتبة الباشاوية لمسيحيّ، هو نوبار باشا. وممّا قاله هذا الخديوي لأحد الغربيين: «يعيش المسيحيون في تركية في جو من التسامح المشوب بالاحتقار! وأما في مصر فإنّهم يعيشون قي جو من التسامح المقرون بالاحترام[١]».

وفي عهد إسماعيل استقرَّ عدد كبير من الأقباط في السودان حيث جنوا ثروات طائلة من خلال التجارة، ولكن ثورة المهدي سوف تسبِّب لهم أضراراً لن تعوّض.

في الواقع قد يتطلّب أمر عدم التمييز في البلدان الاسلامية بين الأكثرية المسلمة والأقلية المسيحية زمناً طويلاً، إلى حدّ أن الفكر البشري لا يسعه تقديره. وليست عملية القضاء على هذا التمييز قضاء نهائياً لتحصل بقرار حاكم أو من جرّاء سياسة سياسي، بل إن مثل هذا التحوُل يتطلّب تبديل المفاهيم الأساسية عند الشعوب. ومتى كان الدين أساس هذه المفاهيم، يصبح من المستحيل تبديلها أو تغييرها جذرياً، وإن كان بالامكان التخفيق من حدتها وتطرُّفها في وقت من

---

١ - Charmes G., Cinq mois au caire et dans la basse Egypte (Paris 1820), P. 162

الأوقات، غير أنها لا تلبث ان تطفو من جديد على سطح الأحداث خاصة في حالات المفاصل التاريخية، وفي حالات الغليان الشعبي بسبب الثورات والانتفاضات. فالبرغم من كل ما فعله محمّد عليّ وأحفاده في مصر من أجل التوصُّل إلى صهر المجتمعات المصرية في مجتمع واحد، وقد اصبح مسيحيون قبط يصلُون بواسطة الانتخاب إلى مراكز العمدة، لا بل رئاسات الوزارات، قبل ثورة عرابي باشا، التي سبقها تضامن وتعاون بين المسلمين والمسيحيين في مصر، فما أن وقعت الحوادث الدامية في صيف سنة ١٨٨٢، حتى قام الثوّار المسلمون بمهاجمة الاقلية المسيحية، خاصة بعد ضرب الاسكندرية بالمدافع. وهكذا تبيَّن أن ما وُصف بالوحدة القومية في مصر قبل ذلك التاريخ لم يكن وحدة يُركن اليها نهائياً.

ومثلما فعل المسلمون عند شعورهم بالتفوُق، كذلك نجد المسيحيين يتحينون الفرص لمعاملة هؤلاء بالمثل. فما أن جاء الاحتلال البريطاني في أعقاب ثورة الضبَّاط، «واحتلت دولة مسيحية بلداً اسلامياً، حتى اجتمع الأقباط في هيئة مؤتمر في مدينة أسيوط وتقدَّموا بمطالب عديدة باسم «الأمّة القبطية» وسرعان ما اجتمع أعيان المسلمين في مؤتمر مضاد وانكروا على الأقباط مطالبهم[١]». وراح الناس يتحدَّثون عن «الخيانة» وعن «محاولة الاقليَّة المسيحية استغلال وجود دولة أوروبية لمصلحتها»، أما المعتدلون «فقد تأسَّفوا لعمل الأقباط بأسيوط وقالوا إنهم وقعوا ضحية دسيسة انكليزية كان يُقصد منها بذر التفرقة في البلاد للسيطرة عليها» بينما اعتبر «مبرّرو» الأحداث انه لم يكن هنالك أية خيانة، ولا أية دسيسة من قبل الانكليز، بل إن مؤتمر أسيوط القبطي لم يكن سوى صدفة[٢]!.

قد يكون من المبالغة في طيبة القلب، أو من المبالغة في استطابة قلوب الآخرين، ان تُرد أحداث مثل تلك إلى الصدفة. فالواقع ان الاقلية المسيحية التي

---

١ - تاجر، ص ٢٤٤

٢ - المرجع السابق. ص ٢٤٥

كبتت ما كبتته عبر قرون طويلة من التاريخ، لن يمكنها إلاّ أن تحاول التمسك بحبال هواء الأحداث، كلما لاح لها طيف بدا وكأنّه ذلك المخلّص المنتظر. ومتى اتَّضح لهؤلاء أن صاحب ذلك الطيف لم يكن سوى مستعمر، أو محتل، أو فاتح آخر، لا يعني انتسابه الديني أي سبب لتفضيل فئة من الاثنيات الواقعة تحت الاحتلال على فئة أخرى، سوى بقدر ما تؤمنه له تلك الفئات من مصالح، كانوا يعودون ليقولوا بتفضيل المسلم ابن البلد على المسيحي الأجنبي. ذلك هو قدر الأقليات المسيحية في الشرق، التي طالما وجدت فيها القوى الاستعماريّة المسيحيّة موضوعاً قابلاً للتعاون، أو بالأحرى لخدمة مصالحها. ومثلما حصل ذلك أيام الفرس فالبيزنطيّين فالصليبيين فالفرنسيين، كذلك حصل عندما زكّر البريطانيون أنظارهم على وادي النيل. وهنالك من الوثائق المحفوظة ما من شأنه أن يسكت كل من يحاول أن يقول بعكس هذه المقولة. وها هو المستر وليم هاملتون، قائد الاسطول البريطاني سنة ١٨٠١ يكتب من مدينة أثينة في تموز (يوليو) ١٨٠٢: «يميل الاقباط كثيراً إلى الانكليز وهم في هذه الآونة شديدو الاستعداد لإجابة مطالب الحكومة البريطانية[1]». ولمّا أهمل البريطانيون هذه العروض، تحوّل الاقباط إلى الفرنسيين. وقد كتب الجنرال سبستياني، بدوره، في التقرير الذي رفعه إلى بونابرت بتاريخ كانون الثاني (يناير) ١٨٠٣ يقول: «اقترح المباشر القبطي أن يرسلني ليطلعني على الحوادث الهامة في مصر وسورية، وعرض خدماته وخدمات امّته في حالة تطلعنا إلى الشرق. وتدل جميع المظاهر على شدّة اخلاصه لنا، ولكني اجبته بأن ليس عندي تعليمات بهذا الشأن[2]». غير انهم مثلما خيّب أملهم الاحتلال البونابرتي في بداية القرن التاسع عشر، ها أن أملهم يخيب من الاحتلال البريطاني قبيل نهايته، ويعتبرون أن «رجال الاحتلال أباحوا للمسلمين، بل

---

١ - الوثائق الانكليزية التي نشرها المسيو «دوان» في منشورات الجمعية الجغرافية الملكية المصرية تحت عنوان L'Angleterre et l'Egypte ص ٤٠٨

٢ - تاجر، ص ٢٣٠، عن الوثائق الفرنسية: L'Egypte de 1802 à 1804 ص ١١

أعدّوهم، لدخول جميع الوظائف الكتابية والحسابية وغيرها مما كاد ان يكون قبلاً محتكراً للأقباط... ان الاحتلال البريطاني قضى على احتكار الأقباط لبعض الوظائف».

وسط كل هذه العقد الناشئة عن سخرية الأقدار اللاعبة بمصائر الاقليات، بين الاكثريات، في المجتمعات البشرية، يقول قبطي مفكر: «لقد حدث لنا ما يحدث عادة لشعب مظلوم تحسَّنت حالته، وفُكّت عنه القيود، فتذمّر بدلاً من أن يُظهر امتناناً. والواقع أننا نشعر في هذه الحالة بحدّة الآلام التي ما زالت فينا، وبالنير الذي ما فتئنا نحمله ونحترق شوقاً إلى امتلاك الأشياء التي تذوقنا جزءاً منها. وكنا فيما مضى نرضخ، بحكم العادة، لما لا بدّ منه ولمصيرنا المحتوم. ولكن إذا كانت التجارب تدلّ على استطاعتنا التحرر من هذه القيود، طلبنا بفارغ الصبر الحريَّة التامة والمستعجلة. وبينما كنا لا نجرؤ على المطالبة بشيء في الماضي، فان جرأتنا تزداد كلما تحققت مطالبنا وتزداد رغبتنا في ما نجرؤ على المطالبة به[1]».

وها هم الأقباط فعلاً يرفعون، بواسطة أعيانهم، في العقد الأول من القرن العشرين، إلى سلطات الاحتلال ومعاونيها، عريضة يطالبون فيها بالمساواة الكاملة فيما يختصّ بالتعيين في الوظائف الإدارية، وبإغلاق المحاكم يوم الأحد، وبتعيين أعضاء اضافيين في الجمعية الاستشارية، وبتعليم الدين المسيحي للطلبة المسيحيين في المدارس الرسمية. وإذ قبلت السلطات المطلبين الثاني والثالث، وطرحت المطلبين الآخرين على بساط البحث، استقبلت الصحف القبطية هذا التجاوب بالتهاني، بينما استنكرت الصحف الاسلامية ما رحّبت به الصحف المسيحية، فكانت فاتحة نزال عنيف بين الصحافتين. وقد استشرت الأزمة عندما ترك الباشا المسلم مصطفى فهمي الوزارة، وحلّ محله الباشا القبطي بطرس غالي في شتاء ١٩٠٨، فارتاح الأقباط وكفّوا عن التذمر بينما سارع المسلمون إلى اغتيال بطرس. وهنا برز مُصلِح آخر متفائل، هو مصطفى كامل مؤسّس الحزب الوطني، أول من جمع تحت لواء الوطنية،

---

١ - تاجر، ص ٢٤٩

المسلمين والأقباط، وخطب قائلاً: «إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش، ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد... الأقباط أخوة لنا في الوطن». إلاّ أن مصطفى كامل نفسه قد وضع في برنامج الحزب الوطني نفسه «أحقيّة المسلمين دون سواهم بحجة أنهم يدينون بدين الدولة الرسمي»[1]. وما أن مات مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ وخلفه محمّد بك فريد حتى ساءت العلاقات بين المسلمين والأقباط من جديد. فلقد امتنع محمّد بك عن التأسّف لاغتيال الزعيم القبطي بطرس غالي، حتى إنه شنّ أعنف هجوم سياسي على الأقباط يومذاك. فكانت ردّة فعل الأقباط أن حرموا على أبنائهم الانخراط في الحزب الوطني. وهنا، ومثلما جرت وستجري العادة في أي من البلدان العربية عندما تحاول أقلّية مسيحية أن تحقّق لها بعض المكانة أو الكيان، فقد قام المسلمون من خلال ما عُرف بالمؤتمر الاسلامي الذي عُقد في مصر الجديدة، واتهموا الأقباط بمحاولة «تقسيم الأمة المصرية باعتبارها نظاماً سياسياً إلى عنصرين دينيين: أكثرية اسلامية وأقلّية قبطية[1]». وقد يكون ما جاء في تقرير هيئة تنظيم ذلك المؤتمر، أصدق ما يرسم واقع الحال دونما مواربة أو مسايرة:

> «ان مثل هذا التقسيم يستتبع تقسيم الوحدة السياسية إلى أجزاء دينية، أي تقسيم الشيء إلى اقسام تخالفه في الجوهر... إنّ لكل أمة ديناً رسمياً وذلك ضروري بل مشخّص من مشخّصاتها، ودين كل أمة هو دين حكومتها أو دين الأكثرية فيها. ولكن من غير المفهوم بالمرة أن يكون في الأمة أكثر من دين رسمي واحد، وعليه فلا معنى للاعتراف بأقليات دينية تعمل في السياسة بهذه الصفة أو تكسب حقوقاً عامّة أكثر من أن تخلي بينها وبين القيام بواجباتها الدينية عملاً بحرّية الاعتقاد... وبعد ذلك كيف يمكن الاعتراف بأن أقلّية دينية تباشر بهذه الصفة الأعمال العمومية ويكون لها مطالب خاصة كأنما هي أقلية سياسية؟ لا يمكن الاعتراف بذلك إلاّ إذا أمكن أن يكون للأمة دينان في آن واحد وأن يكون أساس الأعمال في المصالح العامة هو الدين... فمن الخطأ أن يكون من الأشياء المسلم بها اعتبار أن الأمة السياسية تتألّف من عناصر دينية[2]».

١ ـ المرجع السابق، ص ٢٥٢، عن «أعمال المؤتمر» ص ٥

٢ ـ المرجع السابق

وتعود دورة الأمر الواقع إلى دورانها. ويبرز مصلح آخر. وتكمل الاقدار سخريتها. فيعترف مؤتمر الصلح، المنعقد بباريس، بعد الحرب العالمية الأولى، بحقوق بريطانية على مصر. فتقوم قيامة المصريين جميعاً: مسلمين ومسيحيين. ويبرز سعد زغلول، ويلحظ خطر إبعاد الأقباط عن عمل يتوقف نجاحه على اتحاد مصر جمعاء. وينضمّ الأقباط إلى حركته بحماس. فكانوا أكثر تحمّساً للملكية من الملك نفسه. وراح القساوسة يحضون على حب الوطن من على المنابر، لا بل كان المشايخ المسلمون يقفون إلى جانبهم، خلف المذابح يخطبون في الكنائس... وظهرت الفولكلورية: أعلام عليها صلبان تعانق الهلال... وينتهي، في المحيط، نصف الألف العثماني، وأقباط مصر في مهب رياح الزمن الآتي.

الكنيسة البروتستانتية

الكنيسة، أو على الاصح: الكنائس البروتستانتية، هي الكنائس المسيحية الغربية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية تحت تأثير لوثر[1] وكلفين[2]. انتشرت في المانية والبلدان الاسكندينافية واسكوتلندة وسويسرة ثم في أميركا الشمالية. وهي مُتشعبة إلى كنائس يختلف بعضها عن بعض في عقائدها وقوانينها. أهم فروعها اللوثرية والكلفينية والأنغليكانية. وتُعرف الفروع الأولى بالكنائس الانجيلية. وتعتبر هذه الكنائس الكتاب المقدس مصدراً وحيداً للوحي، ولا تعترف بالكهنوت.

١ ـ لوثر (مارتين) Luther (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦): راهب اغسطيني لاهوتي مفكر وكاتب. بدأ في ألمانية الاصلاح الديني (البروتستانتية) وانفصل عن الكنيسة في شأن الغفرانات وسلطة البابا والتبتّل وإكرام القديسين والمطهر والقداس سنة (١٥١٧)، نقل «التوراة» إلى الالمانية، فكانت الترجمة حدثاً أدبياً ودينياً.

٢ ـ كلڤين (يوحنا) Calven (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤). مصلح فرنسي. نشر في فرنسة وسويسرا مذهباً حمل اسمه، انشأ في جنيف حكومة تيوقراطية. له كتاب «الاسس المسيحية» جعل منه أكبر لاهوتي عرفه الاصلاح.

عندما استقلّت المستعمرات البريطانية في أميركا الشمالية قبل نهاية القرن الثامن عشر، وانتظمت شؤون الدولة الجديدة تحت اسم الولايات المتحدة الأميركية، كثر عدد المهاجرين البروتستانت حتى أصبحوا يشكّلون أكثرية السكان. وكان هؤلاء بمعظمهم من أتباع الكلفينية. وأسّسوا في العام ١٨١٠ جمعية مبشّرين رسمية للتبشير في ما وراء البحار.

مثلما اهتمّ سائر المبشّرين المسيحيين، من مختلف الملل والفصائل، قبل نهاية القرن التاسع عشر، بالشرق عموماً، وبالأراضي المقدّسة خصوصاً، كذلك فعل هؤلاء البروتستانت الذين شعروا بواجب التبشير والدعاية لإيمانهم. فبعد أن انتظموا في وليامس تاون من أعمال نيوانغلند في الولايات المتحدة بداية القرن التاسع عشر، وقامت جماعة من الأتقياء منهم ونذر أفرادها حياتهم لأعمال التبشير فأسّسوا سنة ١٨٠٨ جمعية الاخوة، ثم التحقوا بكلية أندوڤر للاهوت وبثّوا دعايتهم في كلية وليام، انضمّ هؤلاء إلى الجمعية الأميركية للتبشير في الخارج، بأرض الشرق، فأرسلوا سنة ١٨١٩ طلائع مبشّريهم إلى فلسطين. وقد ساعد هؤلاء الروّاد جمعية التبشير الانجيلية الفرنسية[1]. وسرعان ما انبثّ هؤلاء، وكان عددهم لا يزيد على عدد أصابع اليد، في فلسطين ومصر ولبنان وسورية وفارس وأرمينية. وقد التحق بالمرسلين البروتستانت الأميركيين والفرنسيين، آخرون بريطانيون كان أولهم «لويس واي» الذي جاء بيروت سنة ١٨٢٣ واستأجر مقر الآباء اليسوعيين في عينطورة كسروان وجعله مركزاً للتبشير البروتستانتي[2].

كان التعليم والمال من العناصر التي توسّلها المرسلون البروتستانت لجلب

١ - راجــع: Thompson A. E., A century of Jewish mission p. 176; Strong W., the story of the american board, P. 80; Bianquis J., les nouveaux devoirs du protestantisme français en Syrie, P. 24.

٢ - Scherer G., Mediteranien missions, (Beirut 1932). P. 1

الجماعات إلى معتقدهم، وكان الشرق إذ ذاك في حالة عوز لهذين العنصرين. كما أنهم تعاملوا باللّين والمحبة لبثّ معتقدهم. فلدى وصولهم إلى القدس أقاموا عند الأرمن ووزّعوا الأسفار المقدسة. ثم أظهروا المحبة لليونان وأقرضوا رهبان القبر المقدّس مالاً كانوا بحاجة إليه. واستأجروا بضع غرف في دير رئيس الملائكة. وراحوا يوزّعون الخبز يومياً على التلامذة الفقراء. وبعد أن بارك الرهبان أعمالهم الخيرية هذه، بدأوا يعلّمون الأولاد ألاّ يحترموا الأيقونات والصليب، وألاّ يصوموا وألاّ يستشفعوا السيدة العذراء. أمام هذا الواقع لجأ الرهبان إلى اليهود، فاستدانوا منهم مالاً وأعادوا إلى الأميركيين قرضهم وطردوهم من الدير والمدارس[1]. فخرج هؤلاء من القدس سنة ١٨٢٥ واستقرّوا في بيروت وجعلوها مركز تبشيرهم. فعكفوا على درس العربية والسريانية ليتمكّنوا من محادثة الأهالي.

سرعان ما بدأ الصراع بين هؤلاء المرسلين البروتستانت والسلطات الروحية الكاثوليكية في الشرق، التي جهدت لاستصدار فرمان سلطاني منع توزيع أسفارهم المقدسة وأوجب جمع ما وُزّع منها. وحاول الاكليروس الكاثوليكي حضّ روّاد التبشير البروتستانتي في الشرق على العودة إلى حضن الكنيسة الجامعة، بيدَ أن أحد هؤلاء، وهو يونس كينغ الاميركي، قام بتصنيف رد على من دعوه إلى الكثلكة نشره بعد أن نظر فيه المعلم أسعد الشدياق، ووزّعه في جميع أنحاء الدولة العثمانية. وقد تضمّن هذا الرد المبادئ الرئيسية للايمان الكلفيني، وثلاثة عشر ردّاً على سؤال: لماذا لا أقبل الكثلكة.

نشط المرسلون البروتستانت في إنشاء المدارس في الشرق بعد أن استمالوا إليهم عدداً من الكتّاب، ومن الأساقفة الأرمن الغريغوريين. وقبل نهاية العام ١٨٢٧ بلغ عدد تلك المدارس ثلاث عشرة مدرسة ضمّت حوالى ستمائة طالب. وكان أول الكتّاب الموارنة الذين انضموا إلى الكنيسة البروتستانتية المعلم أسعد

١ - Papadopoulos k., Analekta, II, P. 458

الشدياق، مما أثار حفيظة البطريرك الماروني يوسف حبيش الذي أصدر نهاية سنة ١٨٢٦ حرماً قاسياً ضدّ البروتستانتية، أُعلن رسمياً في كنيسة بيروت المارونية بدء العام ١٨٢٧. وحذا بطريرك الروم الكاثوليك اغناطيوس قطان حذو البطريرك الماروني. ثم تمّ القبض على أسعد الشدياق الذي سُجن في دير ماروني ناء، أمّا فارس شقيق أسعد، الذي كان هو الآخر قد اعتنق البروتستانتية، فقد التجأ إلى بيت المرسلين في بيروت فنقلوه إلى مالطة. في الوقت نفسه تحرك البطريرك الاورثوذكسي: مثوديوس، بطريرك انطاكية (١٨٣٧ ـ ١٨٤٠) فراسل المبشرين البروتستانت لافتاً أنظارهم إلى أن مدارسهم تبذر الشقاق بين خرافه، وأمر بإقفال المدارس التابعة لهم في مرجعيون وحاصبيا[1].

وفي سنة ١٨٣٢ أمر مطارنة اللاّذقية وطرابلس وصور وصيدا بإحراق المطبوعات البروتستانتية، بعد أن كان المبشّرون قد تابعوا أعمالهم وكوّنوا في بيروت نواة لطائفة انجيلية جمعت من كانوا روماً وموارنة وأرمن، وتسرّبت عقائدهم إلى البلدات والقرى. فهبّ أحبار سائر الطوائف المسيحية لمنع أبناء طوائفهم من إرسال أولادهم إلى مدارس البروتستانت. واستصدر الآباء اليسوعيون أوامر حكومية عثمانية تمنع دخول المنشورات البروتستانتية إلى الأراضي العثمانية، فسارع المبشّرون البروتستانت إلى نقل مطبعتهم من مالطة إلى بيروت سنة ١٨٣٥، وهكذا أصبحت منشوراتهم تطبع داخل الامبراطورية العثمانية عوضاً عن أن تدخل إليها.

لم يمض وقت طويل حتى بدأت تنشأ رعايا بروتستانتية في المنطقة، كانت أولها رعية في حاصبيا، جنوب لبنان. وقد قامت قيامة الكنائس غير البروتستانتية على هذا التمدّد. وراح بطاركتها وأحبارها يحاولون تحريك السلطنة ضدّها، بيدَ أن ذلك لم يمنع المرسلين البروتستانت من التوسّع، ومن استقطاب نخبة من أهل

١ ـ Bird, I., the martyr, PP. 228 - 231

القلم والرأي والفكر. وفي خريف ١٨٦٠، وكانت الأحداث الدامية في لبنان قد شارفت إلى نهايتها، قدمت الارسالية الانكليزية السورية إلى لبنان وأسّست لها المدارس للصبيان وللبنات في بيروت وزحلة وبعلبك وعين زحلتا وشملان وحاصبيا.

قبل ذلك التاريخ كانت طلائع المرسلين الانجيليين الاميركيين قد وصلت إلى بيروت «وكانت تباشير اليقظة الفكرية تلوح في أفق البلاد. وظهرت في جميع انحاء لبنان جماعة من الشباب التائق إلى المعرفة... وكان مع أمثال هؤلاء أن أقام الرعيل الأول من المرسلين الاميركيين أولى الصلات. منهم، إضافة إلى أسعد الشدياق (١٧٩٨ ـ ١٨٢٩)، أحد خرّيجي مدرسة عين ورقة، وممّن علّموا المرسلين الاميركيين اللغة العربية، ثم أسعد الخياط الذي أقبل على هؤلاء المرسلين ليتعلّم منهم اللغة الايطالية... وكان للمرسلين الاميركيين السبق في أنهم لاحظوا تشوّق اللبنانيين إلى العلم والمعرفة، فحاولوا القيام بمهمتهم التبشيرية عن طريق نشر التعليم بدلاً من العمل الديني المباشر[1]».

قام المرسلون الاميركيون بأولى نشاطاتهم التربوية في بيروت وجبل لبنان. وفي سنة ١٨٣٤ أنشأت زوجة عالي سميث أحد هؤلاء المرسلين، «مدرسة صغيرة زاهرة للبنات في إحدى غرف دار الارسالية... وفي الصيف التالي افتتحت مدرسة أخرى للبنات الدرزيات في الجبل، ومدرسة داخلية للصبيان، في بيروت، بستة طلاب» وسرعان ما أصبح عدد تلك المدارس خمساً نهارية للصبيان، عدد طلابها حوالى الثلاثمائة، منتشرة بين بيروت والجبل[2] واذ توقفت تلك المدارس عن العمل بخلال الاضطرابات التي وقعت سنة ١٨٤٠، سارع المرسلون في العودة إلى مراكزهم إثر نهايتها، لكن مدارسهم كانت قد تبعثرت تماماً، وقد مضى وقت طويل قبل أن تتمكّن من العودة إلى سابق عهدها[3]. ففي خريف ١٨٤٠، استأنفت

١ ـ د. كمال سليمان الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر (بيروت ١٩٦٧) ص ١٧٠ ـ ١٧٢

٢ ـ Bird I., Bible work in Bible Lands (Or), Events in the history of the Syrian mission (Philadelphia, 1872), PP. 312, 318 - 319

٣ ـ Bird I., bible P. 346

المدرسة الداخلية للصبيان عملها. وبعد ثلاث سنوات افتتحت الارسالية مركزاً آخر لها في عبيه، وقد نمت هذه المدرسة بسرعة لتصبح أهم المعاهد الانجيلية في لبنان لتدريب الطلاب على التبشير بالمذهب البروتستانتي. ولما باشرت المطبعة التي تمّ نقلها من مالطة إلى بيروت، طباعتها بحروف عربية، لم يكن العالم قد عرف بعد أجمل منها، وكان ذلك في ربيع سنة ١٨٤١، تيّسر طبع الكتب لتلك المدرسة بشكل كان يفتقر الى مثله سواها. وقبل أن ينتصف القرن التاسع عشر، كانت قد ازدهرت مدارس المرسلين الأميركيين في بيروت والجبل. من جهة أخرى تألفت في بيروت لجنة خاصة من قنصلَي أميركة وانكلترة ضمّت مرسلين أميركيين ومعلّمين لبنانيين لتدير سلسلة من المدارس التي عرفت بـ «المدارس اللبنانية» والتي انتشرت في قرى الشوف وعاليه والمتن وقد بلغ عددها، قبل فتنة ١٨٦٠، خمس عشرة مدرسة عدد طلابها نحو ستمئة. وكان معظم هؤلاء الطلاب والطالبات من الروم الاورثوذكس والدروز، وبعضهم من الموارنة والروم الكاثوليك والسنّة والشيعة[1]. وكان أكثر الطوائف اللبنانية إفادة منها طائفة الروم الاورثوذكس، وخصوصاً الأُسر الاورثوذكسية التي اعتنقت المذهب الانجيلي، يليهم في ذلك الدروز. وقد بلغ عدد «المدارس اللبنانية» في ذروته الأربع والعشرين مدرسة.

في هذه الأثناء قامت الارساليات الانجيلية المختلفة بمشاريع عديدة على الصعيد التربوي. فأنشأ المرسلون الأميركيون مدرسة داخلية للإناث في سوق الغرب سنة ١٨٥٨ نقلت إلى صيدا بعد أربع سنوات. وفي ١٨٧٢ انشأوا مدرسة مماثلة في طرابلس، وفي ١٨٨١ تحوّلت المدرسة الأميركية للذكور في صيدا من مدرسة خارجية إلى مدرسة داخلية، وسُميت: معهد الفنون. وفي العام ١٨٨٣

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ١٧٤ ـ ١٧٧ : راجع:
اسماعيل حقّي بك، لبنان: مباحث علمية واجتماعية (بيروت، ١٣٣٤)، ص ٤٧٧؛
Churchill of Lebanon, Journal of the royal central asian socicty, XI (1953) PP. 217 - 223; ;Narrative and report regarding Lebanon schools Superintended by: Joh Lowthian, Esq., of carlton house, carlisle, P. 18; Report on the Lebanon schools, with tresors' ac counts, (1856 - 1868) P. 6

أعادت الارسالية الاسكوتلاندية افتتاح المدرسة اللبنانية في سوق الغرب بعدما كانت قد اغلقت أبوابها، ثم بيعت للارسالية الأميركية سنة ١٨٨٩، التي تسلّمت أيضاً المدرسة اللبنانية في الشوير وحوّلتها إلى داخلية سنة ١٨٩٩. وفي الحقبة نفسها أسّست جمعية الأصدقاء البريطانية (الكويكرز) في برمانا مدرسة للذكور والاناث. «كانت جميع هذه المدارس، الأميركية منها وغير الأميركية، ذات منهاج ثانوي. وكان لمعظمها أراضٍ واسعة وأبنية حديثة حسنة التجهيز. لكن المأثرة الكبرى التي توّجت العمل التبشيري الانجيلي في لبنان كان تأسيس «الكلية السورية الانجيلية» في بيروت، التي أصبحت فيما بعد «الجامعة الاميركية» في بيروت. وكانت الارسالية السورية قد أقرّت تأسيس هذه الكلية في ١٨٦٢، وحصلت لها على ترخيص خاص من ولاية نيويورك. ففتحت الكلّية أبوابها في ١٨٦٦ برئاسة مؤسسها، دانيال بلس (١٨٢٣ ـ ١٩١٦). وفي ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧١، وُضع الحجر الأساسي لأولى بناياتها. وسرعان ما أصبحت «الكلّية السورية الانجيلية» أحد المراكز الرئيسية للتعليم العالي في السلطنة العثمانية[1]. وقبل نهاية نصف الألف العثماني كانت تلك الارساليات الانجيلية قد وسّعت نشاطها في لبنان ليشمل، إضافة إلى الشأنين التبشيري والتعليمي، الشأن الصحي. فراح أساتذة كلية الطب في الكلية السورية الانجيلية يمارسون مهنتهم في المستشفى الألماني الذي أسسه فرسان القديس يوحنا في بيروت، وكان من أحدث المستشفيات في المنطقة بأسرها. وفي سنة ١٩٠٩ انشأت الارسالية الاميركية مصحّاً للمصدورين في المعاملتين بالقرب من جونيه، أسسته الدكتورة ماري ادي إحدى المرسلات الأميركيات، وكانت قبل ذلك قد مارست الطب سنوات في صيدا وجوارها، وعلى الأرجح أنها كانت أول إمرأة مارست مهنة الطب في السلطنة العثمانية باجازة رسمية. وقد نُقل المصح بعد ذلك إلى الشبانية بالقرب من حمانا (قضاء بعبدا) وهو مصحٌ مشهور الآن يُعرف بمصح هاملن. وفي سنة ١٨٩٧ كان

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ١٧٩

المرسل الألماني ثيوفيلوس ولدمير الذي بنى المدرسة الانكليزية لجمعية الأصدقاء في برمانا قد أسس أول مستشفى للمصابين بالأمراض العقلية في مكان من ضاحية بيروت، قرب الحازمية، يُعرف بالعصفورية. وقد ظلّ مصحا الشبانية لأمراض السل والعصفورية للامراض العقلية المصحين الوحيدين في البلاد لعشرات السنين. وكان المرضى يقصدونهما من جميع أقطار الشرق الأدنى حتى من أماكن نائية كإيران[١].

رغب المرسلون البروتستانت في نشر الكتاب المقدس على العرب أجمعين، فألّفوا في السنة ١٨٤٧ لجنة لهذه الغاية برئاسة الدكتور عالي سميث وعضوية الدكتورين وليم طومسون وكارنيليوس ڤانديك. فاتصلت اللجنة بالمراجع العليا في الولايات المتحدة وحثّتها على الموافقة راجية اجتذاب العرب المسلمين إلى مطالعة التوراة والانجيل. وقد تمّ لها ما أرادت فتمّ تعريب الإنجيل سنة ١٨٦٠، والتوراة سنة ١٨٦٥. وقد اشترك في تلك الأعمال: الشيخ ناصيف اليازجي، والمعلّم بطرس البستاني، والدكتور عالي سميث، وعدد من الثقات الألمان: منهم الأساتذة فلايشر وروديغر وفلويغل وبرناور. وأشرف الشيخ يوسف الأسير إشرافاً نهائياً على اللغة والاسلوب[٢].

لم تجد البروتستانتية مجالاً لها في هذا الشرق مثل الذي وجدته في لبنان. ففي فلسطين ووجهت بالعداء من قبل سائر الكنائس. أمّا في مصر فقد اعتُبرت تلك الارساليات «عاكسة الاتجاهات الرئيسية للبناء الاستعماري». إلاّ أنها قد تمكّنت من انتزاع نفر من أبناء الكنيسة القبطية لتؤسّس الكنيسة البروتستانتية هناك. وقد بدأت تلك الارساليات نشاطها الفعلي بعد الاحتلال البريطاني لمصر. أمّا الارساليات الأميركية فقد انتقلت إلى مصر إبان النزاعات الطائفية التي حصلت في لبنان منتصف القرن التاسع عشر.

---

١ - حتي، لبنان في التاريخ، ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج٣، ص ٢١٦ ـ ٢١٧؛ راجع: Jessup H; fifty three years in Syria, I, PP. 66 - 78

يبدو أن الأسرة المالكة في مصر قد ساعدت، إن لم تكن قد حرّضت، بطاركة الأقباط على محاربة البروتستانتية في وادي النيل. فعندما انتقل بطريرك الأقباط، كيريللوس الخامس، إلى أسيوط سنة ١٨٩٧، ليقف في وجه النشاط البروتستانتي، وليمنع القبط من إرسال أبنائهم إلى مدارس التبشير، وليأمر الكهنة بأن يطوفوا على المنازل ليحرموا كل أب يرسل أولاده إلى هذه المدراس، إنما هو سافر على متن باخرة وضعها تحت أمرته الخديوي إسماعيل. ثم أعلنت الكنيسة القبطية الحُرُم ضدّ من يرسل أولاده إلى هذه المدارس أو يزور مكتباتها أو يقرأ كتبها أو يصادق أحداً من المبشّرين[١]. وقد سارع بطريرك الأقباط كيريللوس الرابع (١٨٥٢ ـ ١٨٦٢) الملقب بأبي الاصلاح إلى فتح عدد من المدارس، وإلى تطوير التعليم في مدارس الكنيسة القبطية عموماً، ليقطع الطريق على ازدهار أعمال أولئك المبشّرين[٢].

على أي حال فإنّ الدعوة البروتستانتية لم تلاق لها آذاناً صاغية في مصر. ويلاحظ أحد الباحثين الانكليز[٣] أن «تأثير الارساليات على المسيحيين من سكان البلاد المصرية كان غير ذي شأن». أمّا في لبنان فإنّ الطوائف البروتستانتية، رغم الجهود التعليمية والاجتماعية التي قامت بها الارساليات والمؤسسات التابعة لها في البلاد، قد بقيت أقلّية وسط الطوائف التقليدية. ويتركّز وجود هذه الأقلية في العاصمة بيروت، إضافة إلى مجموعات متفرّقة في الجبل اللبناني وفي الجنوب الأوسط. وبقي الوجود البروتستانتي محدوداً جداً في سائر بلدان هذه المنطقة.

---

١ - راجع: رينا هوج، الاستاذ الجليل بين مرسلي وادي النيل، اتحاد مدارس الأحد وإدارة المطبعة الانكليزية الامريكانية، (القاهرة ١٩١٧)؛ توفيق أسكاروس، نوابغ الاقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر، مطبعة التوفيق (القاهرة ١٩١٠)، ص ١٦٠ ـ ١٩٦؛ جرجس عوض، ذكرى مُصلِح عظيم (القاهرة ١٩١١).

٢ - راجع: يعقوب جرجس نجيب، موجز تاريخ بطاركة الاسكندرية، دار برادى للطباعة، (القاهرة ١٩٦٦) ص ١٠٧ ـ ١١٠

٣ - Deurben John P., Observations in the East, Chiefly in Egypt, Palestine, Syria, and Asia minor. (Newyork, 1860), I 9th. edit.) P. 67

الفصل الثالث عشر

لمحة معاصرة

- الأقباط اليوم
- لبنان

بعد مرور ألف وثلاثماية سنة ونيف على الفتح الاسلامي لهذه المنطقة من العالم، التي يطلق عليها المسلمون العرب اسم الوطن العربي، وهي تشكّل جزءاً كبيراً من المنطقة المعروفة بالشرق الأدنى، وجزءاً أقل كبراً نسبياً من المنطقة المعروفة بمنطقة الشرق الأوسط، والتي يمكن تسميتها بشكل مجرد بالدول العربية، أو البلدان العربية... بات يبدو واضحاً، من خلال النظرة الواقعية، أن الدين الاسلامي قد أصبح الدين المسيطر بأكثرية ساحقة على شعوبها التي باتت تشكّل نسبة المسلمين منهم ٩١ بالمئة، بينما لم يعد يتجاوز عدد المسيحيين منهم، بجميع طوائفهم، نسبة الخمسة في المائة. وتتوزع الأقلية الصغيرة الباقية (حوالى أربعة في المائة) طوائف يهودية وديانات قبلية زنجية في جنوب السودان.

نسبة الخمسة بالمائة تلك تشكّل عدداً لا يتجاوز الثمانية ملايين نسمة، هو مجموع عدد المسيحيين، بجميع طوائفهم في البلدان العربية جمعاء، وهم موزَّعون على تلك البلدان حسب الشكل التالي:

الروم الاورثوذكس، حوالى مليون وربع المليون نسمة موزَّعين على سورية ولبنان والأردن وفلسطين ومصر.

الاشوريون (النساطرة)، حوالى خمسة وسبعين ألف نسمة موزَّعين على سورية والعراق ولبنان.

المونوفيزيون، وعددهم أقل من أربعة ملايين ونصف: أربعة ملايين ومئة ألف نسمة أقباط أورثوذكس موزَّعين على مصر والسودان، ومئة وخمسون ألفاً يعاقبة أورثوذكس موزَّعين على سورية ولبنان والعراق، ومائتان وخمسون ألفاً أرمن أورثوذكس موزَّعين على سورية ولبنان والعراق ومصر.

أما الكنائس التابعة لروما فيبلغ عدد أتباعها مجتمعة أقل من مليوني نسمة: أتباع الكنيسة الغربية اللاتين أقل من نصف مليون نسمة موزَّعين على السودان وسورية ولبنان وفلسطين ومصر.

حوالى مائتين وخمسة وسبعين ألف نسمة من الروم الكاثوليك (الملكيين) موزَّعين على لبنان وسورية ومصر.

ولم يبق من السريان الكاثوليك سوى حوالى خمسة وخمسين ألف نسمة موزَّعة على سورية ولبنان. ومن الأرمن الكاثوليك سوى حوالى خمسين ألف نسمة موزعة على البلدين السابقين. ومن الأقباط الكاثوليك سوى مئة ألف نسمة في مصر والسودان. ومن الكلدان (الكاثوليك) سوى مائتي ألف نسمة موزَّعة على العراق وسورية ولبنان.

أما عدد الموارنة فيبلغ اليوم حوالى ثمانمئة وخمسين ألف نسمة أكثريتهم في لبنان والباقون في سورية وقبرص.

أما مجمل عدد البروتستانت فلا يتجاوز المائة وخمسين ألف نسمة موزَّعين على السودان ولبنان وسورية ومصر[1].

نلاحظ أن أكبر مجموعة مسيحية في البلاد العربية هي المجموعة القبطية التي يزيد عدد أعضائها على الأربعة ملايين نسمة[2] فيشكّلون أكثر من نصف المسيحيين في هذه المنطقة من العالم، وهم يتجمَّعون بأكثريتهم الساحقة في مصر. بينما المجموعة الأورثوذكسية (روم أورثوذكس) التي لا يزيد عدد أعضائها على المليون ومائتين وخمسين ألف نسمة، تتوزَّع على خمسة بلدان (سورية، لبنان، الأردن، فلسطين، مصر). وباستثناء المجموعة المارونية يصبح سائر المجموعات أقليَّات صغيرة.

أما المجموعة المارونية فهي، على كثافتها النسبية، تتجمَّع بأكثريتها الساحقة في لبنان. وقد شكّلت هذه المجموعة مرجعاً كيانياً مسيحيّاً استقطب سائر

١ - راجع: الدكتور سعد الدين ابراهيم، المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت ١٩٨٨).

٢ - تختلف تقديرات عدد الاقباط في مصر بإختلاف المرجع. التقارير الرسمية المصرية تذكر أن عددهم لا يتجاوز المليوني نسمة، بينما بطريرك الاقباط الاورثوذكس شنودة الثالث أكد قبل سنوات أن عددهم في مصر وحدها هو ثمانية ملايين نسمة؛ راجع: طوني مفرّج. حرب الردّة، دار الجريدة (بيروت ١٩٧٩) ص ٦٦.

الطوائف التي تدين بالكثلكة (راجع الفصل السابق) وحافظ بالتالي على كيان سياسي مسيحي فريد من نوعه في البلدان العربية.

أما الدولة العربية الثالثة التي تضمّ مجموعة كبيرة من المسيحيين بعد مصر ولبنان، فهي سورية، التي يقدّر عدد المسيحيين فيها اليوم بحوالى المليون نسمة. وبحسب الاحصاء الذي جرى سنة ١٩٦٠ فقد كان عدد المسيحيين في سورية يبلغ يومذاك حوالى ٦٢٧ ألف نسمة حسب الانتماء التالي:

روم أورثوذكس ١٨٠ ألفاً، أرمن كاثوليك ١٢٠ ألفاً، أرمن أورثوذكس ١٢٠ ألفاً، روم كاثوليك ٥٨ ألفاً، سريان أورثوذكس ٥٣ ألفاً، أشوريون ٢٠ ألفاً، سريان كاثوليك ٢٠ ألفاً، موارنة ١٧ ألفاً، بروتستانت ١٤ ألفاً، نساطرة ١٢ ألفاً، لاتين ٧ آلاف، كلدان ٦ آلاف[1].

أمّا في العراق فأكثرية المسيحيين من الطائفة الأشورية. وكان هؤلاء، بعد المذبحة التي تعرَّضوا لها على يد الأكراد بدعم تركي نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨، قد نُقلوا على يد الجيش البريطاني إلى منطقة بغداد بقيادة زعيمهم آغا بطرس بعد مقتل قائدهم الديني ايشا داود الملقَّب بمار شمعون. وقد شكّل الجيش البريطاني فرقة عسكرية من هؤلاء عملت إلى جانبه ضدّ الأكراد حيناً وضد العراقيين حيناً آخر. بينما استمر نزوح الأشوريين إلى العراق من تركية وإيران، ثم أقدم العراق سنة ١٩٢٦، إثر هذا التدفق الكثيف، على إسكان الأشوريين في شمالي البلاد. وفي العام ١٩٣١، وسط الحركات الكيانية في المنطقة، طالب الأشوريّون بالحصول على إدارة ذاتية هناك. وعندما اكتشفت الحكومة العراقية ربيع تلك السنة أن الأشوريين يتعاونون مع الأكراد بهدف إنشاء كيان مستقلّ بدعم من البريطانيين، سارعت إلى القبض على قادة تلك الحركة الذين اعترفوا بما نُسب إليهم من محاولات انفصالية باءت بالفشل. بيدَ أن ذلك لم يمنع الأشوريين من أن يقوموا بحركة ثورية بهدف خلق وطن مستقل لهم سنة

١ - راجع: H. et P. Willemart, Dossier du Moyen-Orient arabe, ED. Marabout, (Belgique 1969) PP. 232 - 234

١٩٣٣[١]. وكان الموصل أرض الحلم بوطنهم الموعود، بأقضيته الثلاثة: العمدية وهوك وزاخو. وكان زعيم الأشوريين، مار شمعون الجديد، قد توجَّه إلى عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ للمطالبة بوطن قومي للأشوريين في العراق. ولكنّ عصبة الأمم قد اتَّخذت يومها قراراً برفض هذا الطلب. وإذ يئس الأشوريون من الدعم البريطاني وحاولوا التعاون مع الفرنسيين في سورية، توقفت دولة صاحبة التاج عن مدِّهم بالمال والسلاح، فكان أن تعرضوا للتَّصفية العسكرية في صيف ١٩٣٤[٢].

إثر ذلك هاجر آلاف الأشوريين إلى لبنان وإلى الولايات المتحدة الأميركية. ونقل بطريرك النساطرة مقره إلى الهند. ومن تبقَّى من الأشوريين في العراق، وهو أقليَّة ضئيلة، يتوزَّع على لوائي الموصل وأربيل، وعلى مدينة بغداد. أما أوضاعهم الحياتية والمعيشية فتختلف باختلاف المنطقة التي يسكنونها. وقد غدوا على أي حال، أقليَّة مسالمة تتعاون مع كل حكم يقوم بالنظر لضعف شأنها ولانعدام امكاناتها.

أما في باقي البلدان العربية فالوجود المسيحي ليس سوى وجود أقليَّة محدود، يمكن من خلاله الحصول على الجنسية في بعض تلك البلدان، كالأردن مثلاً، بينما لا يستطيع المسيحي في دول الخليج أن يحصل على جنسياتها. وفي السودان التي يبلغ مجموع سكانها حوالى ٢٢ مليون نسمة، لا يتجاوز عدد المسيحيين نسبة الخمسة بالمئة، وهم يتوزَّعون على الطوائف البروتستانتية والكاثوليكية والأورثوذكسية. وهم يعيشون في منطقة الجنوب التي لم تهدأ فيها الصراعات منذ أوائل هذا القرن، والتي يشترك فيها السكان بحسب انتمائهم القبلي. علماً بأن عدد القبائل السودانية يزيد على الخمسماية وثلاثين قبيلة مختلفة الأصل والعرق واللغة والدين، وأن نسبة عالية من سكان جنوبي السودان لا تزال تعتنق الوثنية.

إنَّ هدف الثائرين في جنوبي السودان من الطوائف المسيحية هو رفض فرض

---

١ - محمود الدرّه، القضية الكردية، ص ١٦٢

٢ - راجع: محمد السمَّاك، الاقليات بين العروبة والاسلام، دار العلم للملايين (بيروت ١٩٩٠) ص ١١١

الشريعة الاسلامية عليهم. وقد حاول مجلس الكنائس العالمي، ومجلس كنائس عموم إفريقية، التوصل مع الحكومة السودانية إلى إيجاد حلّ نهائي لتلك المشكلة التي لا تزال تتفاعل دموياً حتى اليوم، بالنظر إلى الدعم الأثيوبي الذي يلقاه المتمردون المسيحيون الذين هم من أصول إفريقية.

الأقباط اليوم

عندما تكوَّنت البنية السياسية لمصر الحديثة في بداية هذا القرن، كانت مصر واقعة تحت الاحتلال البريطاني، ويمكن اعتبار أن البريطانيين هم الذين وضعوا تلك البنية السياسية لمصر الحديثة. وقد رأى اللورد أڤلين بارينغ كرومر مندوب انكلتره في مصر (١٨٨٣ ـ ١٩٠٧) أنَّ مصر كمجتمع لا تمثل وحدة سياسية ذات نمط واحد، إنَّما تتكون من كيانات تتمثل في المسلمين المصريين، والمسلمين العرب، والمسيحيين الأقباط، والمسيحيين الأوروبيين وغيرهم. وأن الحكم الذاتي، الذي يرعى هذه المصالح المتباينة، قد يحتاج إلى سنين وأجيال، إلاّ إذا قام على أساس إنصهار القاطنين في مصر كلّهم في كيان رسمي واحد. وقد عبّر عن ذلك في إشارته إلى تلك البلاد على أنها «مصر الدولية[١]».

وبالفعل، فقد أنشئت جمعية تشريعيّة سنة ١٩١٣ شبيهة بنظام لبنان الأساسي، إذ قررت مبدأ التمثيل الطائفي، فكانت أول مؤسسة للدولة في مصر الحديثة يتقرَّر في تكوينها هذا المبدأ. ولم تجرَ أية تعديلات على ذلك المبدأ عندما أجري مشروع الاصلاح الدستوري سنة (نوڤمبر) ١٩١٨. وقد كان ذلك من الأسباب الهامة التي عجلت باشتعال الثورة المصرية سنة ١٩١٩. وهكذا فعندما صدرت التوكيلات الأولى في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٨ لأعضاء الوفد، لم يكن بينهم أحد من الأقباط، وكان ذلك مثار جدل بين وجهاء الأقباط الذين اتَّصلوا بسعد زغلول، رئيس الوفد آنذاك، ورشحُوا واصف بطرس غالي، ثاني أبناء بطرس

---

١ - Kromer, the Earl of modern Egypt, Vol. II, PP. 598 -599

غالي لعضوية الوفد[١]. وكان قبول سعد زغلول بعضوية غالي في الوفد كافياً لاشتراك الأقباط في شكل فعّال في الثورة المصرية. والغريب في الأمر أن التركيبة التعدديّة السياسية التي ثار المسلمون ضدّها على أساس أنها استعمارية تقسيمية، صارت متّبعة في الثورة ذاتها التي وُصفت بأنها «علمانيّة»، «كما ظهرت الصفة العلمانية للوفد في تكوين أي لجنة أو اجتماع أو مؤتمر أو مظاهرة وفي كل صحيفة[٢]»، ويحرص بعض الباحثين الأقباط في التاريخ الحديث لمصر على أن «القبط لم يكونوا بمعزل عن قيادة الحركة الوطنية، ولا عن أي من تشكيلات الوفد الدائمة أو المؤقتة في أية ظروف، وأنهم لم يكونوا يمثلون فيه طائفة معيَّنة، ولا كان اختيار أحدهم أو غيرهم يتمّ على أساس الانتماء الطائفي، ولا كانوا يشغلون نسبة معينة من عدد أعضاء أي تشكيل، إذ لم يكن من أساس للاختيار سوى الإيمان بمبادئ الوفد، ومدى الفاعلية في النشاط وأداء العمل المطلوب[٣]».

على أي حال، فقد كان لاشتراك القبط في الثورة المصرية سنة ١٩١٩ التأثير الفعال لجهة مواجهة المقولة البريطانية، التي وَصفت الثورة المصرية يومذاك بأنها دينية. هذا الاشتراك هو الذي مكّن سعد زغلول من تضمين كلمته التي ألقاها أمام الصحافيين الانكليز والأميركيين في لندن قوله: «إدّعوا أن الحركة دينية، ولكنهم إذ رأوا رأي العيان أن مسيحيي مصر ومسلميها متّحدون اتحاداً متين القوى، وأن المسيحيين كانوا في مقدمة القائمين بالمظاهرات، وكان منهم من راح بين أوائل الشهداء برصاص الجنود البريطانيين. وإنكم لترون بين أعضاء الوفد المصري الذين يتشرَّفون باستقبالكم اليوم في ضيافتهم، خمسة من المسيحيين. وقد كان قسوس الأقباط يقومون بالدعوة الوطنية في جميع جوامع القاهرة وعواصم الأقاليم، وشيوخ المسلمين يفعلون ذلك في الكنائس[٤]».

---

١ ـ راجع: مذكرات عبد الرحمن فهمي، م ١ (دار الوثائق التاريخية القومية بالقلعة) ص ١١ و ١٦؛ د. سميرة بحر، الأقباط في الحياة السياسية المصرية، مكتبة الأنجلو ـ المصرية (القاهرة ١٩٧٩). ص ٧٩
٢ ـ سميرة بحر، ص ٨٥
٣ ـ طارق البشرى، مصر الحديثة بين أحمد والمسيح (١٩٧٠)، ص ١٢٧
٤ ـ محمد أبو الفتح، مع الوفد المصري (القاهرة ١٩٢٠) ص ٥٢

في الواقع، أدَّت أجواء الثورة الاستقلالية المصرية ضدّ الاحتلال البريطاني، إلى تعاون متماسك بين المسلمين والأقباط في مصر خلال تلك الحقبة التاريخية، وعندما حاول البريطانيون تفكيك عرى ذلك الالتحام الوطني بتعيينهم قبطياً، هو يوسف وهبة، رئيساً للوزراء، كان الأقباط أوّل من ثار ضد وهبة وكان أحدهم وهو قريب له، أوّل من حاول اغتياله بحجّة أنه متعاون مع الاحتلال. وغني عن القول أن المسلمين كانوا بدورهم رافضين يوسف وهبة وحكومته.

أدّى تماسك المسلمين والأقباط في مصر إبان تلك الثورة إلى «مساواة» هؤلاء في موجة الاضطهاد والاعتقال التي تعرَّض لها القادة المصريون عندما قام اللّورد ألّلامبي بإصدار أوامره بهذا الخصوص. هذه المساواة زادت في عرى التماسك، فأجمع زعماء الأقباط والمسلمين على موقف واحد اتخذوه سنة ١٩٢١ من خلال بيان مشترك أعلنوا فيه أنهم «أجمعوا كلمتهم ووحَّدوا جهودهم ليسلكوا سبيل العمل الذي بدأوا به منذ سنوات». ودعوا الشعب «إلى العمل لاستقلال البلاد استقلالاً خالصاً من شوائب التفرقة والتخاذل، ولأن تعتصم بالاتحاد الذي هو السبيل الوحيد لبلوغ غايتها[١]».

وكان من أبرز رجال الانتفاضة المصرية آنذاك، وليم مكرم عبيد القبطي، والذي يُعرف بمكرم عبيد، وكان زميلاً لسعد زغلول في الجهاد والنفي والتشريد من أجل مصر، وقد قام بدور فعّال في تلك الثورة، وتجلّت مواهبه في العاصمة البريطانية حيث بثّ الدعاية ضدّ الاحتلال البريطاني. وكانت اتصالاته على مستوى سفراء الدول، التي كان لها الأثر الكبير في مجرى الحوادث، سواء بالنسبة للقضية الدستورية أو القضية الوطنية. وكان عبيد من دعاة الوحدة العربية[٢].

رغم ذلك التلاحم الذي شهدته حقبة الثورة المصرية إثر الحرب العالمية الأولى وإبان الاحتلال البريطاني، ما أن بدأت لجنة دستور ١٩٢٣ تناقش مشروع الدستور الذي جاء في أحد بنوده وجوب تمثيل الأقليات في المؤسسات الدستورية،

---

١ ـ سميرة بحر، ص ١٠٥
٢ ـ راجع: مكرم عبيد، المصريون عرب، الهلال (إبريل ١٩٣٩) ص ٣٢ ـ ٣٣

حتى برزت معارضة مسلمة قاطعة لهذه المسألة التي انتهى نقاشها الطويل إلى تقرير الأغلبية عدم تمثيل الأقليات. إلاَّ أن المواد ١ و ٢ و ١٢ و ٢٠ من دستور المملكة المصرية الذي صدر به الأمر الملكي رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٣، قد أوجب «مساواة جميع المصريين أمام القانون». ولم يتضمَّن هذا الدستور، كما لن تتضمَّن الدساتير التي ستليه، أي نص بشأن تمثيل الأقليات. بيدَ أن الأقباط بقوا ممثلين في الحكم حتى جاءت ثورة تموز (يوليو) ١٩٥٢، التي قضت على العهد الملكي على يد الضباط الأحرار. ولم يكن بين أعضاء قيادة الثورة قبطي واحد. وقد سارعت تلك الثورة إلى إلغاء الأحزاب السياسية، وكان الأقباط يمارسون من خلال الأحزاب، وخاصة حزب الوفد، نشاطهم السياسي. وإذ شكلت الثورة الاتحاد الاشتراكي بدلاً من الاحزاب، وتولّى الاتحاد تسمية المرشَّحين لمقاعد المجلس التشريعي، سقطت عملياً المعادلة السابقة التي كانت تقوم على أساس المراعاة المسبقة للمشاركة القبطية. ولما نفّذت الثورة قوانين التأميم وحدَّدت الملكية، ورغم أن تلك القرارات كانت عامَّة وشاملة، فإنّها أصابت بالضرر البورجوازية المصرية وعلى رأسها الأقباط.

زاد، إلى كل ذلك، في مخاوف الأقباط، أن عبد الناصر قد نادى بالقومية العربية، وأدخل مصر في مشاريع وحدوية عديدة. وإذ انعدم التمييز في عهده بين العروبة والاسلام وجد الأقباط أنفسهم مهدَّدين بذوبان شخصيتهم الدينية.

حاول جمال عبد الناصر معالجة هذه المشكلة مستعملاً حقَّه كرئيس للجمهورية بتعيين عشرة أعضاء في مجلس الشعب بقرار منه، فكان يعين الأعضاء العشرة من الأقباط. كما كان يعين في الحكومة وزراء أقباطاً من التكنوقراط. على أنّ هذه المعالجة بدت وكأنها استرضائية وليست حقاً وطنياً من حقوق الأقباط. وكان عبد الناصر قد ورث عن العهد الملكي مشكلة مطالبة الأقباط ببناء المزيد من الكنائس. فحاول التخفيف من نقمة الأقباط المكبوتة بأن سمح لبطريرك الأقباط كيريللوس، ببناء ٢٥ كنيسة في عهده، بعد أن كان بناء أي كنيسة يعتبر عملاً غير شرعي ويؤدي إلى اصطدام بالسلطات المحليَّة وبالجمعيات الاسلامية.

وإذ كان الاخوان المسلمون قد تعاونوا مع الضباط الأحرار في ثورة ١٩٥٢، كان لا بد لقادة تلك الثورة من أن يبقوا متأثِّرين، ولو إلى حين، بالمبادئ الاسلامية المتطرفة لهؤلاء. غير أن هذه الثورة قد لجأت بعد سنتين إلى تصفية حركة الاخوان المسلمين على يد القضاء بعد أن حاول هؤلاء فرض الوصاية على الحركة الناشئة، وقد بلغ عدد الذين حكمت عليهم محكمة الشعب ٨٦٧ شخصاً، تمَّ إعدام ستة منهم. كل هذا لم يمنع من أن تخرج إلى العلن سنة ١٩٥٤ دعوة سرية كانت قد بدأت تحت الأرض في العهد الملكي، تدعو إلى حق الأمّة القبطيّة في الاستقلال الذاتي. وقد تلقَّت هذه الدعوة دعماً قوياً من مجلس الكنائس العالمي، كما تلقَّته من المغتربين الأقباط في أوروبة والولايات المتحدة. «وكان الجسر بين الكنيسة الوطنية ومجلس الكنائس العالمي والمغتربين الأقباط، الأسقف صموئيل الذي قُتل في حادث المنصَّة مع خليفة عبد الناصر أنور السادات في خريف ١٩٨٠. وقد ظهر أن هناك حساباً باسمه في أحد البنوك السويسرية مقداره ١١ مليون جنية استرليني، وكانت هناك في نفس الوقت وصيَّة من الأب صموئيل تحدّد أن هذه الأموال أموال الكنيسة، ولا حقّ فيها لأحد غيرها. وبالفعل فقد كانت كلها تبرعات واعتمادات وُضعت تحت تصرفه بوصفه أسقفاً للخدمات مسؤولاً عن العلاقات الدولية للكنيسة[1]».

من مراجعة تطورات الأحداث السياسية في مصر عبر تاريخها الاسلامي يتَّضح أمر أكيد، وهو أن القاعدة الاسلامية المتطرِّفة هي التي كانت تشكّل دوماً الخطر على الوجود القبطي بشكل عام، وعلى المشاركة القبطية في الشؤون العامة بشكل خاص، حتى إن هذه القاعدة كانت على الدوام عقبة أمام الحكام المعتدلين، الذين كانوا يحاولون استقطاب الرأي العام القبطي، عن طريق اشراك الأقباط في الحكم. وطالما تراجع حكّام عن سياسة تساهل ما، كانوا قد اتَّبعوها تجاه الأقباط، بسبب الضغط الذي قام به الاسلاميون المتطرفون. وعندما استعاد الاخوان المسلمون نشاطهم العلنيّ في منتصف السبعينات في ظلّ الحكم الجديد، تخوَّف

---

١ - محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، ص ٣٤٧؛ راجع: محمد السماك، ص ٩٨

الأقباط من سوء المصير، خاصة بعد أن كانت المحاكمات التي جرت لهؤلاء الاخوان سنة ١٩٤٨ قد كشفت أوراقاً سريَّة تفصح عن أن هذه الحركة كانت تعمل «للتحرر من العدو معتبرة ذلك جهاداً في سبيل الله، وأن العدو هو جميع اليهود والنصارى[1]».

في مواجهة هذا التطوُّر شهدت فكرة إحياء القومية القبطية رواجاً، وقد بلغ عدد الأعضاء المنتسبين إلى الجمعية التي نادت بهذا المبدأ حوالى مئة ألف عضو. وإذ كان بطريرك الأقباط الأنبا يوساب الثاني يتَّبع سياسة معتدلة، أقدمت هذه الجماعة القبطية المتطرِّفة على خطفه وإجباره على التنازل عن منصبه الديني في تموز (يوليو) ١٩٥٤.

وعندما برزت في مصر دعوات إسلامية علنية من رجال رسميين وإعلاميين معروفين، زادت ردَّة الفعل السلبية عند الأقباط، مما أوحى بعودة، في واقع العلاقات الاسلامية في مصر، إلى السلبية التي كانت مستشريةً قبل الثورة. من تلك الدعوات ما حمل شعار «الأمة الاسلامية» و«قومية مبنية على أسس الدين، تربطها فقط شعائر الدين الاسلامي مع تجاهل وجود الأديان الأخرى في مصر[2]». حتى إن نائب رئيس الجمهورية في ذلك الوقت، حسين الشافعي، راح تحدَّث عن وسائل تدعيم أمَّة الاسلام، وذكر: «أن الفرعونية ما هي إلاَّ لفظ علمي للتاريخ ينبغي ألاّ يكون له موضع في التطبيق السياسي ولا داعي للدعوة إليه[3]». وجاء في افتتاحية لرئيس تحرير مجلة المصوَّر، السيد صالح جودت، وكانت تلك المجلة شبه رسمية ورئيس تحريرها يمثل وجهة نظر الدولة، جاءت دعوة للكفِّ عن العمل من أجل الوحدة العربية، وللعمل من أجل وحدة إسلامية توحّدها عقيدة واحدة، وقارن «كيفية عيش المسلم مطمئناً كل الاطمئنان في فرنسة وايطالية وانكلترة، وهي دول مسيحية، فماذا يضرّ المسيحي لو عاش في ظل الوحدة الاسلامية[4]»؟.

١ ـ راجع: سميرة بحر، ص ١٤٥
٢ ـ د. عبد العزيز كامل، نائب رئيس الوزراء يومذاك، مجلة الهلال (أيلول ١٩٧٣)
٣ ـ مجلة الإذاعة والتلفزيون، ايلول ١٩٧٣
٤ ـ مجلة المصور، ١٠ آب ١٩٧٣

وقد أخذت تلك الأحاديث الصحافية مسار حرب اعلامية، إذ قام فريق من الأقباط بالرد على تلك الدعوة، مذكِّراً صاحبها بأن «الدول التي ذكرها لم تقم على أساس ديني من ناحية، وأن الكاتب من ناحية أخرى، قد تجاهل أن المسلمين الذين يعيشون في أوروبة إنَّما هم أجانب مقيمون مؤقتاً... بينما أقباط مصر يعيشون فيها منذ أكثر من خمسين قرناً، وأنه ليس في نيَّتهم أن يتحوَّلوا إلى جاليات أجنبية داخل بلادهم[1]».

في أواخر سنة ١٩٦١ كان جمال عبد الناصر قد أعلن عن اتجاهه نحو الاشتراكية. وقد لاقى هذا الاتجاه قبولاً بين الأقباط. على أن تلك الدعوة الاشتراكية قد كلّفت الأقباط غالياً جداً، لأن التأميم الذي جرى باسم الاشتراكية قد قضى على عدد كبير من الأعمال التي كان يملكها الأقباط الذين كانت خسارتهم في قطاع النقل، داخل القاهرة وبين الأقاليم، بنسبة ٧٥ بالماية من مجموع التأميم في هذا القطاع؛ كذلك الأمر بالنسبة للقطاع الصناعي والقطاع المصرفي والقطاع الزراعي، حيث نُزعت ملكية آلاف الأفدنة من الأسر القبطية، بينما لم تتأثَّر العائلات المسلمة بقوانين الاصلاح تلك. هذا فضلاً عن نزع ملكية أراضي أوقاف البطريركية والأديرة القبطية. وقد وُزِّعت تلك الأراضي على الفلاحين المعدمين المسلمين بنسبة ماية في الماية. وهكذا فقد بدا واضحاً للأقباط أن اشتراكية عبد الناصر لم تكن اشتراكية ماركسية أو لينينية، إنَّما هي كانت اشتراكية قرآنية. خاصة وأن تدابير الحكم آنذاك قد طالت جميع القطاعات الرسمية في الدولة، حيث ضُيِّق على الأقباط من سياسيين وموظفين. ومُنع طلاب الأقباط من الالتحاق بالكلِّيات التابعة للجامعة الأزهرية. كما مُنعوا من تأسيس أيَّة جامعة أو كليَّة. وقد تدنَّى عدد أساتذة كلية طب الأقباط من ٤٠ بالمئة إلى أقل من ٤ بالمئة. كما مُنع الأقباط من أن يشغلوا وظائف معينة رئيسية، مثل المحافظين، ورؤساء الجامعات ووكلائها، ومديري الأمن، ورؤساء مجالس المدن، ورؤساء وأعضاء المجالس العليا التابعة لرئاسة الجمهورية أو رئاسة الوزراء كالمجالس القومية المتخصِّصة، والمجلس الأعلى

١ ـ مجلة الأقباط التي تصدرها الهيئة القبطية الاميركية في نيوجرسي، عدد كانون الثاني ـ شباط ١٩٧٤

للرياضة، وأكاديمية البحث العلمي، ورئيس ومستشاري محكمة النقض... هذا طبعاً إضافة إلى نوّاب رئيس الجمهورية.

أما في الانتخابات التشريعية، فقد رُتّب قانون الانتخاب بشكل منع وصول الأقباط إلى مجلس الأمة أو مجلس الشعب أو التنظيمات السياسية[1] .

ظاهرة جديدة باتت تلبّد أفق المستقبل القبطي في مصر بالغيوم السوداء: هي بروز أكثر المنظمات الاسلامية تطرّفاً في منطقة الصعيد، حيث كان الأقباط يشكّلون نسبة عالية من السكان. ولا يعتبر قادة الأقباط أن مكافحة الدولة لهؤلاء المتطرّفين ستكون قمينة بأن ترفع عنهم كابوس الدعوة الاسلامية المتطرّفة. ولا يزال هذا الشعب متمسّكاً بأرضه كما كان دائماً. وبما أنّ الكلام المنزل غير قابل للتحوير أو التأويل أو التغيير، فإن معطيات المشكلة لا تزال على حالها، إلاّ إذا عاد ربّك وشاء بأن يكون الناس كلّهم أمّة واحدة.

لبنان

مهما قيل في شكل النظام السياسي للبنان، ومهما تعدّدت النظريات والدعوات، يبقى أمرٌ واقع لا يستطيع أحد طمسه، وهو أن هذه الرقعة الصغيرة من الأرض التي تقع وسط الشاطئ الاسلامي المقابل للشاطئ الغربي المسيحي، هي الموئل الأخير للمسيحية الحرة في الشرق. ولم يأت هذا صدفة، بل جاء نتيجة تفاعلات سياسية وعسكرية متواصلة منذ الفتح الاسلامي دون انقطاع. هذا الموئل المسيحي قد صهر في داخله جميع الطوائف المسيحية التي تقاتلت وتصارعت في الشرق عبر التاريخ. ويعود السبب في ذلك إلى أن الطائفة المارونية التي اتّخذت من لبنان قاعدة، والتي بقي قرارها بيدها عندما كانت قرارات سائر الطوائف بأيدي سواها، قد صمدت في أرضها بوجه كل الفتوحات، وقد دلّت أحداث القرن التاسع عشر بوضوح على أن الطائفة المارونية في لبنان ليست منسية في ضمير الغرب المسيحي الذي، رغم تعارض النظريات، كان له الفضل في

١ - راجع: سميرة بحر، ص ١٤٥ - ١٧٧

انقاذها من المصير الذي شهدته طوائف أخرى كانت منسية في ضمير الغرب، مثل الأرمن والأشوريين وسواهم من الشعوب المسيحية التي هُجّرت أو ضُربت كياناتها ضربات قاضية. وبتمكّن الطائفة المارونية، القائلة بالكاثوليكية الرومانية، من البقاء على ما بقيت عليه من وجود كياني في لبنان، صار لبنان مقصداً لتلك الطوائف المسيحية التي شُتّتت أو هُجّرت من أنحاء الشرق. وبذلك بقي الطابع المسيحي طاغياً على هذا البلد الذي كانت رقعته تتّسع حيناً أو تضيق، على أن اسم لبنان قد اقترن باسم الطائفة المارونية اقتراناً غير قابل للانفصام، مثل اقترانه بالمسيحية الحرة في الشرق.

خرج لبنان من الحرب العالمية الأولى التي استشرى فيها جور الأتراك وظلمهم، جائعاً مريضاً مهدّماً منهاراً منهوك القوى. وبعد أن وقع لبنان تحت الانتداب الفرنسي بسنتين، أعلن المفوض السامي الأول: الجنرال غورو، في أول أيلول سنة ١٩٢٠ في بيروت، إعادة لبنان الكبير إلى الوجود. وقد أُلحقت بلبنان، تبعاً لذلك، بيروت التي أصبحت العاصمة، وصيدا وصور وطرابلس، إضافة إلى المدن والمقاطعات الداخلية مثل البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا ومرجعيون، وقد كانت سابقاً جزءاً من لبنان تاريخيّاً وجغرافيّاً. مساحة الأرض هذه التي أُلحقت بلبنان وكادت أن تضاعف مساحته وأن تضيف إلى عدد سكانه النصف، شكّلت كسباً للبنان الدولة، قد قابله «عدم تجانس في السكان ونقص في التمازج والترابط. ذلك أن لبنان فقد التوازن الداخلي الذي كان ينعم به سابقاً... أمّا الأكثرية المسيحية فلم تظلّ لها تلك الأكثرية الساحقة التي كانت تحتفظ بها من قبل[1]». فإنّ عدد سكان لبنان حسب إحصاء ١٩١٣ كان يقدّر بـ ٤١٤٨٠٠ نسمة منهم ٣٢٩٤٨٢ من المسيحيين (ومن هذا العدد ٢٤٢٣٠٨ من الموارنة). أي أن نسبة المسيحيين من مجموع عدد السكان كانت تشكّل ٧٩,٤٣ بالمائة. ونسبة الموارنة كانت تشكّل في ذلك الاحصاء ٥٨,٤١ بالمائة. غير أنه بعد اعلان لبنان الكبير أصبح مجموع عدد السكان، ٦٢٨ ألفاً و٨٦٣ نسمة. وأكثرية عدد

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٩٨

السكان الذين أصبحوا لبنانيين بعد إعلان لبنان الكبير، هي من المسلمين الشيعة الذين كانوا يسكنون في مناطق مهملة ومتأخرة اقتصادياً واجتماعيا[1].

في ٢٦ أيار (مايو) ١٩٢٦ أُعلنت دولة لبنان جمهورية. وكانت أول جمهورية من نوعها تأسَّست في العالم العربي. وقد وُضع لهذه الجمهورية دستور مستمدّ في روحه من الدساتير الغربية العصرية، فلم ينصّ على أن للدولة ديناً معيناً كما هي الحال في دساتير البلدان العربية المجاورة، بل إن حرية العبادة في لبنان حقيقة ثابتة. وفي سبيل المحافظة على التوازن الطائفي، نشأ تقليد يكون بموجبه رئيس الجمهورية مارونياً، كون هذه الطائفة هي الأكبر في لبنان، ورئيس المجلس النيابي شيعياً، ورئيس الوزراء مسلماً سنّياً، ووزير الدفاع درزيا[2].

في هذه الأثناء أصبح الحكم الفرنسي في لبنان غير مباشر، وقد استعيض عن «المفوض السامي» الفرنسي بـ «مستشار». هذا لناحية التسمية، أما عملياً فقد كانت صلاحيات المستشار أضعف بقليل من صلاحيات المندوب، خاصة وأن القوى الأمنية كانت لا تزال في أيدي الفرنسيين. وقد شهدت حقبة الانتقال من وضع الحدود والدستور للبنان الكبير إبّان الاحتلال الفرنسي إلى مرحلة الاستقلال التام الناجز بعض الاحداث السياسية والأمنية، إذ كان الفرنسيون، قبل الحرب العالمية الثانية، يسعون إلى الحفاظ على موقع لهم في لبنان عن طريق المعاهدات الأمنية والسياسية، بينما كان القادة اللبنانيون يعملون على تحقيق استقلال كامل لبلدهم. وقد اشترك زعماء جميع الطوائف، أو أكثر أولئك الزعماء على الأقل، في العمل من أجل هذا الهدف الذي تحقَّق فعلاً في تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩٤٣. وفي ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٦ تمّ جلاء الجيوش الفرنسية عن كامل الأراضي اللبنانية، فأصبح لبنان بذلك بلداً سيّداً حراً مستقلاً يتمتَّع بكامل الصفات الحقوقية الدولية والاقليمية.

---

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٧٩؛ راجع Saïd Himadeh, Ed., Economic organisation of Syria (Beirut 1936) PP. 6, 410 - 411

٢ - راجع: حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٩٩

لقد شهد لبنان المستقل على مدى الخمسين سنة من استقلاله خضات سياسية وأمنية، كان أخطرها تلك التي وقعت بين سنتي ١٩٧٥ و ١٩٩٠، ناهيك عن تلك التي وقعت سنة ١٩٥٨. ومهما حاول المجمّلون ترميم صورة تلك الاحداث، فلا شك في ان الطائفية التي تشكّل أساس الانتماء الاجتماعي السياسي في لبنان، كانت المرتع الخصب لوقوع تلك الأحداث. وإنَّ إلقاء نظرة سريعة على ما حفلت به الصراعات السياسية داخل المجتمعات السياسية اللبنانية حول مواضيع شكل الدولة وهويتها السياسية ونظامها، منذ إعلان لبنان الكبير، من شأنه أن يظهر الصورة الواضحة لحقيقة مسألة المسيحيين وسائر المجتمعات الطائفية في لبنان.

***

بينما كان الحلفاء يقررون الشكل الجيوسياسي لمستقبل الشرق الأوسط، كانت قد عمَّت البلاد العربية دعوة لانشاء دولة عربية آسيوية واحدة. وكان الداعي الحسين بن عليّ (١٨٥٦ - ١٩٣١)، شريف مكّة المولود أصلاً في الآستانة حيث نشأ حتى عُيِّن شريفاً على المدينة الاسلامية المقدَّسة: مكّة، والحجاز سنة١٩٠٨. ومن هذا الموقع راح يدافع عن حقوق العرب ويعرقل التدخُّل التركي ويرفض التجنيد الاجباري قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها. وقد أقام اتصالات سرِّية مع الانكليز من جهة، ومع الجمعيات السرية العاملة ضدّ العثمانيين في مصر وسورية. وبينما كانت الحرب العالمية الأولى مشتعلة، انتهز الشريف حسين الظروف فأعلن الثورة العربية في صيف ١٩١٦ ضدّ الأتراك، الذين طردهم من مدن الحجاز، وأعلن نفسه ملكاً عليها ثم خليفة سنة ١٩٢٤. لكن سياسة الحلفاء، واتفاقية سايكس بيكو، حالتا دون تحقيق هدفه القاضي بإنشاء دولة عربية آسيوية واحدة تحت التَّاج الهاشمي. وقد هاجمه ابن سعود سنة ١٩٢٤ فاضطر إلى ترك الحجاز وأقام في نيقوسية. ثمّ توفي في عمان ودفن بالحرم الشريف. وكان ابنه فيصل (١٨٨٣ - ١٩٣٣) الذي ثار هو الآخر على العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، قائداً عاماً للجيش العربي المحارب في فلسطين. وقد نودي به ملكاً عربياً على كامل منطقة الهلال الخصيب سنة ١٩٢٠، فتزعَّم تياراً مناهضاً لتقسيم المنطقة

إلى دول متعددة، وقاد ثورة التحق بها تيار كثيف من تلك البلدان، فكان ذلك التيار جامعاً بين المسلمين السنَّة الذين حلموا بإعادة الخلافة العربية، وسائر الطوائف الاسلامية المنشقَّة التي عجزت عن تحقيق أهدافها بإنشاء كيانات مستقلَّة لها في النظام الجديد لهذه المنطقة الذي رسمه الحلفاء. غير أن المسيحيين اللبنانيين قد ناهضوا التيار الفيصلي من منطلقهم الاستراتيجي الطبيعي. هذه هي الخلفية الأساسية لاختلاف الرؤية الكيانية لدى مختلف القوى التي باتت تشكّل شعب لبنان الكبير وبالتالي شعب الجمهورية اللبنانية.

فعندما أقر مجلس الحلفاء الأعلى في سان ريمو الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان في ٢٨ نيسان (إبريل)) ١٩٢٠، بالرغم من احتجاج الحكومة الفيصلية العربية في دمشق، صُعق القوميون العرب للنبأ، فيما استقبلته أغلبية المسيحيين في لبنان بالارتياح. وقد عقب ذلك مقاومة من قبل جيش فيصل للجيش الفرنسي الذي هزم الجيش العربي في ميسلون في ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٢٠، وواصل زحفه فاحتلّ دمشق التي غادرها فيصل. وبينما أدّى تعاون اللبنانيين مع سلطة الانتداب إلى قيام الجمهورية اللبنانية، تعذَّر حصول مثل ذلك في سورية نتيجة للموقف العدائي الذي اتَّخذه القادة الوطنيون هناك من الفرنسيين، خاصة بعد ثورة دروز حوران عليهم انطلاقاً من مناطقهم سنة ١٩٢٥ لتشمل سورية كلها سنة ١٩٢٧. وقد امتدت هذه الثورة إلى المناطق اللبنانية التي يسكنها دروز وشيعة. وكانت الأكثرية المسلمة في المناطق التي ضُمَّت إلى لبنان الصغير سنة ١٩٢٠ قد اعترضت على هذا الاجراء. فلقد كان المسلمون «وخاصة السنيُّون منهم يرون أن انضمامهم إلى دولة لبنانية يسيطر عليها المسيحيون، يهدِّد بفصلهم فصلاً تاماً عن العالم العربي الاسلامي الذي ينتمون إليه. فما أن أُعلن لبنان الكبير حتى هبَّ المسلمون في بيروت والبقاع ومناطق طرابلس وصيدا وصور إلى المعارضة، فأعلنوا مقاومتهم للانضمام وطالبوا بإلحاق مناطقهم بسورية[1] ». وعندما شبَّت الثورة الدرزية في حوران انضمَّ دروز لبنان إلى مسلميه السنّة في مقاومتهم

١ - الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ٢١٢

للسياسة الفرنسية. وإذ وجد الروم الاورثوذكس أن الفرنسيين يُظهرون عناية خاصة بالموارنة «أحجموا عن إظهار الولاء الكامل لدولة كان الموارنة فيها العنصر المسيطر[1] ». كذلك انضم الشيعة في بداية تلك المعارضة إلى مقاومي الدولة الجديدة، ومع الأيام، «أقلع جانب كبير منهم عن المقاومة... اذ أدركوا، تدريجياً، أن وضعهم كأقلية كبرى في لبنان خير لهم من وضعهم كأقليَّة صغيرة في دولة سورية شاملة[2] ». وعندما دعا هنري دي جوڤينيل[3] المجلس التمثيلي إلى سنّ دستور للبنان سنة ١٩٢٥، قامت المظاهرات وأعمال الشغب في مختلف المناطق الاسلامية بحجة أن المسلمين لا يرغبون في دستور لبناني لا بدّ من أن يكرِّس حدود لبنان الكبير.

وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ، حدث ما أقلق مسيحيي لبنان، إذ قصد فريق من وجهاء المسلمين اللبنانيين العاصمة السورية دمشق، حيث كان ينعقد اجتماع الجمعية التأسيسية السورية، وطالبوا بأن يتضمن الدستور السوري الذي كان قيد الوضع «حق سورية بالمناطق الاسلامية في لبنان». فكان من نتيجة ذلك أن برز تيار ماروني بزعامة اميل إدّه يشدِّد على ضرورة إيجاد الضمانة الخارجية لاستقلال لبنان، يناهضه تيار ماروني آخر بزعامة بشارة الخوري رأى في البلاد العربية مجالاً طبيعياً لنشاط لبنان الاقتصادي. وقد أصرَّ قادة هذا التيار على ضرورة توثيق العلاقات مع البلدان العربية دون الوصول إلى حد الوحدة[4]. ومن هذين المنطلقين كان تيار إدّه الذي سيُعرف فيما بعد بحزب الكتلة الوطنية، يرى في استمرار الانتداب الفرنسي ضمانة لاستقلال لبنان، بينما كان تيار الخوري وهو الذي سيُعرف فيما بعد بالحزب الدستوري، يعتبر الانتداب حائلاً دون تحقيق

١ - المرجع السابق، ص ٢١٣
٢ - المرجع السابق
٣ - جوڤنيل (هنري دي) Jouvenel (١٨٧٦ - ١٩٣٥): ولد وتوفي في باريس. مندوب فرنسة السامي في سورية ولبنان (١٩٢٥ - ١٩٢٦). في عهده وضع دستور الجمهورية اللبنانية وانتخب الرئيس اللبناني الأول شارل دبَّاس.
٤ - راجع: Albert Hourani, Libanon from fendalism to modern state, Middle East Studies, II (1966), PP. 262 - 263

التعاون بين المسيحيين والمسلمين، «وفيما امتعض تيار إدّه من إصرار اللبنانيين المسلمين على معارضة الكيان اللبناني بوضعه الراهن، رأى تيار الخوري بأن هذه المعارضة الاسلامية لا بدّ من أن تزول، أو على الأقل تتعدّل، إن أبدى المسيحيون بعض التفهُّم لموقف المسلمين من الانتداب وكفُّوا عن المغالاة في إظهار الصداقة لفرنسة[1]».

بينما تعاون بعض المسلمين مع النظام اللبناني الناشئ، من خلال اشتراكهم في مؤسساته الرسمية، استمرَّت اكثريتهم في وضع المعارض للكيان. وكان بعض هؤلاء يُطالب بالاتحاد مع سورية، بينما بعضهم الآخر يدعو إلى وحدة عربية شاملة. وكان بعض زعماء المسلمين قد دعا في ١٩٣٣ إلى مؤتمر برئاسة سليم سلام، عُرف بمؤتمر الساحل الأول، قرَّروا بخلاله بالإجماع المطالبة بضمّ المناطق اللبنانية الاسلامية إلى سورية. وعندما وقعت الاضطرابات في سورية في بداية سنة ١٩٣٦ بين الوطنيين والفرنسيين، اضطربت الأحياء الاسلامية في بيروت، وقامت التظاهرات في طرابلس وصيدا، وسارع سلام إلى عقد مؤتمر الساحل الثاني في آذار (مارس) ١٩٣٦، وصدرت المقرارت نفسها التي كانت قد صدرت عن المؤتمر الأول بشأن المطالبة بضمّ المناطق اللبنانية الاسلامية إلى سورية، وقد لاقت هذه الدعوة هَبَّة اسلامية في لبنان ظهر معها وكأنَّ هذا الكيان غير قابل للاستقرار.

في مقابل هذا التيار الاسلامي، تكوَّن تيار مسيحي جديد قال بوجوب التمسُّك بالكيان اللبناني الراهن. وقد تمثَّل هذا التيار في منظَّمة أسَّسها فريق من الشباب المسيحي على رأسه بيار الجميِّل الماروني، عُرفت باسم الكتائب اللبنانية. بينما ظهر داعية مسيحي آخر، هو انطون سعاده الاورثوذكسي المذهب، الذي قال بقومية تختلف عن القوميتين: العربية المسلمة، والمسيحية اللبنانية، وكانت تلك القومية السورية، التي التقت مع المسلمين في ضمّ كل لبنان إلى سورية دون أن تلتقي معهم في ضمّ أجزاء منه إليها أو إلى سائر العالم العربي المسلم. وبينما لاقت

---

١ - الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ٢١٧

دعوة الكتائب اقبالاً بين المسيحيين الموارنة بشكل خاص، راجت الدعوة القومية السورية في الأوساط الأورثوذكسية والانجيلية وبعض الشيعة والدروز.

وفي الجهة الأخرى أنشأ المسلمون مجلساً استشارياً لتنسيق مطالب الطوائف الاسلامية في البلاد، فقال هذا المجلس بتشجيع الشباب المسلم على تأسيس منظمة النجادة أوائل سنة ١٩٣٧ للوقوف في وجه الكتائب.

بقيت الأحوال مضّطربة سنة ١٩٣٦ حتى تمَّ توقيع المعاهدة الفرنسية السورية في باريس. فهمد المسلمون في لبنان حينذاك، مما سمح ببدء المفاوضات في بيروت لعقد معاهدة مماثلة بين فرنسة ولبنان. وبما أن السوريين كانوا قد وقَّعوا تلك المعاهدة، أصبح القادة المسلمون في لبنان قابلين بتوقيع معاهدة مماثلة. غير أن القوى الشعبية التي كانت لا تزال غير مستعدَّة على الاطلاق للاعتراف بالكيان اللبناني، وقد وجدت في المعاهدة تكريساً نهائياً له بحدوده القائمة، هبَّت للمعارضة من خلال تظاهرات عنيفة في المناطق الاسلامية من بيروت، كما أضربت طرابلس، ووقعت مواجهات دامية طائفية في المناطق المختلطة. الا ان ذلك لم يمنع من توقيع المعاهدة.

أحكم الفرنسيون قبضتهم على لبنان بخلال الحرب العالمية الثانية، فاضطر جميع القوى السياسية إلى الركون. بيدَ أنه مع سيطرة الديغوليين على الموقف في المنطقة، وإعلانهم مع الانكليز منْح لبنان وسورية الاستقلال، عادت الحركة السياسية سنة ١٩٤٢ إلى سابق نشاطها. وعاد المسرح ليشهد المبارزة بين الكتلة الوطنية (اده) وبين الكتلة الدستورية (الخوري)، وتجدَّدت الدعوة في أوساط المسلمين إلى الوحدة العربية، بينما دعت الكتلة الدستورية إلى استقلال لبنان استقلالاً تاماً، ودعت الكتلة الوطنية، التي تحفَّظت بشأن هذا الاستقلال، إلى الحفاظ على بعض الصلات السياسية مع فرنسة.

أمام هذا الواقع كان من الطبيعي أن تكون دعوة الكتلة الدستورية أقرب إلى المسلمين من دعوة الكتلة الوطنية. وشيئاً فشيئاً وجد بعض القادة المسلمين أن الظرف لا يسمح بأكثر من تحقيق موقع فعَّال داخل الكيان القائم، وفسَّروا موقفهم

الجديد بمقولة أن لبنان جزء لا يتجزَّأ من الأمة العربية، له خصائص مميزة تستدعي، إلى حين، استقلاله التام. فتمَّ على هذا تفاهم بين الدستوريين وكبار الزعماء المسلمين على أساس ما أصبح يُعرف فيما بعد بـ «الميثاق الوطني». وعلى هذا حقَّقت الكتلة الدستورية انتصاراً على الكتلة الوطنية، تُرجم في انتخابات نيابية جرت سنة ١٩٤٣.

كان من الخطر بمكان أن يسير المسلمون بالصيغة اللبنانية وبما عُرف بالميثاق الوطني انطلاقاً من مقولة أن «للبنان خصائص ميَّزة تستدعي، إلى حين، على الأقل، استقلاله التام» وأن يكون استقلال لبنان «تدبيراً عابراً». ولقد عبَّر مفتي الجمهورية اللبنانية صراحة عن خلفيّة موقف المسلمين هذا بعد حوالى خمس وثلاثين سنة، إبان الأحداث الطائفية الدامية التي عصفت بلبنان بين منتصف السبعينات وبداية التسعينات، إذ قال أنه «لم يكن بامكانهم أن يغيِّروا ما حصل، أملاً بأن يأتي يوم آخر يكون أبرك من هذا اليوم، وظرف أحسن من هذا الظرف، لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً...[1]».

ولم يكن الميثاق الوطني، بنظر المسلمين في لبنان، حاظياً باعتبار أفضل من الاعتبار الذي حظيت به الصيغة. ففي بداية تلك الاحداث اللبنانية المشؤومة في الربع الأخير من القرن العشرين، ومع اشتداد قوة المقاومة الفلسطينية التي نشأت وترعرت في لبنان، ونشأ وترعرع بينها وبين المسلمين في لبنان تحالف استراتيجي وثيق، وقد شعر المسلمون بأنهم، بالتعاون مع تلك المقاومة، بات بوسعهم أن يقلبوا المعادلة، قال مفتي المسلمين: «ان المواثيق في حال حصولها، تفقد قيمتها إذا تضمَّنت تكريس التمايز بين المواطنين في الحقوق والواجبات... أوَليس الميثاق عقداً أجري بين طرفين إختاراه بالتفاهم بينهما منهجاً خاصاً للتعايش والتعاون؟!. فهل اذا رأى أحد هذين الطرفين أن هذا العقد لم يعد صالحاً، وأنه على العكس، أصبح ضاراً بمصلحته، ويسيء إلى قضاياه، بل ويمزِّق وحدته وتعاونه مع الطرف

---

١ ـ الشيخ حسن خالد مُفتي الجمهورية اللبنانية، المسلمون في لبنان والحرب الأهلية، دار الكندي (بيروت ١٩٧٨) ص ١٢٥ ـ ١٢٦

الآخر، يجوز أن يستمر هذا العقد قصراً وجبراً؟... أفليس من الحكمة والمصلحة العامة وحسن المواطنية استجابة الطرف الآخر لأمنية الآخرين[1]!».

لم يكن جميع المسيحيين في لبنان بحاجة إلى وقوع أحداث ١٩٧٥ واستمرارها أكثر من خمس عشرة سنة ليتوقَّعوا حقيقة ما ينتظر الصيغة والميثاق من سوء مصير، وان كان بعضهم الآخر قد اعتبر أن تمكّن عهد بشارة الخوري من توطيد دعائم الاستقلال اللبناني يعني نشوء دولة ثابتة الأركان لن تقوى رياح السياسة الاقليمية والدولية على تقويضها. إلاَّ أنَّ الأوَلين، مع هذا، ماشوا سيِّد العهد وتياره في سياسة تقوية العلاقات بين لبنان والدول العربية، وقد وقَّع لبنان في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٤ اتفاق الاسكندرية الذي مهَّد الطريق إلى قيام جامعة الدول العربية في ٢٢ آذار (مارس) من السنة التالية، إلى جانب سورية وشرقي الأردن والعراق ومصر. ورغم أن تلك الدول قد أعربت عن ثقتها بسياسة لبنان العامة، وتعهَّدت باحترام سيادته وكيانه ضمن حدوده القائمة، فقد استمرَّ أصحاب النزعة إلى القومية العربية من المسلمين على ما كانوا عليه. وجاء إخفاق الانظمة العربية التي كانت قائمة في محاولتها منع قيام دولة اسرائيل في أرض فلسطين، ليُفقد الحكومات العربية، ومنها الحكومة اللبنانية، الكثير من دعائم الاستقرار، مما أدَّى بالفعل إلى إطاحة الجيش السوري في ربيع ١٩٤٩ حكومةَ سورية الدستورية، وإطاحة المعارضة اللبنانية المختلطة حكمَ بشاره الخوري صيف ١٩٥٢، وإلى إطاحة الملكية المصرية بعد الأحداث التي وقعت هناك على يد الضبّاط الأحرار بين ١٩٥٣ و ١٩٥٤ وأسفرت عن تسلّم جمال عبد الناصر قيادة الثورة المصرية وقد شرع الزعيم المصري الجديد، في السنوات التالية، في بسط نفوذه على العالم العربي، محاولاً بذلك تحقيق الوحدة العربية. وقد أيقظت سياسة عبد الناصر، في لبنان، حماس دعاة الوحدة العربية من المسلمين الذين راحوا صيف ١٩٥٧ يقومون بأعمال الشغب، فقامت الفئة الدرزية المعارضة للنظام اللبناني القائم بنسف الجسور وسدّ الطرق في منطقتها، الشوف. وأُلقيت القنابل المتفجِّرة

---

١ ـ الشيخ حسن خالد، ص ٨٢ ـ ٨٣

في بعض أحياء بيروت، وانهار الأمن في المناطق الأخرى. وفي ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٥٨، حين اتَّحدت الدولتان السورية والمصرية باسم الجمهورية العربية المتحدة، هنَّأت الحكومة اللبنانية الرئيس عبد الناصر لهذه المناسبة. وقد كان رئيس الجمهوريّة آنذاك أحد دهاة الساسة الموارنة في لبنان: كميل شمعون. بيدَ أن تلك التهنئة الحكومية لقيام الوحدة بين مصر وسورية، لم تمنع من ازدياد التدهور في الموقف اللبناني الداخلي. فاسُتمرت الأعمال المخلَّة بالأمن في مختلف المناطق. وتكثّفت التظاهرات الاسلامية المؤيدة للوحدة وللرئيس عبد الناصر، مما جعل الكيان اللبناني يبدو مهدَّداً جدّياً. وفي ٨ أيار (مايو) من تلك السنة أقدمت يد مجهولة على قتل الصحفي الماروني المعارض لسياسة شمعون: نسيب المتني، أمام منزله في بيروت، وسرعان ما اتُّهم العهد باغتيال الصحافي، ودعت المعارضة، ذات الصبغة الاسلامية، إلى اضراب شامل إعراباً عن الاحتجاج. ولم يمض يومان حتى تحوّل الاضراب إلى ثورة مسلَّحة في الأحياء المسلمة من المدن الرئيسية اللبنانية المختلطة وخاصة العاصمة بيروت. وفي اليوم الذي بدأت فيه الاضطرابات في طرابلس، هاجمت عصابة مسلَّحة من الأراضي السورية الموقع اللبناني في المصنع، على الحدود، وقتلت خمسة من حرّاسه. «ولم يمض وقت طويل حتى كادت الحكومة اللبنانية تفقد السيطرة على حدودها الشرقية والشمالية بكاملها[1]»، خاصة وأن الجيش اللبناني الذي كان قادراً على سحق الثورة بالقوة آنذاك، بقي على الحياد كون قائده اللواء فؤاد شهاب، الذي سيصبح رئيساً للجمهورية بعد كميل شمعون، قد أصرَّ على أن هذا الجيش لا شأن له في دعم موقف العهد ضد المعارضة، بل إنّ مهمته تقتصر على الدفاع عن البلاد ضدّ العدوان الخارجي والحفاظ على الأمن الداخلي عند الحاجة!.

بينما كانت الحالة في لبنان تزداد سوءاً، وقع انقلاب عسكري في العراق في ١٤ تموز (يوليو) أطاح الحكمَ الملكي هناك. وإذ بدا هذا الانقلاب في مصلحة عبد الناصر، زادت حماسة دعاة الوحدة العربية بين المسلمين اللبنانيين. مما دفع بسيد

١ - الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ٢٤٦

العهد إلى دعوة الولايات المتحدة الاميركية بإلحاح لارسال قوّة عسكرية تحمي الكيان اللبناني من الانهيار. فلبَّت الولايات المتحدة هذه الدعوة وانزلت في ١٥ تموز (يوليو) قوة من المارينز على الشاطئ الشمالي لضاحية بيروت، حيث السكان من المسيحيين الموالين للجمهورية. على أن هؤلاء المارينز لم يحاولوا وضع حدّ للثورة في البلاد، إنمّا هم أوقفوا، بمجرد نزولهم، التدخل الخارجي. وكان هذا كافياً لتحويل أهداف الثورة من الوحدة العربية إلى منع التجديد للرئيس شمعون الذي كان قد أعلن بلسان رئيس وزرائه: سامي الصلح، قبل ذلك التاريخ بأكثر من شهر أنه لا ينوي التجديد لنفسه. وقد أكمل شمعون ولايته حتى آخر ساعة منها. وكان وكيل وزير الخارجية الاميركي: روبرت مورفي، قد زار بيروت في السادس عشر من تموز (يوليو) واجتمع إلى الفريقين: الموالي والمعارض، وعاد إلى بلاده بعد أن اتّضح له أنّ الحل الأنسب هو في انتخاب اللواء فؤاد شهاب خلفاً للرئيس شمعون[1]، وقد تمّ هذا الانتخاب في ٣١ تموز (يوليو). إلاّ أن الرئيس المنتخب لم يستلم مقاليد الحكم من سلفه إلاّ بعد نهاية الساعة الأخيرة من ولاية هذا الأخير في الثاني والعشرين من أيلول (سبتمبر).

ما أن تسنّم اللواء شهاب كرسي الرئاسة حتى سارع إلى تأليف وزارة جديدة من معارضي العهد السابق من المسلمين، ومن المسيحيين المحايدين، برئاسة أحد كبار زعماء الثورة: رشيد كرامي. وإذ أعلنت هذه الوزارة في بيانها الأول عن عزمها على «قطف ثمار الثورة» ثارت نقمة الفئات الموالية للعهد السابق بما في ذلك أكثرية المسيحيين. «وحدَث في اليوم التالي أن أختُطف الاديب والصحافي المسيحي الكتائبي فؤاد حدّاد الملقب بأبي الحن، وانتشرت الاخبار عن تعذيبه وقتله. فدعا حزب الكتائب على الفور إلى إضراب عام، وساندت هذا الاضراب الفئات المستاءة من تباشير العهد الجديد. وسرعان ما تطوّر إضراب ٢٣ ايلول (سپتمبر)، كما تطوّر إضراب ٨ أيار (مايو)، إلى ثورة مضادَّة وقفت في

١ - راجع: Robert Murphy, Diplomat among warriers (Newyork 1964), PP. 439 - 466; Miller Richard L., Dag Hammarskgold and Crisis diplomaty (Newyork 1961), P. 178

وجه الثورة الأولى. وهكذا عادت الأحوال فجأة إلى التدهور، حتى أصبحت البلاد مهدَّدة بحرب أهلية[1]».

لا يستطيع المراقب إلاّ أن يظن على الأقل، بأن يداً معيَّنة كانت تسعى إلى القضاء على الكيان اللبناني في ذلك الموسم الوحدوي العربي. وأنّ تلك اليد التي كانت وراء اغتيال الصحافي نسيب المتني، الذي كان إضراب الاحتجاج على مقتله يوم الصفر لانطلاق ثورة ١٩٥٨ المسلمة، هي اليد التي كانت وراء اغتيال الصحافي فؤاد حدّاد ليكون يوم الاضراب احتجاجاً على مقتله يوم الصفر لبداية ثورة مضادّة تعيد شقّ ما كان يُعمل على إعادة لحمته. غير أن المداخلات الأجنبية لدولِ القرار جعلت السيد الجديد للعهد، الذي جاء به الأميركيون رئيساً، يعي أنه لن يتمكّن من تثبيت أركان الحكم إلاّ متى تمثّلت قوى البلاد الأخرى في الوزارة. لذلك سعى إلى تأليف وزارة أقطاب مثّل الثورة فيها رئيس الوزارة رشيد كرامي، ومثّل الثورة المضادة رئيس الكتائب بيار الجميِّل، وكان الوزيران الآخران: الحاج حسين العويني من وجهاء السنة في بيروت، وريمون إدِّه: نجل اميل إدِّه... وعميد حزب الكتلة الوطنية. وأُطلق على هذه الحكومة شعار: «لا غالب ولا مغلوب». وبذلك عادت الحياة الطبيعية إلى البلاد بلمح البصر لتستقرّ بضع سنوات، وسوف تكون نهاية ذلك الاستقرار الهش مع بدء ازدياد قوة المقاومة الفلسطينية في لبنان، نهاية الستينات، التي ستصبح بعرف مفتي الجمهورية اللبنانية آنذاك: «جيش المسلمين في لبنان[2]».

***

١ - كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ٢٤٩

٢ - في لقاء تمَّ بين المُفتي حسن خالد والزعيم الدرزي كمال جنبلاط قال الأخير للمفتي: «لولا الفلسطينيين لهُزمنا ودخل الكتائب البسطة... رأى المسيحيون الموارنة انو إذا قويوا الفلسطينيين رح يقوى المسلمين، ويطالبوا بحقوقهم أكثر وأكثر، وقالوا في خطر من الفلسطينيين علينا، يعني على امتيازاتهم، الفلسطينيون كما كنت تقول سماحتك هم جيش المسلمين... (ذكر هذا المحضر في كتاب الشيخ حسن خالد ص ٢٨٧)

لم يقضِ اخفاق الثورة المسلمة في لبنان سنة ١٩٥٨ في تحقيق أهدافها على استراتيجية المسلمين الثابتة، بل راحوا ينتظرون ... «يوماً آخر يكون أبرك». وقد بدا لهم أن ذلك اليوم قد اتى عندما أصبحت الثورة الفلسطينية في لبنان دولة أقوى من الدولة التي هي ضمنها. وإذ بدا للمسيحيين أن خطراً داهماً بات يهدِّد مصيرهم، ولهم في ذلك من الماضي القريب والبعيد أحداث وعبر، راحت قياداتهم وأحزابهم تتسلّح سرّاً في مقابل الترسانة الاسلامية الفلسطينية، وراح شبّانهم يتدربون على حمل السلاح. ولم يكن من الصعب توقّع اشتعال لبنان من قبل أي مراقب للأحداث التي كانت تجري في السنوات السبع السابقة لـ ١٣ نيسان (إبريل) ١٩٧٥، يوم أدّت حادثة تصادم بين الفلسطينيين من جهة، وبعض أعضاء نواة ميليشيا حزب الكتائب من جهة أخرى، إلى مقتل عدد من الطرفين، وسط منطقة مسيحية هي ضاحية جنوبية لبيروت: عين الرمّانة، وقد كانت تلك الحادثة الشرارة التي اشعلت فتيل هذا الوطن الذي كان قد أضحى برميل بارود.

ومن يراقب ما سبق ذلك الحادث من تحضيرات، لا بدّ له من أن يلاحظ أنّ التيارين السياسيين اللذين برزا مع تشكيل لبنان الكبير، كانا لا يزالان هما هما على نفس المسار الذي انطلقا عليه من العشرينات إلى الأربعينات، فكان المسلمون يعملون سراً وعلانية على دعم تشكّل ونمو الثورة الفلسطينية في لبنان، وهي الثورة العربية المسلمة، وإن كان بعض فصائلها قد رفع راية اليسار، بينما راح التيار الثاني يتوجّس خيفة من ذلك النمو، حتى إذا ما تأكّد له أن المحظور قريب الوقوع، راح يتسلّح. وإذ لم يكن في الأجواء ما من شأنه أن يبدِّد تلك الرؤية، وكانت الأوضاع الاقليمية والدولية في حرب باردة ينذر أفقها بالانفجار، وقد كان لبنان الأرض الأخصب لإشعال موقد انضاج طبخة إعادة ترتيب أوضاع الشرق الأوسط بوصفة أميركية جديدة، تزيح عن المائدة أطباق حلفاء الحرب العالمية الثانية، كانت حادثة عين الرمّانة كناية عن إشعال عود ثقاب ووضعه داخل الموقد.

كان مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد أصدق من تكلّم عن حقيقة العلاقة بين المسلمين اللبنانيين والثورة الفلسطينية في ما يختصُ بحرب لبنان إذ قال: «... قبلاً، كنا نلجأ إلى الضغط السياسي دائماً، وهذه كانت وسيلتنا الوحيدة للاصلاح والمساواة من جهة أخرى، برزت القضية الفلسطينية، فوجدنا انفسنا متلاحمين مع الفلسطينيين لأننا معاً نشكّل ايديولوجية واحدة. نحن والفلسطينيون شيء واحد: عربياً ودينياً ووطنياً[1]». وعندما سأل الرئيس الليبي مُفتي المسلمين السنة في لبنان عن قدرة طائفته على الصمود، أجاب:

«... إنّني أريد إن أقول لك أن قدرتنا مستمدّة من قدرة العرب، ومن قدرة الفلسطينيين في آن معاً، فإذا قالوا بأنهم قادرون على استمرار المعركة، فنحن قادرون أيضاً... نحن أقوياء بكم وبالفلسطينيين، هذا جوابي...[2]».

والحال هذه لا تختلف نظرة المسيحيين إلى الموضوع عن نظرة المسلمين. فقد ذكر أحد الأساقفة في رسالة وجّهها إلى الفاتيكان بمناسبة الحوار المسيحي الاسلامي أن «المسلمين اغتنموا الوجود الفلسطيني المسلّح على أرض لبنان، علماً بأنَّ أكثرية الفلسطينيين الساحقة من المسلمين، وحاولوا الاستيلاء على السلطة بقوة السلاح، في هدف جعل لبنان بلداً مسلماً كسائر الدول العربية في الشرق الأوسط حيث نظرياً، وغالباً عملياً، دين الدولة الاسلام، والاسلام مصدر التشريع، ذلك لأن لبنان هو البلد الوحيد في المشرق الذي يشذّ عن هذه القاعدة[3]».

لقد كان الميثاق الوطني، الذي توافق عليه اللبنانيون في بداية عهد الاستقلال، يقضي بأن لا يكون لبنان للغرب ممراً ولا للشرق مقراً. وفلسفة هذا الشعار أن لا يستقوي المسيحيون بالغرب ولا المسلمون بالشرق. غير أن الأحداث في نهاية الستينات وبداية السبعينات كانت تعزز موقع المسلمين في لبنان، وقد

١ - الشيخ حسن خالد، ص ٢٨٢
٢ - المرجع السابق، ص ٢٨٣
٣ - رسالة للمطران بول باسيم

تمادوا في خروجهم على الميثاق، فراحوا يستقوون بالمقاومة الفلسطينية وبالأموال العربية عاملين، علانية وسراً، من أجل القضاء على الصيغة اللبنانية، وعلى الميثاق الوطني. وكان المسيحيون قد فقدوا ذلك الدعم التقليدي الذي عهدوه في الغرب حتى إنهم في وقت من الأوقات قد شعروا بأن الكرسي الرسولي ينطلق في اعتباراته من منطلقات قد تكون خطرة على كيانهم.

فلقد بدا أن الفاتيكان يحمِّل المسيحيين اللبنانيين وزر مسيحيي الشرق الأوسط والبلدان الاسلامية الأخرى. وقد كان في ذلك سبباً أساسيّاً في تعارض وجهات النظر بين الفاتيكان وبعض القوى الممثّلة في «الجبهة اللبنانية» التي مثّلت بخلال تلك الحرب مجموعة القوى المسيحية المقاومة. وعندما أرسل قداسة البابا بولس السادس الكاردينال برتولي إلى لبنان لتدارس الوضع والبحث «عن صيغة مقبولة للتعايش من قبل جميع الفئات» قال برتولي لمن اجتمع بهم من قادة الجبهة أن «الفاتيكان يهتم بمجموع المسيحيين المتواجدين في المنطقة... ويعارض فكرة التقسيم، لأن ذلك سيحمل اسوأ النتائج على ملايين المسيحيين في الشرق العربي[1]».

وكان قداسته قد استقبل خلال الحرب أحد مطارنة الموارنة، فحيَّاه بقوله: «إني أحيِّي من خلالك كل الشعوب التي تعيش عندكم هناك[2]».

لقد كانت تلك التحيَّة من قبل رأس الكنيسة الكاثوليكية للمطران الماروني، خروجاً على المألوف... إذ كان التقليد المتَّبع يقضي بأن يحيي البابا «الشعب اللبناني» ويدعو له بالتوفيق.

ولما وصل خبر تحيَّة قداسة البابا «الجديدة» إلى بيروت، والحرب كانت في أوجها، توجس الكثيرون من قادة القوى المسيحية خيفة، معتبرين أن الفاتيكان يقصد من تحيته الجديدة شمل الفلسطينيين. وعندما قدم الكاردينال برتولي إلى

١ - «الحوادث»، العدد ١١٦٦، تاريخ ٩ آذار (مارس) ١٩٧٩، ص ١٤
٢ - مفرَج، حرب الردّة، ص ٩٤

لبنان، سمع من أكثر من مسؤول حزبي وديني مسيحي ما يعبّر عن خيبة الأمل المسيحية من موقف الكرسي الرسولي «غير المتفهّم تماماً لحقيقة الأوضاع اللبنانية». وقد تبع ذلك سلسلة لقاءات بين وفود مسيحية لبنانية ووفود من الفاتيكان، فتبيَّن أخيراً أن الموقف النهائي للكرسي الرسولي هو:

١ ـ معارضة الفاتيكان لتقسيم لبنان.

٢ ـ معارضة الفاتيكان «لضم لبنان».

إنّما الحلول التي يعمل الفاتيكان من أجلها منبثقة من جوهر الصيغة اللبنانية.

وهكذا فإنَّ اعتبارات الفاتيكان جعلت مسيحيي لبنان يتحمَّلون، في أصعب ظروفهم، أوزار ومسؤوليات سلامة مسيحيي الشرق الأوسط وسائر البلدان الاسلامية. فإنَّ مواقف الفاتيكان، النابعة من تلك الاعتبارات الانسانية، قد حرمت مسيحيي لبنان، في صراعهم المرير، من دعم معنوي كان من شأنه أن يساعد على ايجاد التوازن المفقود بعد خروج المسلمين اللبنانيين على الميثاق الوطني وبروز الفلسطينيين كقوة ثقيلة تقاتل إلى جانب المسلمين، وشيوع إرسال الاسلحة والعتاد والمال والرجال إليهم من بعض الدول العربية لدعمهم في مقاتلة المسيحيين.

أمّا الدعم التقليدي الآخر، الذي اعتاد المسيحيون اللبنانيون ان يأملوا به، وهو دعم الغرب عامة، وفرنسة خاصة، فكان في هذه الظروف مستحيل المنال، لأن فرنسة، وغيرها من بلاد الغرب المسيحي، كانت في وضع سياسي ضعيف من جهة، ومن جهة ثانية كانت مهتمّة بشؤون الاقتصاد والطاقة، وليس بوسعها، أو من مصلحتها، أن تُعادي ملايين المسلمين العرب من أجل صداقة بضع مئة ألف مسيحي، ليس لديهم مال ولا بترول. أمّا السياسة الأميركية فكانت بعيدة كل البعد عن المفاهيم الانسانية المجرَّدة، وخاضعة، من جهة، للأهداف المنبثقة عن أجهزة الاستخبارات، وتلك المنبثقة، من جهة ثانية، عن المصالح الصهيونية. وكانت استراتيجية الاتحاد السوفياتي أممية يسارية، بينما المسيحيون في لبنان، وبخاصة

المقاومون منهم، متديّنون بعيدون كل البعد، لا بل إنهم معادون لكل ما من شأنه أن يتَّصف بالإلحاد.

تجاه هذا الواقع، لم يبق أمام الشعب المسيحي في لبنان، المتمسِّك بأرضه وحريته، إلاَّ أن يتكل على نفسه، وأن يقاوم ويدافع عن أرضه ومهد وجوده، مقاومة اليائس المُستيمت. حتى إن بعض قادة هذا الشعب قد صرَّح، في ظروف قاسية يائسة، بأنه مستعد للتعاون مع الشيطان من أجل إنقاذ نفسه. أما الشيطان المقصود فكان: اسرائيل.

ليس من المعقول تبرئة اسرائيل من ... دم اللبنانيين. فلقد كان، لهذه الدولة الأحدية الدين، استراتيجية مناهضة تماماً لشكل الصيغة اللبنانية والميثاق. ولقد برز هذا التناقض نافراً عندما قصد رئيس الجمهورية اللبنانية منبر الأمم المتَّحدة سنة ١٩٧٤ برفقة رئيس منظَّمة التحرير الفلسطينية، ليدعو اسرائيل إلى انتهاج نظام تعايشي بين اليهود والمسلمين والمسيحيين، شبيه بالنموذج اللبناني الذي برهن على حضارته الراقية. ولم يقابل كلام الرئيس الماروني سليمان فرنجية بغيظ اسرائيلي أقلّ من الغيظ الذي قوبل به كلام ياسر عرفات الذي اعتلى منبر الامم المتحدة معلناً أنه يحمل غصن زيتون بيد، وبندقية باليد الأخرى.

كان من الطبيعي أن تعمل اسرائيل كل ما بوسعها لتبرهن للملأ، عملياً، أن النظام اللبناني المطروح كنموذج لاسرائيل فلسطينية، إنمّا هو محكوم بالانفجار. وسرعان ما انزلق الفلسطينيون في الفخ الاسرائيلي، سواء عن جهل أو عن تواطؤ، ليعلنوا†، بعدما أشعلوا لبنان، أن طريق فلسطين تمرّ في جونيه.

وركب جميع الحاقدين والطامعين المطية الفلسطينية لينقضُّوا على المسيحيين.

تألَّف لكل طائفة اسلامية ميليشيا: للسنة. للشيعة. للدروز. وكان كل من هؤلاء يسعى لأهدافه، بعضهم باطنياً تقيَّة، وبعضهم سنّة على سن الرمح. واستقطر المسلمون مرتزقة ومتعصِّبين أصوليين. واستقطر اليساريون ثوَّاراً هواة ومرتزقة. وتحالف جميع تلك القوى تحالفاً غريباً عجيباً ليؤلِّفوا جحافل حاولت اجتياح لبنان

المسيحي، فتمكّنت من أطراف المناطق المسيحية، وأعادت إلى الاذهان ذكرى القرون الغابرة القاسية، وأضحى لبنان، الذي كان يوصف بأنه سويسرة الشرق، مسرح أحداث دمويّة مروّعة، رخُص فيها الإنسان وانهارت القيم والعهود والاصول.

عانى المسيحيّون في لبنان الكثير بخلال حرب السبعينات والثمانينات من هذا القرن، مثلما عاناه أبناء سائر الطوائف التي يؤلّف مجموعها شعب هذا البلد الذي أُريد له أن يكون نموذجاً حضاريّاً متقدّماً لتعايش الاديان. وقد وُصفت هذه الحرب، التي لم يحن بعد زمن تأريخها، حيناً بأنها أهلية، وحيناً آخر بأنّها طائفيّة، وأحياناً بأنها حرب الآخرين على أرض لبنان. وقد يكون من الأصحّ عدم حصر وصف هذه الحرب بصفة واحدة من كلّ تلك الصفات، التي قد يكون جميعها صحيحاً، لا بل بالامكان إضافة صفات عديدة أخرى إليها. ذلك أن حرب لبنان قد جاءت نتيجة عوامل كثيرة، داخلية وإقليميّة ودوليّة، سوف يمضي وقت طويل قبل التمكّن من فك رموزها. إنّما الذي يعنينا في هذا المجال، أن المسيحيين في لبنان خرجوا من تلك الحرب منهوكي القوى، وليس بالإمكان، حتّى الساعة، تحديد الخسائر التي مُنُوا بها جراء تلك الحرب، وإن كانت الصورة الظاهرة تدلّ على أنّهم قد خسروا كثيراً.

واليوم يبدو للناظر سطحياً أن المسيحيين في لبنان هم في حالة إحباط، وقد يكون السذّج منهم كذلك، إلاّ أن الناظر عمودياً يدرك أن المسيحية ولبنان توأمان سياميان لا ينفصلان. ولن يكون شرق بلا مسيحية حرّة. ولن يكون مسيحية حرة في الشرق بلا لبنان.